قبيلة عنزة الوائلية في كتابات الرحالة والمستشرقين



تأليف
فائز الرُويْلي

الدار العربية للموسوعات

Scanned with CamScanner

اسم الكتاب: قبيلة عَنَزَة الوائلية في كتابات الرحَّالة والمستشرقين

المؤلف: فائز الرُّوَيْلي

الطبعة الأولى: ٢٠١٥م - ١٤٣٦هـ

© جميع الحقوق محفوظة

ISBN 978-614-424-202-5



الدار العربية للموسوعات

المدير العام: خالد العاني

الحازمية - مفرق جسر الباشا - سنتر عكاوي - ط١ - بيروت - لبنان
ص.ب: ٥١١ الحازمية - هاتف: ٩٥٢٥٩٤ ٥ ٩٦١ ٠٠ - فاكس: ٤٥٩٩٨٢ ٥ ٩٦١ ٠٠
هاتف نقال: ٣٨٨٣٦٣ ٣ ٩٦١ ٠٠ - ٥٢٥٠٦٦ ٣ ٩٦١ ٠٠
الموقع الإلكتروني: www.arabenchouse.com البريد الإلكتروني: info@arabenchouse.com

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن مسبق من الناشر.

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

Scanned with CamScanner

قبيلة عنزة الوائلية في كتابات الرحالة والمستشرقين

تأليف
فائز الرويلي

الدار العربية للموسوعات
بيروت

Scanned with CamScanner

اهداء

أقدم هذا الكتاب هدية متواضعة إلى:

والدتي التي أرضعتني حب الخير والعطاء، وحب العلم والعلماء، رحمها الله.

وإلى والدي الذي كان تاريخاً يمشي على الأرض، والذي ما بخل علي يوماً بكتاب، رحمه الله.

وإلى عمي (رخي) الذي غمرني بحبه وعطفه في أثناء وجود والدي وبعد وفاته، رحمه الله.

ابنكم المؤلف
فائز الرويلي

Scanned with CamScanner

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.. أما بعد:

فقد نبعت فكرة هذا الكتاب (**قبيلة عَنَزَة الوائلية في كتابات الرحَّالة والمستشرقين**) من شغفي بالرحلات وقراءة كتب الرحلات؛ لذلك تجد مكتبتي - دون مبالغة - ثلثها من هذا النوع؛ زد على ذلك الموضوعات التي أشارك بها بين فترة وأخرى في المنتديات الحوارية على شبكة المعلومات العامة (الإنترنت)، والتي أتناول فيها ما قاله الرحَّالة عن قبيلة عَنَزَة الوائلية؛ لذلك شَمَّرتُ عن ساعد الجد، وقمت بقراءة كتب الرحَّالة والمستشرقين، وجمعت النصوص التي كتبوها عن قبيلة عَنَزَة الوائلية، وبدأت في ترتيبها وتنسيقها.

وكانت خطة البحث كالتالي:

١ - ذكر المحقق أو المترجم الذي أخرج الرحلة لأهل العربية.

٢ - دار النشر التي قامت بطبعه ونشره.

٣ - نبذة موجزة عن الرحَّالة والرحلة.

٤ - استعراض النصوص التي ورد فيها ذكر قبيلة عَنَزَة والتعليق عليها بما يسمح به النص المنقول، ومحاولة إعطاء القارئ الكريم صورة

Scanned with CamScanner

واضحة من التاريخ الوائلي. وبعض النصوص المنقولة تجاوزتها ولم أعلق عليها؛ نظراً لأن كلام بعض الرحَّالة اعتيادي، ولا يحتاج إلى شرح أو توضيح أو حتى تفنيد. كما أني قمتُ بتشكيل الكلمات التي تحتاج إلى ذلك؛ حتى يصل المعنى إلى القارئ الكريم.

لم أتدخل في النص المنقول، كل ذلك حفاظاً على مقصد الرحَّالة، ومن باب الأمانة العلمية أيضاً، وإن حصل خطأ فهو من المترجم، بالذات فيما يتعلق بالرحَّالة الأجانب. كما أني صححت أسماء الأعلام والقبائل التي تحتاج إلى تصحيح خاصة أن بعض المترجمين ليسوا على اطلاع كامل بتفرعات وتقسيمات القبائل الوائلية حتى يكتبوا الصواب عند التحقيق والترجمة؛ لذلك عدَّلتها تلقائياً. زد على ذلك أني لا أعلم الخطأ من أين أتى!! هل هو من الرحَّالة أو من المترجم الذي نقله لأهل العربية؟!

رتبت هذه الرحلات ترتيباً تاريخياً. وحاولت عند كتابة تاريخ بعض الأحداث أن أذكر الأساس الذي نفتخر ونعتز به وهو التاريخ الهجري، ثم ما يوافقه من التاريخ الميلادي، لمن لا يعرف التاريخ الهجري خاصة أن بعض العرب قد نسوا بعض أسس وأصول حضارتهم.

لم أتطرَّق للأسر العنزية الوائلية الحاكمة وهم: آل سُعُود وآل خليفة وآل صباح؛ لأنهم فخر لجميع العرب وليس فقط لقبيلة عَنَزَة، والذي يريد التحدث عنهم لا بد أن يفرد لكل أسرة حاكمة كتاباً خاصاً بها حتى يعطيها حقها من الكتابة، وقد فعل ذلك الكثير من الكُتَّاب والمؤرخين في القديم والحديث. أيضاً وليس كل ما ذكر عن قبيلة عَنَزَة أوردته؛ بل تجاوزت بعض المقاطع حيث إن بعضها ليس فيه كبير فائدة للقارئ الكريم، أو أن يكون مكرراً. أنا اجتهدت في الاختيار والكمال لله وحده.

(ويجب) على القارئ الكريم أن يفطن إلى أن من كتب هذه

النصوص هم رحَّالة، وبعضهم يختلف معنا في أشياء كثيرة، ولا يؤخذ قوله على أنه آية منزلة لا ينبغي لنا أن نتقدم عليها أو نتأخر؛ بل هي نصوص قد يفتقد بعضها الدِّقة، وبعضها من خيال الرحَّالة الواسع. والرحَّالة مثلهم مثل غيرهم، منهم من هو في أعلى الرتب العلمية والثقافية، وبعضهم لا يعدو كونه سائحاً سجل مرئياته ومشاهداته، ونظرته كنظرة الطير عندما يغدو صباحاً ويروح مساء، فإننا لو جمعنا ما رآه الطير لا نجده شيئاً ذا بال!! فهي نظرات سريعة لا تعطينا الصورة كاملة كما ينبغي. وبعضهم كان رحَّالة متمكناً نقل لنا الكثير من الفوائد، وكان موضوعياً في وصفه وتوصيفه، وهؤلاء أيضاً مع ما في كتبهم من فوائد تبقى بعض كتاباتهم محل نظر.

ويجب - أيضاً - على القارئ الكريم أن يعي أهداف الرحَّالة؛ خاصة الأجانب منهم، فإنَّ منهم من أتى مُبْشِّرَاً بالنصرانية، ومنهم من أتى كجاسوس لمن بعثه، ومنهم من أتى كسائح إعتيادي؛ مثل حالنا اليوم نذهب إلى الشرق والغرب ليس لنا هدف غير الاستمتاع والترويح عن النفس. وبصرف النظر عن أهداف الرحَّالة فإنَّ الحكمة ضالة المؤمن أنَّى وجدها أخذها وهو أحق الناس بها.

بعض الرحَّالة كتب رحلته على هيئة رسائل يبعثها إلى من يهمه الأمر، يخبره فيها بالتفاصيل، وبعضهم كتب رحلته على هيئة يوميَّات، وهذا هو الغالب، والبعض الآخر كتب رحلته على هيئة مذكَّرات شخصية، وهي في الحقيقة رحلة في الحياة، وهذه الأخيرة قد نقلت منها النصوص التي تحدثت عن قبيلة عَنَزَة وعلّقت عليها أسوة بنصوص الرحَّالة الآخرين.

وينبغي للقارئ الكريم أن يفطن إلى أن المقصود بهذا الكتاب هو ما جاء بقلم الرحَّالة عن قبيلة عَنَزَة فقط لا غير. أمَّا ذكر القبائل والمجتمعات الأخرى

فلم أنقل منه شيئاً إلا ما دعت الحاجة إليه كأن يأتي ذكرهم عَرَضَاً في نفس المقطع المنقول، وبتره أو حذف هذه الجُمل قد يُخلّ بالنص المنقول.

كما أود أن أذكِّر القارئ الكريم أني لم أجتهد كثيراً في الحصول على معلومات أكثر عن هؤلاء الرحّالة، إذ إنهم غير مقصودين بهذا الكتاب، والنبذ المكتوبة عن هؤلاء الرحَّالة من باب اكتمال الصورة عن هذه الرحلات فقط لا غير. ويكفي من القلادة ما أحاط بالعنق.

وفي النهاية لا أقول إني قد نقلت كل ما قيل عن قبيلة عَنَزَة، كما لا أقول إني قد وضحت وشرحت البعض الآخر والذي انتقيته ونقلته هنا؛ بل هي اجتهادات ومحاولات لتوضيح وشرح ما قاله هؤلاء الرحَّالة عن هذه القبيلة الكبيرة بملوكها وأمرائها وشيوخها وفرسانها ووجهائها وأعيانها وأفرادها ولله الحمد والمنة.

وأود أن أوضح للقارئ الكريم أن الكمال لله وحده، وأنا اجتهدت، فإن أصبت فمن الله وحده، وقد كسبت أجرين: أجر الاجتهاد وأجر الإصابة، وإن أخطأت فمن نفسي والشيطان، وقد كسبت أجراً واحداً: وهو أجر الاجتهاد. والباب مفتوح مستقبلاً - إن شاء الله - لمن يريد طرق هذا الباب فهو يتسع لأكثر من باحث أو كاتب، وقبيلة كبيرة مثل عَنَزَة لا يمكن أن يحصي تاريخها أحد، وما زال المؤرخون ينهلون منه في الماضي والحاضر، ولن ينضب؛ لأن الوائليات كُنَّ ولا زلن يُنجبن الرجال الذين يصنعون هذا التاريخ بإذن الله.

هذا ما تيسر والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

كتبه/ فائز بن دميثان الرويلي

الثلاثاء ١ جمادى الثانية ١٤٣٥هـ

الموافق ١ أبريل - نيسان ٢٠١٤م

طيبة الطيبة

Scanned with CamScanner

الدُّرَرُ الفَرَائِدُ المُنَظَّمَة
في أَخْبَارِ الحَاجِّ وَطَرِيق مَكَّة المُعَظَّمَة
٩٥٥هـ/١٥٤٨م تقريباً

أعدَّه للنشر: حَمَد الجاسر.

الناشر: دار اليمامة، ط٢، الرياض، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

عدد الصفحات: ٢٣١٣ صفحة في ثلاثة أجزاء كبيرة.

الرحَّالة والرحلة:

هو عبد القادر بن محمد بن عبد القادر بن إبراهيم الأنصاري الجزيري الحنبلي. ولد بمصر عام ٩١١هـ/ ١٥٠٦م.

وفي عام ٩٤٠هـ/ ١٥٣٤م عمل مع أبيه في وظيفة كاتب ديوان إمرة الحاج، حتى توفى أبوه عام ٩٤٤هـ/١٥٣٨م بعد أن انقطع عن العمل بسبب مرض الفالج، فاستقلَّ بعده في العمل، وصار كما يقول: «كالمحبوس على أمر هذا الديوان». وهو الذي رتَّبه بعد أبيه، ووضع القواعد التي يعتمد عليها في أمور الحاج ومهماته.

وكان عبد القادر الجزيري - رحمه الله - يرافق قافلة الحج المصرية كأحد الموظفين المكلَّفين بذلك، وقبل ذلك كان يرافق والده حيث كانت أول حجة له في عام ٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م إلا أنه في

Scanned with CamScanner

السنين الأخيرة من عمره لم يرافقهم بسبب خلافه مع بعض أمراء الحج المصري.

وقد جاء هذا الكتاب يصف فيه طريق الحج البريّ من مصر إلى مكة المكرمة، حيث ذكر المواضع والمناهل المائية وقَدَّر المسافات فيما بينها، وذكر العُرْبَان بتفصيل بطونهم وأفخاذهم. وجاء ذكر قبيلة عَنَزَة الوائلية في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

اختلف في تاريخ وفاة الجزيري، إلا أنه من الثابت أن آخر حجة له كانت في عام ٩٧٦هـ/ ١٥٦٩م رحمه الله رحمة واسعة.

Scanned with CamScanner

قبيلة عنزة
في رحلات الجزيري



يقول الجزيري في كتابه الدُّرَرُ الفَرَائِدُ المُنَظَّمَة (٢/ ١٤٠٢) في عام ٩٥٥هـ/ ١٥٤٨م تقريباً: **وعُرْبَان العَنَزَة يأتون من حوالي المدينة الشريفة، وحدودهم من طرف الحَنَك من الجهة القبلية إلى المدينة الشريفة إلى آبار عليّ، إلى جبل مُفَرِّح، وربما يتبع الحاج نفر منهم في الأحيان من أَكْرَى.**

والعَنَزَة بَدَنَاتٌ منهم حَجَّاج وجُبَّارَة، والمَصَالِيْخ وبِشْر ووُلْد علي، والشِّمْلَان، والعمَارَات والسُّبَعَة - بسين مهملة بشدة مضمومة - والسحالين(؟) وبنو سليمان، والطُّوَالِعَة والجَلَاس - بفتح الجيم المعجمة واللام - والحْسَنَة والفِدْعَان والشَّرَاعِبَة ووَهَب. اهـ.

الحَنَك: من منازل الحاج المصري، ويقع بين الوَجْه وأُمْلُج، ويُسَمَّى بين الدَّرْكَيْن، لأن ما قبله يسير الحاج المصري في دَرَك قبيلة بلي[1]، أي حراستهم وحمايتهم، وما بعده يسير الحاج المصري في دَرَك قبيلة جُهَيْنَة، أما الحَنَك فأشبه ما يكون بالمنطقة المحايدة بين بلي وجُهَيْنَة، يسير الحاج فيه بدون دَرَك. والدَّرك - بفتح الراء وسكونها -

---

(١) بلي: بفتح الباء وكسر اللام، وهذا هو الرسم واللفظ الصحيح لهذا الإسم، إلا أننا في هذه الأيام نلفظها بكسر الباء واللام، كغيرها من الأسماء التي تصحَّفت وتغيرت.

Scanned with CamScanner

مأخوذ من الإدراك وهو التبعة، أي أن القبيلة تتحمل تبعات ما يحدث في أراضيها. قال الجزيري عن الحَنَك: «وكانت الإقامة بأَكْرَى يوماً وليلة، وسار [الحاج المصري] إلى طارف الحَنَك إلى أن قطعه وهو فضاء واسع كبير، وطارف جبل صغير يُرَىَ على مسيرة الرَّكْب ذهاباً وهو المُسَمَّى بالحَنَك»[١].

وجاء السَّرَاج بن مليح مع الحاج المغربي في عام ١٠٤٠هـ/ ١٦٣٠م، بعد الجزيري بحوالي ٨٠ سنة، وتحدَّث عن منازلهم فقال: «ثم لموضع صحرا يُقَال له: بين الدَّرْكَيْن»[٢].

آبار علي: هو ميقات ذي الحُلَيْفَة، وهو لأهل المدينة ومن يمر به، عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ إذا وضع رجله في الغرز، وانبعثت به راحلته قائمة، أَهَلَّ من ذي الحُلَيْفَة». رواه مسلم[٣].

ومن فضائل ذي الحُلَيْفَة الواقعة في طرف وادي العَقِيْق: عن عمر رضي الله عنه يقول: سمعت النبي ﷺ بوادي العَقِيْق يقول: «**أتاني الليلة آت من ربي، فقال: صَلِّ في هذا الوادي المبارك وقُل عُمرة في حجة**». رواه البخاري[٤].

وصارت تُعرف فيما بعد باسم آبار علي، ذكر ذلك المطري في القرن الثامن الهجري[٥]. ولا صحة لما يتناقله بعض الناس من أن سبب التسمية هو سلطان دارفور، واسمه عليّ بن دينار، حيث إنه عندما حج في حدود

---

(١) الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، الجزيري، ٢/١٤٠٢.

(٢) أنس السَّاري والسَّارب، السَّراج بن مليح القيسي، ص٧٢.

(٣) صحيح مسلم، ٢/ ٨٤٥، ح١١٨٧.

(٤) صحيح البخاري، ٢/٥٥٦، ح١٤٦١.

(٥) انظر: التعريف بما أنست الهجرة من معالم دار الهجرة، جمال الدين المطري، ص١٦٧.

Scanned with CamScanner

عام ١٣١٥هـ/١٨٩٨م ووجد مسجد ذي الحُلَيْفَة في حالة يُرثى لها أمر بترميمه وفرشه، وحفر بعض الآبار حوله، ومنها سُميت آبار علي!! هذه الرواية غير صحيحة. قد يكون سلطان دارفور فعل ذلك؛ لكن الاسم أقدم من هذا التاريخ بكثير والله أعلم.

وفي العهد السعودي، أصبحت آبار علي أحد أحياء المدينة، بعد أن وصل العمران إليها. وقد أمر خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز - رحمه الله - ببناء مسجد كبير في هذا الميقات، بدل المسجد القديم، مُجهَّز بكافة التجهيزات التي يحتاجها الحاج والمعتمر والزائر. وقد تم الانتهاء من بناء مسجد ذي الحُلَيْفَة، في يوم الجمعة ١٧/ ٥/ ١٤١٠هـ الموافق ١٥/ ١٢/ ١٩٨٩م.

جبل مُفَرِّح: يقع غرب المدينة النبويَّة، ويبعد عنها حوالي ٣٠ كيلاً، على طريق مكّة المُعبَّد القديم، والذي يمر من خلال وادي الصفراء، ويُعرف المكان الآن باسم: المُفَرِّحَات. سُمي بذلك لأن المسافر من عنده يرى المدينة فيفرح لقرب وصوله.

أَكْرَى: هو أحد مصبَّات وادي الحَمْض، والثاني يُسَمَّى اليعبوب، ويقع جنوب أَكْرَا. وفي أَكْرَا مبنى أثري يُسَمَّى قصير (تصغير قَصْر) سعيد، ويبعد عن الوَجْه جنوباً حوالي ٥٠ كيلاً. ذكر الجزيري هذا الموضع في الدُّرَرُ الفَرَائِدُ المُنَظَّمَة باسم: أَكْرَه، ومَرَّة باسم: أَكْرَى. وتبدَّل هذا الاسم فيما بعد إلى العَكْرَة، كعادة العرب - أحياناً - في إبدال حرف الألف عيناً. وأعتقد - والله أعلم - ان اسمه الآن وادي الكُرّ. قال عنه الجزيري: «وأَكْرَى حَدُّ أرض بلي من جُهَيْنَة، وهو فضاء واسع، ومرعى، وماؤها حفائر جفار غير سائغة، وهي مختلفة منها ما هو مالح جداً، ومنها ما هو دونه، وإذا لم تكن الأرض سائلة من المطر فالملوحة متزايدة، وبالضِّدِّ، وتزعم الجمَّالة أن ماءها خبيث لشرب الجِمال، وليس

Scanned with CamScanner

بصالح، وأنه يضرها بخلاف ماء الأَزْلَم. وأرضها رديَّة سَبَخَة، وأفاعيها قتَّالة في الغالب»[١].

أما تفرعات قبيلة عنزة الواردة في هذا النص، فالحقيقة أن هذا أول ذكر - حسب علمي - لقبائل عنزة الوائلية بهذه التسميات في المصادر، إلا أن عليه بعض الملحوظات، ومنها أنه ذكر القبائل والعشائر والأفخاذ هكذا سرداً بدون تفريع صحيح لها كالمعتاد، وهذا مقبول منه كشخص غير متخصص في الأنساب وطريقة عرضها.

العَنَزَة: والصواب بدون تعريف. عَنَزَة: بفتح العين والنون والزاي، وهذا هو الرسم واللفظ الصحيح لهذا الإسم، إلا أننا في هذه الأيام نلفظها: اعْنِزَة. كغيرها من الأسماء التي تصحَّفت وتغيرت. وعَنَزَة اسمه عامر، والعَنَزَة هي الحَرْبَة الصغيرة؛ وذلك لأنه قتل رجلاً بحربة صغيرة فسمي عَنَزَة. وجاء في الحديث أن النبي ﷺ صلى بهم في البطحاء؛ الظهر ركعتين والعصر ركعتين، وبين يديه عَنَزَة، وهي حربة صغيرة جعلها سترة له في الصلاة[٢].

حَجَّاج: هذا هو اسم قبيلة الفُقَرَا (الافْقَرَا) قديماً.

الجِلاس: كتبها المؤلف بفتح الجيم، ونحن نلفظها بالتسكين والكسر. ومُسمّى الجِلاس هو الغالب والمعروف في ذلك الزمان، والذي غلب عليه في القرنين الأخيرين مُسمّى الرُّوَلَة.

قِدم هذه الأسماء، حيث إنها في وقت الجزيري قبائل وعشائر معروفة. والذي يترجَّح لدي أن عُمْر هذه الأسماء في ذلك الوقت لا يقل عن ٢٠٠ سنة، حتى صارت أسماء لقبائل معروفة ومعروف من ينتسب إليها.

(١) الدُّرَرُ الفَرَائِدُ المُنَظَّمَة، الجزيري، ٢/ ١٤٠٠.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

Scanned with CamScanner

وخلاف ذلك، هذه هي أقسام قبيلة عَنَزَة الوائلية بحسب الموروث الثابت عند أبناء وائل:

تنقسم قبيلة عَنَزَة الوائلية إلى قسمين رئيسين:

١ - ضَنَا[١] مُسْلِم.

٢ - ضَنَا بِشْر.

ومن ضَنَا مُسْلِم من عَنَزَة الوائلية:

١ - الجِلاس. ٢ - بنو وَهَب.

ومن الجِلاس:

١ - الرُّوَلَة. ٢ - المْحَلَف (الامْحَلَف).

ومن المْحَلَف (الامْحَلَف): ١- السُّوَالِمَة. ٢- الأَشَاجِعَة. ٣- العَبَادِلَة.

وقبيلة الرُّوَلَة هي أكبر قبائل عَنَزَة، ولها صفة الاستقلالية، فلقب الرُّوَيْلِي يغني عن العنزي، هذا هو المتعارف عليه عند عَنَزَة وعند غيرهم. وعشائر المْحَلَف (الامْحَلَف) داخلين في قبيلة الرُّوَلَة منذ القِدَم.

ومن بني وَهَب من ضَنَا مُسْلِم من عَنَزَة الوائلية:

١- وُلْد[٢] علي. ٢- الشَّرَاعِبَة. ٣- المَنَابِهَة.

ومن المَنَابِهَة:

١ - الحْسَنَة (الاحْسَنَة). ٢ - المَصَالِيْخ.

---

(١) ضَنَا: أي عقبه وذريته.

(٢) ولد: بضم الواو وخفضها وتسكين اللام وتعني: أولاد علي وعقبه وذريته.

٣ - الفَقْرَا (الافْقَرَا). ٤ - المرزوق. ٥- الخَمَاعِلَة.

ومن المرزوق: ١- الصَّقَرَة. ٢- الحُجُوْر.

والحُجُوْر منهم عشيرة كبيرة بنفس الاسم مع قبيلة جُهَيْنَة العريقة.

ومن ضَنَا بِشْر من عَنَزَة الوائلية:

١ - العَمَارَات (الاعْمَارَات). ٢ - ضَنَا عُبَيْد.

ومن العَمَارَات (الاعْمَارَات):

١ - الجبل. ٢ - السَّلْقَا. ٣ - الدَّهَامِشَة.

ومن الجبل: ١- الجِبْلان. ٢- الصقور.

ومن السَّلْقَا:

١ - الشِّمْلَان. ٢ - البَجَايْدَة. ٣ - المَطَارِفَة. ٤ - الجُبُوْر.

٥ - الحْسِنِي (الاحْسِنِي). ٦ - المُضَيَّان.

ومن ضَنَا عُبَيْد من ضَنَا بِشْر من قبيلة عَنَزَة الوائلية القبائل الآتية:

١- وُلْد سليمان. ٢- السَّبَعَة. ٣- الفِدْعَان.

ومن وُلْد سليمان:

١- الجَعَافِرَة. ٢- الغَضَاوِرَة. ٣- الخْمِشَة (الاخْمِشَة). ٤- السَّلِمَات.

هذه هي قبيلة عَنَزَة الوائلية بشكل عام، وقد حاولت تسليط الضوء على أسماء القبائل المعروفة فقط لا غير دون ذكر العشائر أو فروعها، إذ هذا الكتاب ليس مختصًا في الأنساب، ومن أراد الاستزادة والبسط فليراجع كتاب أصدق الدلائل لعبدالله بن عبَّار العنزي، وكتاب قبيلة الرُّوَلَة في التاريخ لكاتب هذه السطور.

Scanned with CamScanner

النَّفْحَةُ المِسْكِيَّة في الرحلة المَكِيَّة
١١٥٧هـ/١٧٤٤م



تحقيق: د. عماد عبد السلام رؤوف.

الناشر: الدار العربية للموسوعات، بيروت، ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م.

عدد الصفحات: ٤٩٦ صفحة.

الرحَّالة والرحلة:

هو عبدالله بن حسين بن مرعي بن ناصر الدين البغدادي، أبو البركات السُّويدي، فقيه متأدب، من أعيان العراق، وهو أول من عُرف بالسُّويدي من هذا البيت، ولد في كَرْخ بغداد عام ١١٠٤هـ/١٦٩٣م، وتوفي والده وهو طفل، فكفله عمه لأمه الشيخ أحمد سويد، وتعلّم واشتهر.

قال عنه الأديب المؤرخ عصام الدين العمري الموصلي: ممن يجلّه الدهر، ويعظّمه العصر، ويقدّمه الفخر، صاحب الامثال السائرة، والبديهة الغريبة النادرة، النبيه النبيل، رجل العراق وواحد الأدب على الإطلاق.

Scanned with CamScanner

ومن مؤلفاته:

١ - الجمانات في الاستعارات. وقد عهد لابنه عبد الرحمن أن يكمله فأكمله.

٢ - إتحاف الحبيب. حاشية على مغني اللبيب.

٣ - شرح صحيح البخاري.

٤ - ديوان يشتمل على منظوماته.

٥ - النَّفحة المسكيَّة في الرحلة المكيَّة.

والنَّفحة المسكيَّة هي رحلته إلى الحج عام ١١٥٧هـ/ ١٧٤٤م. وصف فيها عدداً من المدن والقرى والمحطات التي كانت تقع على طريقه، وكان خط سيره باختصار كالآتي: بغداد - تكريت - الموصل - حلب - حماة - حمص - دمشق. بعد ذلك رافق المحمل الشامي في رحلته المعتادة سنوياً، وأدَّى فريضة الحج في تلك السنة.

عاد السُّويدي إلى بغداد، وتوفي بها عام ١١٧٤هـ/ ١٧٦١م رحمه الله.

وقد أعقب السُّويدي عدداً من الأبناء وهم:

١ - أبو الخير عبد الرحمن: مؤرخ أديب فقيه شاعر.

٢ - أبو السعود محمد سعيد: فقيه شاعر.

٣ - أبو الفتوح إبراهيم: توفي بالهند، وكان مُحَدِّثاً أديباً.

٤- أبو المحامد أحمد: الشاعر المؤلف في الأدب والتصوّف.

وهؤلاء كلهم عَالمٌ انتهت إجازات العديد من العلماء العراقيين اليهم. وقد وُصفت أسرة السُّويدي بأنها: واحدة من تلك الأسر العربية

Scanned with CamScanner

الفاضلة، التي حفظت لنا تقاليد العلوم الإسلامية القديمة، في هذه العصور المظلمة، بالنسبة للأدب العربي، ومهَّدت الطريق لنهضة ذلك الأدب في القرن التاسع عشر.

Scanned with CamScanner

قبيلة عَنَزة
في رحلة السُّوَيْدِي البغدادي

قال السُّوَيْدِي في ص١٩٧ عن منزلة المُزَيْرِيْب والتي هي إحدى منازل الحج الشامي في عام ١١٥٧هـ/ ١٧٤٤م: .. **وتليها مرحلة المَزَارِيْب، بفتح الميم، جمع مِزْرَاب، اسم مكان للزَّرْب، وهو في لغة الشام السَّيْل يقولون: زَرَب الماء إذا سال، وفي القاموس زَرِب كَسَمِع سال؛ سُمِّيَتْ بذلك لأنه قلعتها حول عين مُنخفض واديها تجري فيه السيول، وتلك العين اسمها بَجَّة، بفتح الباء وتشديد الجيم وبعضهم يميل الجيم. وماؤها عذب إلا أن فيه نوع ثخانة، وبعض الناس يقول: مُزَيْرِيْب تصغير مِزْرَاب، ولعل جميع ذلك محرَّف مِيْزَاب أو مَيَازِيب.**

وأقمنا فيها ستة أيام غير يومي الدخول والخروج؛ لأن عادة أمير الحج أن يعطي الموظف لعنزة في هذه المرحلة ويسمونه بالصُّرِّ؛ لما أنه يأتي مصرورًا بصُرَّة في الأصل. ولأن عادة الجَمَّالة يباشرون أكثر حوائجهم منها من شراء جِمَال وعلف وغير ذلك. اهـ.

الموظف لعنزة: أي المخصص لقبيلة عنزة.

الصُّرَّة: المبالغ المخصصة للمَحْمَل المصري والشامي ذهابًا وإيابًا، سميت صُرَّة لأن العملة في ذلك الوقت معدنية، وتحفظ في كيس، ثم

تقسم في أكياس صغيرة، أي صُرَر ومفردها صُرَّة. وتوزع على من خصصت لهم، من شيوخ ووجهاء القبائل، وأمراء المدن والقرى التي يمر بها المَحْمَل؛ وذلك مقابل حمايته في رحلته السنوية المعتادة إلى الحج، وغيرها من الخدمات.

عين البَجَّة وبحيرة المُزَيْرِيْب: من موارد عنزة المائية، خاصة الرُّوَلَة ووُلْد علي. وتقع بلدة وبحيرة المُزَيْرِيْب[١] في منطقة حوران جنوب سوريا الآن.

والمقصود بقبيلة عنزة هنا عندما قال السويدي: **لأن عادة أمير الحج أن يعطي الموظف لعنزة**. المقصود هم قبيلة وُلْد علي جماعة ابن سْمَيْر، وأعتقد - أيضًا - الحْسَنَة (الاحْسَنَة) جماعة ابن مِلْحِم. حيث إن الرُّوَلَة كانت في هذا التاريخ ١١٥٧هـ/ ١٧٤٤م في نَجْد والجوف. وأول من سار بهم من نَجْد والجوف إلى بلاد الشام هو الشيخ عبدالله بن مُنَيْف الشَّعْلان المتوفي عام ١١٩٩هـ/ ١٧٨٥م رحمه الله، حصل ذلك في الربع الأخير من القرن (١٢) الهجري[٢].

وليس لقبيلة الرُّوَلَة صُرَّة حسب علمي، حيث إن ديار وآبار الرُّوَلَة ليست واقعة على طريق الحج الشامي والله أعلم.

---

(١) المُزَيْرِيْب: مدينة صغيرة في جنوب سوريا، تتبع محافظة دَرْعَا، من أشهر معالمها قلعة وبحيرة المُزَيْرِيْب. وقد زرت المنطقة أكثر من مرة، عام ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، وعام ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، وعام ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

(٢) انظر: البدو، أوبنهايم، ١/١٨٨. قبيلة الرُّوَلَة في التاريخ، فائز الرويلي.

Scanned with CamScanner

رحلة فتح الله الصَّايغ الحلبي
١٢٢٥-١٢٢٩هـ
١٨١٠-١٨١٤م



تحقيق: الدكتور يوسف شُلْحُد.

الناشر: دار طلاس، ط٢، دمشق، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

عدد الصفحات: ٣٤٧ صفحة.

الرحَّالة والرحلة[١]:

فتح الله الصَّايغ الحلبي، شاب سوري، يعتنق الديانة النصرانية، ولد بحلب على ما يظهر في عام ١٢٠٤هـ/ ١٧٩٠م، وبدأت رحلته من شهر شباط ١٢٢٥هـ/ ١٨١٠م إلى صيف ١٢٢٩هـ/ ١٨١٤م، تجوَّل خلالها في بوادي الشام والعراق والعجم وتجاوزها، على ما يذكر، إلى حدود إيران الشرقية حيث قابل الأمير سعد البخاري رئيس قبائل عرب الهند، ثم قطع الحَمَاد وزار الدِّرْعِيَّة، عاصمة الدولة السعودية الأولى في ذلك الوقت.

تحدث الصَّايغ في رحلته هذه عن العادات والأعراف البدوية، وعن القبائل التي اتصل بها، وذكر أسماء شيوخها وعدد مقاتليها وتكلَّم عن الدولة السعودية الأولى وحروبهم وغزواتهم على عرب الشام ووقائعهم

(١) انظر: مقدمة المحقق فهي أشمل.

Scanned with CamScanner

مع الأمير الدَّرَيْعِي بن مَشْهُور الشّعْلان، أمير الرُّوَلَة، ووصف عدداً كبيراً من المدن والقرى التي مَرَّ بها.

وقصة هذه الرحلة باختصار هي أن نابليون بونابرت كانت أفكاره توسعية، وكان يخوض صراعاً تنافسياً كبيراً مع بريطانيا في ذلك الوقت؛ لذلك أراد أن يوجد له حلفاء في بلاد الشام، ليشق طريقه من خلاله إلى الهند، حتى يأخذها من بريطانيا، فأرسل تيودور لاسكاريس في هذه المهمة، الذي نزل في حلب، وبحث فيها عَمَّن يعلمه اللغة العربية، فوجد الشاب فتح الله الصَّايغ الحلبي، الذي خسر في تجارته في جزيرة قبرص، فعرض عليه لاسكاريس ذلك، فقبل الصَّايغ هذا العرض.

وبعد مضي ستة أشهر تعلَّم فيها لاسكاريس شيئاً من العربية قراءة وكتابة، عرض لاسكاريس على الصَّايغ أن يقوما برحلة في البادية الشامية بهدف التجارة، فوافق الصَّايغ، وبدأ في الاستعداد لذلك. طبعاً إلى هذه اللحظة لا يعرف الصَّايغ الهدف من وراء هذه التجارة، وأن الهدف سياسي بحت، الذي اكتشفه فيما بعد.

كانت قبيلة عنزة هي أقوى قبيلة في البلاد الشامية، هذا مع انقسامها على نفسها إلى أكثر من قبيلة تتقاسم المراعي والموارد المائية هناك. لذلك نزل لاسكاريس - أو كما يسمي نفسه: الشيخ إبراهيم - على الشيخ مُهَنَّا بن فَاضِل المِلْحِم شيخ قبيلة الحْسَنَة (الاحْسَنَة) من عنزة، لكنه وجده يرتبط مع الدولة العثمانية بالعهود والمواثيق، زد على ذلك قلة عددهم مقارنة بالمهمة التي جاء من أجلها. فتحوَّل عنهم إلى قبيلة وُلْد علي من عنزة، فوجد شيخها ابن سْمَيْر - أيضاً - يرتبط مع الدولة العثمانية بالعهود والمواثيق، وله صُرٌّ يستلمه في كل سنة مقابل حمايته ونقله للمحمل الشامي في رحلة الحج السنوية المعتادة، وهم - أيضاً - قليل مثلهم مثل الحْسَنَة (الاحْسَنَة). لكنه في أثناء وجوده عند وُلْد علي

Scanned with CamScanner

سمعهم يتحدثون عن قبيلة كبيرة وقوية وشيخها مستقل لا يتبع أحداً، ألا وهي قبيلة الرُّوَلَة وأميرها الشهير الدَّرَيْعِي الشّعْلان. فعزم على المسير إليهم، لكنهم بعيد، إذ كانوا في وقتها في الجزيرة الفُراتية، حول مدينة دير الزور، فأرسل فتح الله الصَّايغ - أو كما يسمي نفسه: عبدالله الخطيب - إليهم. فوجد قبيلة الرُّوَلَة وأميرها الدَّرَيْعِي كما وصفوا له، بل أكثر من ذلك.

كان الأمير الدَّرَيْعِي في وقتها على خلاف مع الدولة العثمانية، أسفر هذا الخلاف عن معركتين مع جيش الباشا العراقي، خرج منهما منتصراً في عام ١٢٢٤هـ/ ١٨٠٩م. وكان - أيضاً - على خلاف مع ابن مِلْحِم وابن سْمَيْر أقوى المشايخ في البادية الشامية، نظراً لأنهما قد سبقا الرُّوَلَة في الهجرة والنزول في أفضل الأماكن في بلاد الشام، وقدوم الرُّوَلَة من نَجْد والجوف بهذا العدد الكبير أحيا روح الصراع والتنافس بين أبناء العمومة. مما جعل لاسكاريس يستغل كل هذه الخلافات في الاتفاق الذي وقعه مع الأمير الدَّرَيْعِي، وجعل القبائل توقع على وثيقة الاتحاد في عام ١٢٢٦هـ/ ١٨١١م، الذي كان موجهاً بالدرجة الأولى ضد الدولة العثمانية.

وبعد سقوط نابليون، ذهب لاسكاريس إلى القاهرة، التي كانت في وقتها تخوض حرباً ضروساً ضد الدولة السعودية الأولى بإيعاز من الدولة العثمانية، وفي القاهرة وافته المنية، والقنصلية البريطانية بالقاهرة على علم به وبتجولاته في بادية شمال الجزيرة العربية والشام، فوضعت القنصلية البريطانية يدها على أوراقه ويومياته، والتي لا يعرف مصيرها إلى الآن، مما حدا بصاحبه أن يذهب إلى القاهرة عندما علم بوفاة لاسكاريس، وقابل القنصل البريطاني وطلب منه هذه المتعلقات، فرفض القنصل ذلك، وطرده، فقام الصَّايغ بكتابة الرحلة من تذكّراته، وبعض

Scanned with CamScanner

تفصيلاتها من خياله الواسع، حاله كحال الكثير من الرحَّالة، الذين يحاولون أن يضفوا على رحلاتهم شيئاً من الحبكة الدرامية، البطل فيها - غالباً - هو وحده فقط.

وقام الصَّايغ ببيعها على الشاعر لامارتين عام ١٢٤٨هـ/ ١٨٣٢م، وهي الآن النسخة المخطوطة الوحيدة التي في العالم، وتوجد في المكتبة الوطنية بباريس، تحت رقم ٢٢٩٨.

الحقيقة هذه الرحلة قد حدثت فعلاً ومن قرأها يعرف ذلك، وخيال الصَّايغ الواسع يُستبعد كأي خبر غير صحيح، والتاريخ عموماً يحتاج إلى تمحيص، حتى السيرة النبوية التي خدمها العلماء في الماضي والحاضر وجدنا فيها ما ليس منها، وقد ألَّفَ العلماء في ذلك: صحيح السيرة النبوية. فما ظننا بغيرها من أخبار ومؤلفات تاريخية.

قبيلة عَنَزَة
في رحلة فتح الله الصَّايغ



روى فتح الله الصَّايغ في ص٧٥ في رحلته عام ١٢٢٥هـ/ ١٨١٠م عن رجل من أبناء البادية يُدَعَى عبدالله الشاعر، من دير الشُّعَّار، وهي قرية على حافة نهر الفُرات، سأله فتح الله عن الأمير الدَّرَيْعِي بن مَشْهُور الشِّعْلان قال: **قلت له: يا عبدالله إن الناس تلهج بذكر الدَّرَيْعِي كثيراً، فمن هو هذا الرجل من الناس؟ قال: يا سيدي إن الدَّرَيْعِي رجل عظيم بين أبناء عصره، شجاع، عظيم بالحرب شديد بالقتال، جَرّبته المعارك، فارس لا يوصف، له معارك شتّى انتصر بها جميعاً مع العرب على الحضر، حتى أنه لا يحسب حساب الوهابي نفسه[١]. ومن جملة أفعاله أنه كسر أرضي[٢] وزير بغداد الذي هو بقدر سلطان اسلامبول. قلت: وكيف [كان] ذلك؟ قال: اعلم يا سيدي أن الدَّرَيْعِي نهب ذات يوم قفل بغداد، وكان آتياً من دمشق. فاغتاظ الوزير من ذلك ولكنه لم يُرِ على نفسه حتى يتم خيانة العثماني. فأرسل مكتوب أمان وراية مصحوبة**

---

(١) يقصد الإمام سعود بن عبدالعزيز آل سعود رحمه الله. ومصطلح الوهابي والوهابية كانوا يطلقونه خصوم الدعوة الإصلاحية السلفية عليها لتنفير الناس منها.

(٢) أرضي: جيش.

Scanned with CamScanner

بأقسام عظيمة إلى الدَّرَيْعِي أن يقوم وينزل إلى بغداد لأجل غرض ضروري وفيه خير له. فمن طبع العُرْبَان عدم الخيانة وقلبهم سليم، فصدَّق [كلام الوزير] ونزل إلى بغداد بعشرة خيَّالة فقط. فحين دخل على الوزير أمر بحسبه وتقييده بالجنزير هو والرجال الذين معه. وثاني يوم طلب منه ألفي جمل، وخمسة آلاف رأس غنم، وخمسين فرساً كُحَيْلَة، وعشرين هجيناً أو يقتله. فقال له الدَّرَيْعِي: على الرأس والعين، أدفع جميع المطلوب، ولكن إذا أَمَرْت، فإن ابني يكون رهناً مكاني، وأنا أخرج لأدبر المطلوب. فقبل الوزير ذلك وحالاً أرسل الدَّرَيْعِي وأحضر ابنه صحن، وطلع هو من السجن. وفي مدة خمسة أيام ورد جميع ما ذكرناه زائداً غير ناقص. فأطلق الوزير صحناً. فعندما رأى الدَّرَيْعِي ابنه عنده نهب أول قفل أتى من حلب إلى بغداد، وابتدأ يضرب وينهب ضِيَع وقرى بغداد، وزاد على ذلك حتى قطع السابلة على بغداد فتضايق الوزير من ذلك وابتدأ يعد مهمات توجيه الأرضي حتى يضرب الدَّرَيْعِي. فجمع العساكر والخيم والمدافع وكامل المهمات الواجبة، وخرج من بغداد بأرضي [يضم] ثلاثين ألف مقاتل، بكل نظام وتدبير، وطقومه مثل أرضي همايون [جيش السلطان]. فحين بلغ ذلك إلى الدَّرَيْعِي تأخر عن بغداد نحو يومين وجمع عربانه وغير عشائر يقود عليهم فوصل الأرضي ونصب [خيامه] أمام أرضي [جيش] الدَّرَيْعِي. وثاني يوم جرت حرب عظيمة وقتل جملة فرسان من الفريقين، وثاني يوم كذلك وثالث يوم أيضاً، فلم يكسب أحد بل كانا متساويين بالقوة. ورابع يوم انسحب الدَّرَيْعِي ليلاً مع كامل العُرْبَان والبيوت إلى قرب بغداد ليقطع الجَلْبَ عن الأرضي، فظنَّ الوزير أن الدَّرَيْعِي ولَّى هارباً فسُرَّ وقال لقد ذهب وكفانا خيره وشره، لأن الوزير كان خائفاً من الكسرة. وأما الدَّرَيْعِي فإنه ركب تلك الليلة ذاتها، واستصحب معه خمسة آلاف خيَّال من المجربين

Scanned with CamScanner

بالحرب والقتال، ومضى بهم ليلاً وصَبَّح أرضي الوزير، قبل بزوغ الفجر، فقسَّم خيله خمسة طوابير، ودار بهم على أطراف الأرضي، وعمل إشارة، وهجم وهجمت الطوابير الخمسة بلحظة واحدة كأنهم الأسد الخاطف ودخلوا أرضي بغداد وابتدأ ضرب السيف والقتل. وكان عساكر العثماني أكثرهم نائمين ومعلقين أسلحتهم، فقاموا من نومهم مثل المجانين، وصاروا يقتلون بعضهم بعضاً، فانكسر الأرضي وصاح فيه غراب البين، فنظر الوزير إلى ذلك واضطرب وخاف جداً، فما وعى الناس إلا وقد ركب بطاق المسد، من غير بابوج، وانهزم ودخل بغداد، وكذلك العساكر، منهم من قتل ومنهم من رمى روحه بالدِّجْلَة، وغنمت العُرْبَان جميع ما حوى الأرضي، من خيل وسلاح وعدة خيل وقومانية وذخائر ودراهم وملبوس وخيم ومدافع، وجميع ما كان بالأرضي من كلي وجزئي، شيء كبير القيمة. وقُتل من العسكر عدد وافر. ودخل الوزير بغداد ولحقه من استطاع وأغلق الأبواب، وظن أن العُرْبَان لاحقون به إلى داخل البلد، ودخل عليه الخوف والوهم. ووقعت سطوة الدَّرَيْعِي في قلوب أهالي بغداد، حتى وصلت إلى الأطفال يخوفونهم بالدَّرَيْعِي لكي يناموا. وشاع خبر الدَّرَيْعِي بعد ذلك وكبر صيته عند العرب والحضر حتى وصل إلى الوهابي وإلى كامل البادية والمسكون. والآن لا يوجد بين العُرْبَان من هو أكبر منه. ومن جملة أطباعه أنه يحب الكبر والمال، والمشي في الدروب الصعبة والوصول إلى المعالي. وهذه مزايا الدَّرَيْعِي بن شِعْلان. فحكيت جميع ذلك إلى الشيخ إبراهيم [لاسكاريس] فسُرَّ وقال: هذا هو الرجل الذي يتم مطلوبي. وفرح الشيخ إبراهيم وكان مسروراً مني جداً. اهـ.

تحدث ابن بِشْر في تاريخه عن هذه المعركة، فقال عن حوادث سنة ١٢٢٤هـ/١٨٠٩م: «وفي هذه السنة، تم حشد بادية العراق من شَمَّر

وجميع بوادي العراق، وأمدهم سليمان باشا صاحب العراق بعسكر، فسار الجميع وقصدوا عنزة والظَّفِيْر في ناحية العراق، ورئيس عنزة يومئذ الدَّرَيْعِي بن شِعْلان، ورئيس الظَّفِيْر الشَّايُوْش بن عَفْنَان، فالتقت البوادي وأتباعهم وتنازلوا مدة أيام، وأيقن عنزة والظَّفِيْر بالكسر، ثم ندب بعضهم بعضاً، وكرّوا كرّة رجل واحدة على جموع أهل العراق فهزموهم هزيمة شنيعة وقتلوا من العسكر والبادية خلقاً كثيراً، وأخذوا منهم أموالاً كثيرة من الخيل والإبل وغير ذلك مما لا يحصى وظهروا بها إلى نَجْد»[١].

وفي ص٨٠ ذكر فتح الله الصَّايغ قصة عن الشيخ مُهَنَّا بن فَاضِل المِلْحِم مع وزير الختم يوسف باشا، أدرج فيها فتح الله رأيه الذي هو مردود عليه، إذ هي تدل على مكانة الشيخ مُهَنَّا ومعرفة الناس له، وتدل - أيضاً - على تواضع الشيخ مُهَنَّا وبساطته. قال فتح الله: **أن وزير الختم، حين رجع من مصر بعد أن غادرها الفرنسيون، مر على دمشق بجميع الجيش الهميوني[٢]، فصار كبار البلدة ووجهاؤها وأعيانها يأتون للسلام عليه. وبطريق الإتفاق كان مُهَنَّا حينئذ بدمشق، فتحسَّنَ عنده أن يذهب ويسلم على الوزير، فدخل عليه وهو بطاق القميص الوسخ والمشلح الأسود وكوفية على رأسه وجزمة قديمة في رجله. فدخل على الوزير وسلم عليه على عادة البادية وقال: السلام عليك يا يوسف، يا وزير السلطان، عساك بخير ولعلك عدل، ثم جلس بجانب الوزير من غير إذن ولا دعوة. فاغتاظ الوزير منه واحمرت عيناه لأن هذا شيء يخالف المراسيم العثمانية، وعلى الخصوص أنه الصدر الأعظم، عائد من مصر منصوراً،**

---

(١) عنوان المجد في تاريخ نجد، ٣٠١/١. وانظر: عشائر الشام، أحمد وصفي، ص٣٧٠.

(٢) الهمايوني: السلطاني أو الملكي.

Scanned with CamScanner

ويرى نفسه أكبر من سلطان اسلامبول، فغضب وأمر القوَّاصَة[١] أن يأخذوا مُهَنَّا ويقتلوه. فقبضوا عليه وطلعوا به إلى خارج الديوان. أما مُهَنَّا، فبسبب طرشته وعدم معرفته باللغة التركية ونظافة قلبه، وبالنظر - أيضاً - إلى عادات العرب أن يطعموا الضيف حال وصوله عندهم خوفاً من أن يكون جائعاً، فإنه ظنَّ أن الوزير أمر له بالغداء. فحين أخذوه إلى وسط السرايا ليقتلوه، ترامى جميع الحاضرين، من الأعيان ومن الصيارفة اليهود الذين شاهدوا ما جرى، على أقدام الوزير وقالوا: يا سيدنا احذر عاقبة عملك، فهذا يقال له: مُهَنَّا الفاضل أمير عَنَزَة، هذا الذي يغفر[٢] الحج ويرد عنه غوايل العرب. ومن دون إذنه لا يمشي الحجاج. وفضلاً عن ذلك إن قتلته لا تستطيع بعدئذ أن تخرج من دمشق بسبب شر العُرْبَان. فبردت همة الوزير وأمر حالاً بِرَدِّه، فعادوا به أمام الوزير، فأجلسه إلى جانبه وأمر له بالقهوة فقال مُهَنَّا بباله: صحيح أن العثماني كلب بخيل!! كأنه ندم على الغداء فاستعاض عنه بفنجان قهوة!! لأن مُهَنَّا، على الرغم من كل هذه الضجة لم يفهم جلية الأمر. وبعد القهوة أمر الوزير له ببدلة وحوائج من ملبوسة، فأحضروا له قنبازاً مقصباً عظيماً وشال كشمير وفروة سمّور، فألبسوه إياها. وأمر الوزير بألف غرش فأحضروها حالاً. وشرب قهوة مرة ثانية. وبعد ذلك صاح مُهَنَّا على العبيد الذين كانوا معه، وكانوا ثلاثة، فحضروا أمام الوزير، فَشَلَحَ القنباز وأعطاه لواحد منهم، والشال للثاني والفروة للثالث. فتعجب الوزير منه وقال للترجمان: قُل لمُهَنَّا كأنه ما قبل هديتي؟ قال مُهَنَّا: يا ترجمان، قل لوزير السلطان أننا نحن العرب لا تغوينا الملابس الجميلة ولا نتكبر بالملبوس، أنا ابن مِلْحِم وأبي الأمير فَاضِل، وإني معروف عند

---

(١) يريد القوَّاسة، والمفرد قوَّاس وهو الحاجب أو البواب، بالمصطلح الحلبي [المحقق].

(٢) يغفر: يخفر أو يحفظ [المحقق].

عشاير العُرْبَان سواء كنت لابساً هدوماً (يعني ثيابه) زَيْنَات أو شَيْنَات (جميلة أو زريَّة)، مفهوم وكبير عليهم. فتعجب الوزير من كلامه وسُرَّ منه بالرغم عنه. اهـ.

غادر فتح الله الصايغ الحسنة (الاحْسَنَة) من عنزة، وذهب فيما بعد إلى وُلْد علي من عنزة والذين منازلهم جنوب دمشق في حوران. قال فتح الله الصايغ في ص٨٧ عن ذلك: **فبعد قليل من الزمن إذ حضر هلال ومعه جمَّالان وإثنان من البدو غيره، حتى يحملونا عندهم. فلزم أن أجد حالاً مكاناً للجِمَال وأدخلت العرب الدير. فترحبنا بهم وعملنا إكراماً زائداً وأخبرونا أن أهلهم، من قبيلة وُلْد علي، نازلون على ماء المُزَيْرِيْب وأنهم بعيدون عن دمشق نحو ثلاثة أيام. فبعد يومين دبرنا شغلنا وطلعنا من دمشق في ١٥ آذار ١٨١١ [٢٠ صفر ١٢٢٦هـ]، وكان صار لنا سنة وثمانية وعشرون يوماً منذ مغادرتنا حلب. فذهبنا مع العرب ونمنا ليلتين بالبرية من غير مأوى، وهو طريق معروف من دمشق إلى المُزَيْرِيْب. وفي اليوم الثالث وصلنا عند العرب، فوجدنا نزلاً عظيماً نحو ألف بيت بمواشي وخيل عظيمة، فنزلنا في بيت دُوْخِي بن سْمَيْر. فعمل لنا إكراماً زائداً وذبح لنا ذبيحة، حيث كان صار بيننا معرفة، من يوم الذي جاء إلى بيت مُهَنَّا، لأجل مادة ناصر. وهو رجل عظيم عاقل مدبر يومى إليه، [أي الشيخ دُوْخِي]، محبوب من عُرْبَان قبيلته التي تعد نحو خمسة آلاف بيت، وعليهم رؤساء من أقربائهم، وكذلك القبائل الثلاث الأخرى وهي بني صَخْر والسِّرْحان والسَّرْدِيَّة، فهم أحبابه ومعه في كل أمر يريده، وطمعهم قليل ليس مثل قبيلة مُهَنَّا، رزقهم كثير وخيلهم عظام مشهورة بالصيت.** اهـ.

ومن عند وُلْد علي ذهبوا إلى قبيلة السِّرْحَان، ومنهم إلى قبيلة السَّرْدِيَّة، فقبيلة بني صَخْر، ثم أخذوا دليلاً من عرب بني سعيد، وفي أثناء الطريق علموا بأن الأمير الدَّرْيْعِي قد (رد النَّقَا) أي أعلن الحرب

Scanned with CamScanner

على هذه العشيرة، فخافوا وغيروا طريقهم، ونزل الصَّايغ ولاسكاريس في القريتين، وبعد مشورة وأخذ ورد كشف لاسكاريس عن بعض أهدافه السياسية للصَّايغ. قال الصَّايغ في ص٩٥ عن لاسكاريس قال: **اعلم يا ولدي أن سفري هذا مقسوم إلى عشر نقاط مرتبة من حين خروجي من باريس:**

- أولاً : **الوصول من باريس إلى حلب بالسلامة.**
- ثانياً : **الحصول على إنسان موافق لأوامري ومطيع لأقوالي مثلك.**
- ثالثاً : **تعلمي اللغة العربية وتقويتي بها.**
- رابعاً : **الوصول إلى تدمر.**
- خامساً: **الدخول عند العرب بطريقة مناسبة تغطي أهدافي.**
- سادساً: **كشف أحوال العُرْبَان وأمورهم معرفة كبارهم واكتساب صحبتهم.**
- سابعاً : **رمي الاتحاد والوفق والمحبة بينهم حتى يكونوا جميعهم برأي وعمل وقول ويد واحدة.**
- ثامناً : **إبعادهم عن محبة العثماني وعشرته.**
- تاسعاً : **معرفة كافة الصحاري ومياهها ومنازلها والمسالك الملائمة إلى حدود الهند.**
- عاشراً : **الرجوع بالسلامة إلى بلاد سورية.**

فقلتُ: وبعده يا سيدي، ماذا يكون الهدف من ذلك؟ فقال: أنسيت الشروط؟ لا تسألني عن شيء بل أنا من نفسي رويداً رويداً أعرفك إذا اقتضى الأمر، فإلى الآن يكفي الذي قلته، فَدَبِّر حالك واعلم أن لا بد من الوصول عند الدَّرَيْعِي ولو متنا. اهـ.

تقرر أن يذهب فتح الله الصَّايغ وحده للأمير الدَّرَيْعِي وهكذا صار.

قال فتح الله الصَّايغ في ص١٠٢ وذلك في أثناء زيارته للأمير الدَّرَيْعِي بن مَشْهُور الشَّعْلان: **بعد مسير ثلاثة أيام، عند المساء، كشفنا على نزل الدَّرَيْعِي، وكان نزلاً عظيماً نحو ألفي بيت شَعْر، الطنب بالطنب، ورأينا من بعيد من المواشي والجِمَال ما يغطي عين الشمس، ولم نرَ مثل ذلك عند غيره من العُرْبَان.**

فتقدمت إلى بيت الدَّرَيْعِي، وكان الوقت بعد غياب الشمس، فدخلت وسلّمت عليه، فرحب بنا، وحالاً أمر بالعشاء. وبعد العشاء سألني من أين وإلى أين يا شاب؟ قلت: يا سيدي من حلب إلى عند جنابك بغرض..[1] فقال: حَلَّتْ البركة بمجيئك، غرضك مقضي بعون الله، ولكن عادة الضيف عندنا يقعد ثلاثة أيام وبعد ذلك يتكلم على غرضه، قلت: السمع والطاعة. ثم نمنا وثاني يوم كتبت حالاً إلى الشيخ إبراهيم وإلى موسى الوردي، وأعطيت المكاتيب إلى مصطفى وزودته بالدعاء وتوجه إلى القريتين.

وجلسنا مع الدَّرَيْعِي نتحدث، وهو رجل ذو نخوة زائدة، عمره نحو خمسين سنة، لحيته كوساة بيضاء، جسيم، أسمر اللون، جريء. وجميع ما سمعنا عنه موجود به حقيقة. وله ولدان، واحد اسمه صَحَن وهو الأكبر، والثاني سُعْدُوْن. وهما متزوجان ومقيمان عنده بالبيت. وبيته كبير وهو أكبر مرتين من بيت مُهَنَّا. وعربه أغنى نوعاً ما من غير عشائر، وعندهم الخيل العظام المشهورة ويقال لقبيلته: الرُّوَلَة، وهي تحوي على خمسة آلاف بيت. هذه هي عشيرته، إلا أنه كثيراً من العشائر تنقاد له، بعضها فَرْضَاً، وبعضها خوفاً وبعضها محبة. فبان لي أنه رجل على قدر حاله في كل أمر، وأن جميع ما قيل عنه صحيح. ومن حسن التوفيق أنه لم يكن عنده كاتب، فصار كلما

---

(١) لم يتركه الأمير الدَّرَيْعِي يكمل كلامه.

Scanned with CamScanner

احتاج إلى ورقة أو مكتوب يسخرني به، إلى أن مضت الأيام الثلاثة، وهي مدة إكرام الضيف، فما قال لي شيئاً لأن عندهم من العيب أن يسألوا أحداً ما هو غرضك، لأن معنى ذلك أنهم يرغبون في أن يذهب من عندهم. ولكن العادة أن المسافر يبادر بالحديث. فبعد ثلاثة أيام قلت: يا أمير، انتهت مدة إكرام الضيف وحَلَّ وقت الذهاب. قال: يصعب علي فراقك، فقلت: وأنا كذلك، واعلم أن سبب مجيئي عندك هو التوجه إلى بغداد بمسألة ضرورية، ولكن محبتك أنستني أشغالي وأود أن أكون في عشيرتك دائماً. فسُرَّ من هذا الكلام وقال: أنت مثل ولدي، والذي تشور علي به فإني سأعمل به، لأنه كان رأى مني في مدة هذه الأيام الثلاثة محبة وخدمة وآراء جيدة، لأني عملت كل جهدي خلال هذه الأيام كي أرضيه وأدخل في عقله وقد حصل مطلوبي. اهـ.

وفي نفس السياق قال فتح الله للأمير الدَّرَيْعِي الشَّعْلان: فابتدأت أقول له: يا سيدي بما أنك جئت إلى هذه الديرة وعمرك ما زرتها، فدعنا نقطع للشامية ونقضي الغيض (أعني الصيف) في هذه الديرة، ومتى حَلَّ الخريف نُشَرِّق على حسب عوايد عشائر عنزة. وبهذه الطريقة تكون أولاً: قهرت عدوك وضايقته في الأرض، ثانياً: يصيرلك هدايا من القرى ومن عشاير العرب، ثالثاً: يصير لك اسم بهذه الديرة، رابعاً: تكون شاهدت براري بلاد سورية، وأخيراً: ترتد إلى ديرتك كما كنت. فقال: هذا نِعْم الشور.

وثاني يوم نبَّه على الرحيل، ورحلت العُرْبَان بعد طلوع الشمس كأنهم الغمام الأسود. ومشى ابنه صَحَن ومعه خمسون خَيَّالاً يتقدمونهم، وبعده هو طابور خيل من نحو خمسمائة خَيَّال، وأركبني فرساً من خيله كُحَيْلَة عظيمة، وجرت الظُعُن (أعني البيوت) خلفنا مثل الجراد، وأكثر النساء في الهوادج المُجَوَّخَة، وعلى الخصوص بيت امرأته وكناته في الهوادج، والعَبْدَات

حولهن، وكان على ذلول أحد العبيد خرج ملآن خبزاً وتمراً يُفَرِّق منه على الجائعين من الناس، وكلما مشينا ثلاث ساعات يأمرنا بالنزول حيث يوجد منتزه، فيعملون القهوة ونستريح قليلاً ثم نركب، إلى أن وصلنا إلى المحل المقصود وهو على حافة الفُرات، منزلة يقال لها: الحلاجة. فنصبوا البيوت بكل هدوء وركون، وبلحظة صارت بلدة واشتعلت النيران فبتنا تلك الليلة، وثاني يوم رحلنا ونزلنا بقرب الزور، وثالث يوم رحلنا وقبل الظهر وصلنا إلى الزور. فركب فحل الخليل، وبصحبته نحو ألف خيَّال، ولاقى الدَّرَيْعِي، وصار لعب خيل وانشراح، ودعى الدَّرَيْعِي عنده، فرحنا تلك الليلة وتعشينا عند فحل. فكان الدَّرَيْعِي وأولاده وأخوه فجر، وهو أكبر منه بالعمر لا بالمعرفة والقدر، وجميع أقربائه، ومعنا نحو مئتي خَيَّال، فتعشينا عنده وبعدها ركبنا ورحنا إلى البيوت. اهـ.

Scanned with CamScanner

رحلات في سُوريا والبلاد المُقَدَّسَة

١٢٢٥-١٢٣١هـ

١٨١٠-١٨١٦م



ترجمة: شاهر حسن عبيد.

الناشر: دار الطليعة الجديدة/ دار العوام، دمشق، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٧م.

عدد الصفحات: ٤٠٠ صفحة.

نبذة عن الرحَّالة[١]:

هو جوهان لودفيج بوركهارت من أبرز الرحَّالة الأوربيين إلى البلاد العربية وأكثرهم دقة وإنصافاً. وقد ولد في بلدة لوزان السويسرية عام ١١٩٨هـ/ ١٧٨٤م. وكان أبوه عقيداً في الجيش، فاضطر إلى مغادرة بلاده حينما احتلتها القوات الفرنسية، واستقر في ألمانيا. وقد درس جوهان في لايبزك ثم في جامعة جوتنجن. وتكونت لديه رغبة عظيمة في أن يصبح رائداً من الرواد المشهورين. فانتقل إلى بريطانيا، واتصل بالسير جوزيف بانكز، عضو الجمعية الأفريقية التي كانت قد أرسلت عدة

---

(١) من مقدمة الدكتور عبدالله بن عثيمين على كتاب: مواد لتاريخ الوهابيين. نقلاً عن كتاب: Travelers in Arabia بتصرف.

Scanned with CamScanner

بعثات إلى منطقة النيجر انتهت كلها بهلاك أفرادها. وعرض بوركهارت على الجمعية المذكورة خدماته للقيام برحلة إلى تمبكتو مع قافلة الحج العائدة إلى هذه البلدة من مكة، فرحبت الجمعية بطلبه. وكان مما قام به في بريطانيا أن عكف على دراسة اللغة العربية والدين الإسلامي والطب والكيمياء، كما دَرَّبَ نفسه على الحياة الشاقة التي يمكن أن يتعرض لها كل رائد.

وفي شهر محرم ١٢٢٤هـ الموافق لشهر مارس ١٨٠٩م غادر بوركهارت بريطانيا متوجهاً إلى جزيرة مالطا حيث ادَّعى أنه طبيب هندي وتسمى بإبراهيم. ومن هناك اتجه إلى سوريا، واستقر في حلب عامين واصل خلالهما دراسته للغة العربية حتى أتقنها، كما واصل دراسته للدين الإسلامي حتى أصبح ذا معرفة جيدة به. على أنه لم يقتصر خلال هذين العامين على دراسة اللغة والدين، بل تجوّل بين قبائل المنطقة الرُّحَّل؛ خاصة قبيلة عنزة المشهورة. وكتب عن تلك القبائل، فيما بعد، كل ما لحظه في تجواله. وكان مما حققه من نجاح في بلاد الشام أن وصل إلى البتراء التي كان الأوربيون توّاقين إلى معرفتها والوصول إليها.

وفي شهر محرم ١٢٢٧هـ الموافق لشهر فبراير ١٨١٢م شعر بوركهارت أنه أصبح مهيأ ليقوم برحلته إلى جهات النيجر. فسافر من سوريا على مهل حتى وصل القاهرة في شهر سبتمبر من ذلك العام. لكنه وجد أنه من غير المتوقع أن تنطلق قافلة من هناك إلى غرب أفريقيا إلا في شهر يونيو من العام الذي يليه. فقرر أن يسافر بمحاذاة نهر النيل لعله يجد طريقاً من بلاد النوبة إلى هدفه، فإن لم يجد عاد إلى القاهرة في الوقت المناسب لمرافقة القافلة.

وتوغل بوركهارت في جنوبي مصر حتى وجد تمثال أبي سنبل.

Scanned with CamScanner

وحين أدرك في أَسْيُوْط أنه غير قادر على الذهاب من هناك إلى غربي أفريقيا رأى أن مما قد يُسهِّل مهمته في تحقيق هدفه الحصول على لقب (الحاج). ولذلك رافق قافلة الحجاج النوبيين والسودانيين إلى مكَّة، واحتياطاً لأية طوارئ أو مفاجآت حمل معه رسائل من محمد علي، حاكم مصر، تظهره على أنه الشيخ إبراهيم بن عبدالله الشامي.

وفي شهر رجب ١٢٢٩هـ الموافق لشهر يوليو ١٨١٤م أبحر بوركهارت مع مملوكه من ميناء سواكن في السودان، فوصل إلى جُدَّة بعد أسبوعين. وما أن وصل إلى هذه البلدة حتى حَلَّ به المرض، ثم اضطر إلى بيع مملوكه لنفاد ما كان معه من مال. على أنه اتصل بمحمد علي الذي كان حينذاك قد وصل إلى الحجاز لمواصلة الحرب ضد الدولة السعودية الأولى، فأمده ببعض المال، وطلب منه أن يأتي لمقابلته في الطائف. ويبدو أن ذلك الحاكم كان يخامره بعض الشك في أن بوركهارت كان جاسوساً لبريطانيا مما جعله يراقبه بحذر، لكن وساطة طبيبه الأرمني بوساري أدت إلى سماحه له بمغادرة جُدَّة.

وفي يومِ الخميس ١٢٢٩/٩/٢٣هـ الموافق ١٨١٤/٩/٨م دخل بوركهارت مكَّة، ثم غادرها أياماً قليلة إلى جُدَّة حيث اشترى مملوكاً وأدوات كان في حاجة إليها، وعاد إلى مكَّة، فأدّى مناسك الحج واستقر فيها قرابة أربعة أشهر. وسافر من مكَّة إلى المدينة النبويَّة حيث بقي فيها ثلاثة شهور عانى في كثير من أيامها مرضاً شديداً. ثم سافر منها إلى يَنْبُع التي كان قد حلَّ بها وباء مات بسببه كثير من سكانها. وبعد ثلاثة أسابيع من وصوله إليها استقل سفينة متجهة إلى مصر. فوصل القاهرة في يوم السبت ١٢٣٠/٧/١٧هـ الموافق ١٨١٥/٦/٢٤م.

ومع أن الأمراض التي تعرَّض لها بوركهارت خلال رحلته إلى الحجاز قد أضرَّت بصحته كثيراً إلا أنه كان توّاقاً إلى الحصول على قافلة

Scanned with CamScanner

يسافر معها إلى تمبكتو؛ لكنه لم يُدرك ما كان توّاقاً إليه؛ ولأن وباء الطاعون قد انتشر في القاهرة فقد غادرها إلى صحراء سيناء حيث بقي شهرين بين قبائلها الرُّحَّل، ثم عاد إلى العاصمة المصرية ليكمل تدوين ملوحظاته في رحلاته.

وفي يوم الأربعاء ٥/ ١٢/ ١٢٣٢هـ الموافق ١٥/ ١٠/ ١٨١٧م وافاه الأجل في القاهرة، ودفن في مقابر المسلمين بناء على وصيته، وكُتب على قبره: هذا قبر المرحوم إلى رحمة الله تعالى الشيخ الحاج إبراهيم المهدي بن عبدالله بوركهارت اللوزاني. وهذا ما يؤكد لنا بقاءه على الإسلام رحمه الله.

وقد ترك بوركهارت عدة كتب عما شاهده في رحلاته وهي:

١ - رحلات في سوريا والبلاد المقدسة. وهو الذي بين أيدينا.

٢ - ملاحظات حول البدو الوهابيين.

٣ - رحلات في شبه جزيرة العرب.

٤ - رحلات النوبة.

ملخص رحلات بوركهارت:

رحلات بوركهارت كثيرة؛ لكن الذي يُهمنا هو ما يقع تحت هذا العنوان: «**رحلات في سوريا والبلاد المقدسة**». وسوف أستعرضها على سبيل الإجمال؛ حتى يعرف القارئ الكريم مقدار الوقت والجهد الذي بذله بوركهارت حتى خرجت لنا هذه الكتب، وصارت مصادر لا يستغني عنها الباحث في أحوال ذلك الزمان وذلك المكان.

في عام ١٢٢٥هـ/ ١٨١٠م قام بوركهارت برحلات طويلة في بلاد الشام، زار فيها حوران وتَدْمُر وبَعْلَبَك ودمشق وجبال لبنان الغربية

Scanned with CamScanner

والشرقية، ومر على منطقة بَانِيَاس والحُوْلَة في شمال الجولان ولم يكمل طريقه إلى طبريَّة وساحلها الشرقي بسبب ورم أصاب رجله، فقفل عائداً إلى دمشق ومنها إلى حَلَب.

وفي شهر صفر ١٢٢٧هـ الموافق لشهر فبراير ١٨١٢م غادر حلب متوجهاً إلى دمشق، وفي طريقه زار مدينة إدْلِب والجبال الشرقية ونهر العاصي وحماة وطرابلس. وكعادته سجّل كل صغيرة وكبيرة.

وفي شهر ربيع الثاني ١٢٢٧هـ الموافق لشهر أبريل ١٨١٢م تجوّل مرة أخرى في حوران وما حوله، فزار بُصْرَى والمُزَيْرِيْب والرَّمْثَا وعَجْلُوْن وجَرَش وأم قيس وعَمَّان.

وفي شهر جمادى الثانية ١٢٢٧هـ الموافق لشهر يونيو ١٨١٢م غادر دمشق متوجهاً إلى مصر، وفي طريقه مَرَّ بالقُنَيْطِرَة وبحيرة طبريَّة، وتجوّل في شمال فلسطين، واكتشف مدينة البَتْرَاء، ومنها إلى سيناء فالقاهرة، التي وصلها صباح الجمعة ٢٨/٨/١٢٢٧هـ الموافق ٤/٩/١٨١٢م.

وفي شهر جمادى الأولى ١٢٣١هـ مطلع أبريل ١٨١٦م تقريباً أصيبت مدينة القاهرة بالطاعون للمرة الثانية، وكان بوركهارت خارجها، ففضل عدم دخولها، وعزم على الرحيل إلى سيناء، فرافق قافلة متجهة إلى هناك، ومكث هناك قرابة الشهرين يتجوَّل ويُسجِّل وقائع الرحلة. وعاد إلى القاهرة التي وصلها صباح الأربعاء ١٧/٧/١٢٣١هـ الموافق ١٢/٦/١٨١٦م.

Scanned with CamScanner

قبيلة عنزة
في رحلات بوركهارت



يقول بوركهارت في أثناء تجواله في حوران ص٦٤ : **كان في نيتي السير إلى ملح، لكن مرافقيّ الدُّرُوْز أبدوا خوفاً من عرب الشرقية، من قبيلة الجِلاس الذين كانوا ينتشرون في المنطقة.** اهـ.

قبيلة الجِلاس هم الرُّوَلَة الآن. وهذا الخبر يخالف من قال بأن قبيلة الرُّوَلَة من أواخر قبائل عنزة هجرة إلى بلاد الشام. والذي تختلف فيه الرُّوَلَة عن غيرها من قبائل عنزة أنها تذهب وتجيء، بخلاف بعض قبائل عنزة الأخرى التي استقرت في بلاد الشام، مثل الفِدْعَان والسَّبَعَة. وقد ذكر ذلك بعض المؤرخين بأن الرُّوَلَة هي الوحيدة التي لا زالت ترتبط بموطنها الأول خاصة الجوف. لذلك يقال عن الرُّوَلَة بأنهم: (بعيدين الظَّعْنَة وَسِيْعِيْن الطَّعْنَة). كناية عن الشجاعة وعن بعد المسير.

والشيخ عبدالله بن مُنِيْف الشِّعْلان المتوفي عام ١١٩٩هـ/ ١٧٨٥م رحمه الله هو أول شيخ قاد الرُّوَلَة من نجد والجوف إلى بلاد الشام كما مر معنا، حصل ذلك في الربع الأخير من القرن (١٢) الهجري[(١)].

---

(١) انظر: البدو، أوبنهايم، ١/١٨٨. قبيلة الرُّوَلَة في التاريخ، فائز الرويلي.

Scanned with CamScanner

وفي ص٧٤ قال: **اتجهنا من المسمية شمالاً وإلى الشرق في المنطقة الصحراوية باتجاه جبل الكسوة. وبدا لنا أن الطريق في الصيف سالك جيداً إذ هو طريق بدو عنزة الذين يرتحلون إلى حوران ويعودون منها.** اهـ.

هذا موسم حصاد الحبوب وقطف الثمار، والناس تستعد للشتاء.

وفي ص١٢١ قال: **يقترب وادي اللوا أحياناً من اللجاة، يبتعد ميلاً في بعض الأماكن داخل السهول الخصبة. وضفافه مغطاة بأروع أنواع الأعشاب دون أن يستفيد منها أحد. فالعرب هناك يخشون من قبيلة عنزة ومن حكومة دمشق، بينما تخشى عنزة من اللصوص عند مشارف اللجاة.** اهـ.

لا تخشى قبيلة عنزة العدو الظاهر، لكنها تخشى هؤلاء اللصوص، والذين يُسمّون في اللهجة الدارجة (حَنْشَل). والحَنْشَل لا يتجاوز عددهم في الغالب الخمسة، ويعتمدون على الخِفَّة والتخفي في الوصول إلى أهدافهم، وعادة هذه الأهداف بعير شارد لم يدخل في القطيع، لذلك هذا المُتَطَرِّف يعتبر صيداً سهلاً بالنسبة لهؤلاء (الحَنْشَل).

وفي ص١٢٣ حضر حفلة لبعض البدو فقال: **وكان ذلك بمناسبة عودة شاب من أبناء القبيلة كان عرب عنزة قد أخذوه أسيراً في غارة ليلية عليهم. وأرانا الأسير مكان وثاقه باعتباره (ربيطاً) أسيراً لدى عرب عنزة الذين أطلقوه مقابل فدية قدرها ثلاثون ناقة دفعها أحد أفراد قبيلته.** اهـ.

قد كذب هذا الأسير!!، فهو حتى يبرر وجوده في الأسر نسج هذه القصة لبوركهارت، وأنه قد أخذ على حين غِرَّة؛ بينما قبيلة عنزة لا تحارب أو تغير على العدو إلا بعد أن تنذره، ووقت الهجوم يكون في الصباح، أو بعد العصر، ويعتبرون الهجوم ليلاً معيبة عليهم، ويسمونه: بَيَات. وهو:

Scanned with CamScanner

الإغارة على الناس ليلاً. وتعتبر خيانة عند قبيلة عنزة لا تفعلها أبداً[١]. وقد مرَّت معنا رحلة فتح الله الصايغ والتي ذكر فيها بعض الصور من ذلك.

وفي نفس الصفحة ١٢٩ قال: **استأذنت من صديقي العزيز شبلي الذي لم يتركني أسافر وحدي بل استأجر رجلاً لمرافقتي غرباً عبر حوران. وذلك الرجل كان من عرب الصعيد بمصر من آل خليفة، وكان يسكن هناك، وبعد أن خدم مع المماليك ورافق أحدهم إلى مكة عاد إلى دمشق وأصبح من خَيَّالة جيش الباشا. وحدث أن قتل أحد رفاقه فاضطر للهرب واللجوء إلى عرب عنزة طلباً للحماية**. اهـ.

يُسمى هذا المصري دخيل. والدخيل: هو من يلجأ إلى إحدى القبائل أو الأمراء هارباً من الثأر أو غيره. وهنا يلزم من دخل عليه الدخيل حمايته وعدم تسليمه، ويُسمى هذا الدخيل: (جُلُوِي). مأخوذ من الجلاء؛ وهو: ترك المكان - غصباً لأي سبب كان - والذهاب إلى مكان آخر[٢]. ولعل شهرة قبيلة عنزة هي التي جعلته يختارها لحمايته، وقد أصاب في اختياره.

وفي ص١٣٢ قال: **مياه البحيرة - أي بحيرة المُزَيْرِيْب - صافية كالزلال وتخلو من أيّة أعشاب نامية فيها، ويبلغ عمق مياهها طول قامة إنسان وأكثر، أراضيها رملية مغطاة بحصى أسود كأرض حوران. يعيش فيها أسماك كثيرة خاصة الكارب البني والمشط. وفي فصل الصيف حين يتم جمع الغلال، يأتي عرب عنزة بكل إبلهم فيعج شاطئها مليئاً بآلاف الجِمال، ويملأ العرب قِرَبَهم من ماء البحيرة لأنهم يفضلونه على أية مياه من مصادر أخرى**. اهـ.

---

(١) انظر: قبيلة الرُّوَلَة في التاريخ، فايز الرويلي.

(٢) المصدر السابق.

Scanned with CamScanner

وتُسمّى هذه البحيرة: البَجَّة، وهي من موارد قبيلة عنزة المائية، وقد مر الحديث عنها في رحلة السُّوَيْدِي البغدادي.

وفي ص١٣٤ قال: **غادرنا المُزَيْرِيْب مساء مضطرين إلى السير على طريق الحج خوفاً من عرب عنزة. اهـ.**

إلى أن قال: **ثم تابعنا السير فوصلنا خلال أقل من ثلاث ساعات إلى الرَّمْثَا، حيث يستريح الحجيج حول بركتي ماء بين جنبات الوادي مسوّرتين بحيطان ثلاثة عالية. ووجدنا هناك قبيلة من عرب عنزة يسقون مواشيهم.** اهـ.

لم يحدد بوركهارت سبب الخوف من قبيلة عنزة؛ بينما يذكر في المقطع الثاني أنه قابل من يخاف منهم ومع ذلك لم يذكر أنهم تعرضوا له بشيء!! والظاهر أن الذين معه كانوا خائفين فانتقلت له العدوى!!

وفي ص١٦٢ قال: **أما الضَّرَائِب التي يدفعها جميع الفلاحين في حوران فيمكن حصرها في الأنواع الأربعة التالية: ضريبة الميري [الحكومة]، ونفقة العسكر خلال زحفهم، وضريبة تدفع للبدو، وضرائب استثنائية. أما بالنسبة لضريبة الميري**(١)**، فهي تفرض على الفَدَّان.** اهـ.

إلى أن قال في ص١٦٤: **أما الضريبة الثالثة المفروضة فهي الأكبر على الفلاحين، وهي الضريبة المدفوعة للبدو من قبائل الفُحَيْلي والسَّرْدِيَّة وبني صَخْر والسِّرْحَان؛ الذين يؤمون حوران، ناهيك عن قبائل أخرى مثل عنزة الذين يأتون في الصيف، ويفرضون ضريبة تسمى (الخُوَّة) من كل قرية بحوران. ومقابل هذه الخُوَّة يمتنع البدو عن التعدي على المزروعات في القرى. وتدفع كل قرية خُوَّة لشيخ القبيلة، وعندئذ تسمى القرية (أخت) من قبل رجال القبائل.** اهـ.

---

(١) الميري: الحكومة أو الحكومي.

Scanned with CamScanner

الخُوَّة: وهي ضريبة نقدية أو عينية يأخذها القوي من بعض المدن والقرى، وبعض القبائل والعشائر، مقابل حمايتهم والذود عنهم.

وتحدّث بوركهارت في نفس السياق أن القبائل التي تأخذ ضريبة (الخُوَّة) تدفع جزءاً منها لباشا الشام ما عدا قبيلة عنزة، حيث قال: **أما الضريبة المفروضة لعرب عنزة فلا تخضع لقانون**. اهـ.

لأن عنزة، وخاصة قبيلة الرُّوَلَة في ذلك الزمان لا تخضع لباشا الشام، فهم غير ملزمين بدفع أية مبالغ مفروضة أو قد تفرض عليهم. أما في نهاية القرن (١٣) وبدايات القرن (١٤) الهجري وقبل سقوط الخلافة الإسلامية العثمانية فقد التزمت بعض قبائل عنزة بتأدية الزكاة وما يطلب منها من ضرائب؛ لأن بعض قبائل عنزة شبه استقرت في المدن والقرى، وأصبحوا يملكون البيوت والمزارع والبساتين، الذي جعل القوانين تسري عليهم قطعاً.

وفي ص١٦٧ قال: **في شهر أيار - مايو تعج مناطق حوران بالعرب المتجولين القادمين من البادية، ويبقون هنا حتى أيلول - تموز. وهؤلاء تحديداً من قبيلة عنزة. كان عرب الشَّرَارَات وفي الماضي يأتون إلى حوران من مكّة، وقبائل شَمَّر من جبل شَمَّر، وقبائل الظَّفِير من مناطق العراق. وعندما يصل عرب عنزة يرحل العرب المقيمون الذين يكونون على عداء معهم إلى تخوم الجبل الغربي في الصفا على الأرجح أو باتجاه المُزَيْرِيْب والصَّنَمَيْن. ويأتي عرب عنزة لسببين: المراعي والماء صيفاً ومن أجل التموين من الحبوب شتاء. فإذا كانوا على علاقة طيبة مع الباشا فإنهم ينزلون بين القُرى مطمئنين، وقرب مصادر المياه، وإذا كانوا في حالة حرب معه يبقون في منطقة بُصْرَى وأم الجِمال حتى الزَّرْقَا. وعموماً يسمح لهم الباشا بالقدوم لشراء المؤن من حوران إلا في سنوات القحط**. اهـ.

Scanned with CamScanner

قبيلة عنزة المذكورة هي قبيلة الرُّوَلَة، فهي التي لها مرباع ومصيف. رحلة في الشتاء إلى نَجْد والجوف ورحلة في الصيف إلى بلاد الشام. والذي يؤيد هذا الرأي هو قول بوركهارت: **وعندما يصل عرب عنزة يرحل العرب المقيمون الذين يكونون على عداء معهم إلى تخوم الجبل الغربي في الصفا على الأرجح أو باتجاه المُزَيْرِيْب والصَّنَمَيْن.** اهـ.

نعم، فقد حدثني كبار السن من قبيلة الرُّوَلَة أنهم عندما يذهبون إلى بلاد الشام فإنَّ قبائل منطقة حوران وبحكم الخصومة التي بينهم تتحصن منهم وخاصة قبائل الجبل، فجبل العرب وحَرَّة اللجاة يوفران لهم الحماية الطبيعية.

وفي ص١٦٨ قال: **وحتى سنوات قليلة مضت كان عرب عَنَزَة يتولون تزويد الحجيج بالإبل، حيث يتفقون مع الباشا على تأجير آلاف الجِمال فيكسبون مالاً كثيراً، ناهيك عما يفرضونه على الحجاج، وما ينهبونه. وهذه المكاسب التي يحصلون عليها أجبرت عنزة على إقامة علاقات طيِّبة مع الباشا في دمشق، على حساب علاقاتهم مع الوهابيين؛ لكنهم بعد انتهاء موسم الحج يعودون إلى حمل السلاح مع أصدقائهم القدامى، وهذا يحدث بلبلة بين أهالي حوران.** اهـ.

الذين ينقلون الحجاج هم وُلْد علي من عنزة، وقد تشارك معهم بعض قبائل عنزة الأخرى؛ لكن هم الأكثرية.

أما قول بوركهارت: **وما ينهبونه.** فهو كلام غير دقيق؛ لأن قبيلة عنزة ضمن قافلة الحج الشامي والتي يصاحبها عدد من العسكر لحمايتها. ومهمة قبيلة عنزة واضحة، وهي نقل الحجاج إلى مكة والمدينة والعودة بهم مرة أخرى إلى الشام ضمن نفس القافلة المحروسة بهؤلاء العسكر. والتصرفات غير المقبولة ليست واردة هنا، لذلك كلام بوركهارت غير صحيح بتاتاً.

Scanned with CamScanner

وقوله: **أصدقائهم القدامى.** هي إشارة إلى أن عنزة من المؤيدين للدعوة الإصلاحية السلفية، دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله؛ لكن تقاطع المصالح مع الباشا يجعلهم يُقدِّمون ويُؤخِّرون، ويَقطعون ويَصِلُون، ولعل هذه هي السياسة المقبولة في ذلك الوقت!! وقد تكون في كل وقت!!

يقول بوركهارت في أثناء رحلته إلى مصر ص١٩٢: **وجدت نفسي في السَّلْط بلا رفيق يصحبني إلى عَمَّان لخطورة الطريق. فعرب بني صَخْر أعداء عرب العَدْوَان وأعداء الحكومة في دمشق وكذلك مع عرب الرُّوَلَة، وهم أحد بطون قبيلة عنزة. وكانت تصلنا يومياً أخبار مناوشات بين هؤلاء الفرقاء وبخاصة عند نهر الزَّرْقَا؛ لأن في عَمَّان نبع كبير يلتقي عنده الفُرَقَاء المتخاصمون. وكان أهل السَّلْط قد تصالحوا مع بني صَخْر لكنهم على خصومة مع العَدْوَان والرُّوَلَة.** اهـ.

وفي ص٢٠٠ قال: **وقام زعيم العَدْوَان حمود الصَّالح بالاتفاق سراً مع عساكر باشا دمشق ومع قبيلة الرُّوَلَة أعداء بني صَخْر، وهاجم الجميع بني صَخْر. ورغم الخطة المحكمة صمد بنو صَخْر أمام هذا التحالف، ولم يفقدوا سوى عدد من الرجال وحوالي ألفي رأس غنم.** اهـ.

يحدثنا بوركهارت عن معركة قد حدثت بين التحالف المذكور وبني صخر، ولم يحدد تاريخها، ولم يحدد - أيضاً - من روى له أخبار هذه الوقعة، وهي ليست بمستغربة على قبيلة بني صَخْر، فهي قبيلة عريقة، معروفة بالشجاعة والاستبسال عند لقاء العدو.

وفي ص٢٠٨ مدح أهالي مدينة الكَرَك كثيراً ووصفهم بالكرم والشجاعة، وذكر أن لهم ثمان (مضافات) أو مجالس عامة يستقبلون فيها الضيوف، إلى أن قال: **ومن المعروف في الكَرَك أنه كلما كان**

Scanned with CamScanner

الرجل أكثر كرماً مع الضيوف زادت شهرته وسمعته واتسع نفوذه. ولذلك يكثر الضيوف في الكَرَك كل مساء. ويعرف البدو أنهم يصيبون هنا عشاء لهم ولخيولهم فيأتون كثيراً إلى المدينة وينزلون ضيوفاً في إحدى المضافات، ثم ينتقلون إلى مضافة أخرى وهكذا.

وإليكم وصفاً لعادة الأهالي أيضاً: تعتبر عادة بيع السمن دليلاً على البخل المكروه بينهم. وهم يرون أن امتلاك الإنسان لقطيع من الغنم أمر طبعي، ومن عاداتهم - أيضاً - أن يكون لديهم كمية من السمن لتقديمه للضيوف بسخاء. اهـ.

ويضيف: **وإذا عرف عن رجل أنه يبيع السمن أو يبادله بسلعة أخرى فلا أحد يتزوج شقيقاته أو بناته، وهم يلقبون رجلاً كهذا بلقب (بيَّاع السمن)، وهو لقب كريه عندهم. ويتزاوج أهالي الكَرَك مع البدو، وبخاصة مع قبيلة عنزة. اهـ.**

قبيلة عنزة تصاهر من يكافئها في النسب. وأهالي الكَرَك غالباً هم من قبيلة بني صَخْر العريقة، ومن هذه صفاتهم حتماً هم نظراء لقبيلة عنزة لا شك.

يقول بوركهارت في أثناء تجواله في شبه جزيرة سيناء ص٢٦٣: **وإلى مسافة قريبة من هناك أشار لي مرافقي إلى مكان قال لي أن بدوياً من عرب الطور قد أوقف مكتوف اليدين ومربوط الرجلين لأنه سرق الحبوب من مخزن لأحد أصدقائه. وفي الصحراء الكبرى الشرقية لا يكون بدو قبيلة عنزة بمثل هذه القسوة؛ لكنهم لا يتورّعون عن معاقبة أي بدوي يسرق شيئاً من حقيبة ضيفه. اهـ.**

هو هنا يقوم بعملية مقارنة بين قبيلة عنزة وبدو شبه جزيرة سيناء في طريقة التعامل مع المذنبين، وهو هنا يمدحهم جميعاً في عدم سكوتهم عن

Scanned with CamScanner

المذنب؛ لكن العقاب وطريقة معالجة الخطأ هي التي اختلفت فقط لا غير.

وفي ص٢٨٤ وفي شبه جزيرة سيناء قال: **كان عيد محقاً فيما قاله ليلة أمس. فقد لاحظ اللصوص النار التي أشعلناها. واقتربوا منا لكنهم خافوا عندما نبح الكلب. ولذلك كمنوا لنا هكذا بين الصخور، كانوا يراقبوننا ونحن ننطلق. ولو أنهم وصلوا إلى المكان الذي هاجمونا فيه قبل دقائق قليلة فقط لتمكنوا من الاختباء وإطلاق النار علينا بسهولة وقتلنا، ولكانوا لاحظوا بالتأكيد أنني لست بدوياً رغم ملابسي الفقيرة، وأنني لا بد أن معي غنيمة لهم. وهم يعرفون أن سرقتنا لن تتم دون مقاومة، وإن هرب بعضنا فسيشي بهم وسيدفعون ما أخذوه إضافة إلى المطالبة بدم من يقتل أو يصاب منا. لهذا قرروا التخلص منا جميعاً دفعة واحدة وبالتالي فلا أحد يعرف القاتل. وأنا على ثقة أن مثل هذه الفظائع لا تحدث في المناطق الشرقية من الصحراء بين قبائل عنزة، إذ لم أسمع بمثلها هناك.** اهـ.

هو هنا يقوم بعملية مقارنة أخرى بين قبيلة عنزة وبدو شبه جزيرة سيناء، ويُرجِّح كَفَّة قبيلة عنزة في هذا الجانب من حيث التمسك بالأخلاق الفاضلة، مثل: الوفاء والنخوة والشهامة، وتورّعهم عن سفك الدماء بدون سبب مقنع.

والذي لا يعرفه بوركهارت، أنك إذا طعمت أو شربت مع أي فرد من عنزة فأنت آمن في جميع ديار قبيلة عنزة. وكذلك إذا أعطاك الأمان أي فرد من عنزة فأنت آمن في جميع ديار قبيلة عنزة، فإننا - ولله الحمد - يجير علينا أدنانا.

Scanned with CamScanner

رحلة فريزر إلى بغداد
١٢٥٠هـ/١٨٣٤م



ترجمة: جعفر الخياط.

الناشر: الدار العربية للموسوعات، بيروت، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

عدد الصفحات: ٢٣٢ صفحة.

نبذة عن الرحَّالة:

هو جيمس بلي فريزر، ولد عام ١١٩٧هـ/ ١٧٨٣م في أنفرنيس بأسكوتلندا. كان سائحاً ومؤلفاً، ذهب إلى الهند في أول أدوار حياته عام ١٢٣٠هـ/ ١٨١٥م حيث زار الهيملايا ودرس الكثير من أحوالها. وحينما عاد إلى لندن بعد ذلك عين لمرافقة الأميرين الإيرانيين اللذين كانا منفيين في إنكلترا، رضا قلي مرزا ونجف قلي مرزا، وعاد معهما حتى أوصلهما إلى إستنبول.

وفي عام ١٢٣٨هـ/ ١٨٢٣م تزوج ابنة اللورد ووهاوسلي، وهي زوجته التي ظل يبعث إليها برسائله التي يؤلف قسم منها قوام هذه الرحلة.

وكانت بعض الملحوظات الفلكية والجغرافية التي دونها في رحلاته وأسفاره ذات فائدة كبيرة في رسم خرائط البلاد الآسيوية.

Scanned with CamScanner

توفي فريزر في ريليك عام ١٢٧٢هـ/ ١٨٥٦م.

ملخص الرحلة:

هذه الرحلة هي عبارة عن مجموعة من الرسائل كان يبعث بها فريزر إلى زوجته يصف فيها الأقاليم العراقية التي زارها.

وجاء في الرحلة وصف الكوارث التي اجتاحت العراق، ابتداء بالطواعين الثلاثة، وانتهاء بالفيضان الذي أغرق بغداد، فأكمل على البقية من أهلها، نسأل الله العفو والعافية.

وحتى تكتمل المنظومة فقد قام فريزر بوصف الظلم الذي يمارسه الباشوات وغيرهم على السكان مع الضعف الإداري الذي كان يخيم على أرجاء الدولة العثمانية، وثالثة الأثافي - إذا صح التعبير - انعدام الأمن، خاصة خارج حدود المدن والقُرى.

Scanned with CamScanner

قبيلة عنزة
في رسائل فريزر



قال فريزر في ص١٣٥ : فقد كنت ذكرت عند وصولي إلى المدينة (بغداد) لأول مرة أني علمت بأن قبيلة من القبائل العربية المعادية كانت تخيم بالقرب منها. على أنني لم أكن أعرف يومذاك كم كنا قريبين من مشاهدة موقعة تحتدم بين الأعراب أنفسهم. فإن فتح سياسة علي باشا، المبنية مثل سياسة أسلافه والكثيرين من الحكام في الشرق والغرب على قاعدة «فَرِّق تَسُد» الخطرة على الدوام، قد انهارت في هذه الحالة وتركته في وضع حرج جداً. فقد كان يفعل كما يفعل أسلافه، الذين كان البعض منهم على جانب من القوة بحيث يستطيع أن يسيطر جماعياً على القبائل العربية العديدة المحيطة به، أن يزرعوا بذور الشقاق بينها، ويحركوا قبيلة على أخرى حينما كانت تهددهم إحداها أو تضغط بشدة عليهم. وهذه في رأيي سياسة خطرة ما لم تساندها قوة تكفي في الوقت الحرج لجعل السياسي المهيمن في معزل عن الحوادث الفجائية المؤسفة ومسيطراً عليها. وإذا لم تكن في يده قوة فإنه من المحتمل جداً أن يأخذ كل فريق بالاعتداء والتجاوز على غيره، كما هي الحالة في وضع علي باشا اليوم، ويلعب دور الصديق والعدو بصورة دورية حتى ينقلب من كونه خادماً وحليفاً إلى سيد مسيطر.

Scanned with CamScanner

إذ كانت قبيلة الجَرْبَا قد جيء بها إلى القسم الشمالي من الباشوية لتساعد الباشا الأخير على طرد عشيرة أخرى من عشائر اللصوص وقطاع الطرق. وكانت الخدمات التي قدمها الشيخ صْفُوْق[١] لعلي باشا قد أَهَّلته، على ما يرى هو، لأن يحظى بالمزيد من التسامح والامتيازات. لكن عَلِيًّا كان يفكر تفكيراً يختلف عما كان يفكر به رفيقه السابق في هذا الشأن، فرفض مطاليب صْفُوْق وهدده بالسخط عليه. وعلى أثر ذلك تراجع أولاً إلى القسم الشمالي من بلاد ما بين النهرين، وأخذ يقطع الطرق وينهب القوافل ويسلب السياح والمسافرين. ولأجل أن يعرض على سيده السابق نموذجاً من قوته وسطوته، جاء بعد ذلك بقبيلته كلها وأحدق ببغداد نفسها.

فظلت المدينة محاصرة ثلاثة أشهر، وصارت القُرى المجاورة تنهب متى شاء وأراد هذا اللص الجلد، من دون أن تبدر أية معارضة له من جانب الباشا، والحقيقة أن الباشا لم يكن يملك الوسائل اللازمة لذلك. وفي نهاية تلك المدة قَوَّض الأعراب خيامهم على حين غِرَّة واختفوا عن الأنظار، وليس بوسع أحد أن يعلم ما إذا كان السبب في ذلك تناقص العلف وقِلَّة السلب المتيسر، أم ظهور عوامل أخرى في الأفق. وبذلك وجدت بغداد نفسها في صباح يوم من أيامها الجميلة متحررة من زوارها المزعجين. وتراجع صْفُوْق إلى منازله في شمال العراق. لكنه وعد بأن يعيد الزيارة في السنة التالية، فأخاف الباشا بهذا التهديد بحيث إنه بعث يطلب مساعدة عنزة. وهذه عشيرة أخرى قوية جداً، وقد وعدها الباشا بتسليم أراضي الجَرْبَا لها إذا عملت على طردها منها. ولم يعتمد على هذه الوسيلة

(١) لا تبدأ العرب بحرف ساكن في الغالب؛ لكن هذا يحصل أحياناً كما في بعض الأسماء، ولكي يستقيم اللفظ يجب أن نضع حرف الألف قبل الإسم. وهذه اللغة عربية أصيلة قديمة، كما يراها الدكتور أحمد إيبش.

Scanned with CamScanner

وحدها بل حاول أن يحدث انقساماً في قبيلة الجَرْبَا نفسها. وباستعمال السلطة التي كان يدعي أسلافه، مهما كانت اسميتها في حالته هو، في خلق من يقع اختياره عليه وتنصيبه للمشيخة حيث أقدم على ترشيح شاب اسمه شْلاش لمنصب شيخ عشيرة الجَرْبَا. على أن عدداً قليلاً من أفراد العشيرة فقط اهتموا لهذا الترشيح، بينما تمسك القسم الأكبر والأهم منهم بشيخهم القديم صْفُوْق. لكن عنزة، وقد أسال لعابها في الوقت نفسه مطمح التمتع بمراعي الجَرْبَا الممرعة، جاءت ملبية النداء بما لا يقل عن خمسة وثلاثين ألف محارب ليضمنوا القضاء على خصومهم. وما حل هذا الوقت حتى كانت مخاوف الباشا ومحمية شْلاش قد زالت بتراجع صْفُوْق لسبب أو لآخر إلى مسافة أبعد. فأرسل سموه من يخبر حلفاءه الجدد بأن خدماتهم لم تبق لها حاجة ولا أظنك تعجبين إذا علمت أن عنزة التي انتعشت فيها الآمال القديمة وجاءت من مناطق بعيدة في البادية يشح فيها الخير والعشب، قد أغضبتها هذه المعاملة التي عُوملت بها. فقد رفضوا مغادرة مكانهم رفضاً باتاً حتى يكون الباشا قد نَفَّذَ من جانبه الالتزام الذي تلزمه به الاتفاقية؛ لأنهم قد قاموا من جانبهم بما كان يترتب عليهم أن يفعلوه. واحتلوا موقعاً في جوار المدينة يؤدي إلى أضيق مسافة من الجزيرة التي تحجز بين دِجْلَة والفُرَات تأكيداً على ما قر رأيهم عليه.

وحينما استيثرت مخاوف الباشا بهذا العمل من جديد دعا محميه شلاشاً لمساعدته في الدفاع عن بغداد وطرد عنزة عنها. بينما قام هو من جانبه بتحشيد جيشه المؤلف من بضع مئات من الخيَّالة الألبانيين، والجند النظامي، وساقه مع المدفعية ليستعرض أمام عَنَزَة. ثم أطاع شْلاش الأوامر وجاء بفريق العشيرة التابع له إلى ما يقرب من بغداد. وبالشعور الذي يتميز به العرب عادة عمد حتى الشيخ صْفُوْق نفسه، الشيخ المعادي له، إلى إنفاذ مفرزة تتألف من ألفي رجل لمساعدته في هذه المناسبة. وكتب

Scanned with CamScanner

إلى شْلاش يقول: «أنا وأنت عدوان متخاصمان، ويمكننا أن نسوّي النزاع بيننا في موسم مناسب. لكن شرف العشيرة في الوقت الحاضر قد تعرَّض للخطر، ولا أستطيع السكوت عن ذلك ما لم أقدم معونتي للمحافظة عليه». على أن المساعدة كان إنفاذها عبثاً؛ لأن عَنَزَة كانت أقوى من أن تستطيع الجَرْبَا مهاجمتها بنجاح حتى لو كانت العشيرة كلها قد عبئت لهذا الغرض. فقد وقعت مناوشات طفيفة بادئ ذي بدء من دون أن يكون لها تأثير مهم في كلا الفريقين، ولكن في اليوم الذي سبق وصولي إلى بغداد نفسه أدَّت مناوشة من هذه المناوشات إلى وقوع اشتباك عام - على حد التعابير التي يستعملها العرب على الأقل - فاندحر الباشا وحلفاؤه في هذا الاشتباك اندحاراً تاماً، وقعت فيه أحد المدافع لمدة ما في أيدي عنزة. لكن ثقل الحرب والخسارة وقع كله على عاتق الجَرْبَا التي قُطِّع شْلاش شيخها الجديد إرباً إرباً فيها وخسرت من الرجال، على ما يُقال، أكثر مما وقع في أية حرب عربية منذ عدة سنين خلت. وبدافع من بعض الاحترام الباقي لسلطة السلطان استبقت عنزة جند الباشا والتفتت بانتقامها إلى أعدائها من العرب، وقد كان مضمون الهوسات المتعالية في الموقعة: «خَلِّ النظام واقتل الجَرْبَا». وهذا ما فعلوه في الحقيقة والواقع. أما المدافع فإن بدو البادية الجهال لم يكونوا يفهمون على ما يبدو أي الأشياء كانت هي، وعلى كل حال فقد كانوا يجهلون كيفية استعمالها. ولذلك تُركت في ميدان المعركة حتى استعادها جند الباشا، الذي شجعه رفق العدو به، من دون معارضة وتقهقر راجعاً بسرعة إلى حيث صار يحتمي بسور المدينة.

فعلى مثل هذا كانت الحالة العامة في بغداد حينما وصلت إليها. وإن الخوف من عنزة قد دفع كل قروي وبستاني، وجميع القبائل العربية الصغيرة التي كانت متعودة على النزول في الريف المحيط ببغداد، إلى داخل الأسوار. واضطر جميع من كان يملك قطعاناً من الأغنام أو الماشية أو

Scanned with CamScanner

الجمال في المناطق المجاورة إلى أن يلتجئ إلى داخل السور أيضاً، فيشغل الفسح الوسيعة التي خلفها الفيضان. وهذا من شأنه أن يضيف بالتأكيد إلى تكاثر الناس وتدفق الحياة في الداخل؛ لكنه - أيضاً - يزيد بصورة مزعجة في الضوضاء والفوضى المستحكمة في الشوارع. وهذه القطعان من الحيوانات هي التي كنت من قبل قد ألمحت إلى مرورها في رواحها وغدوها من تحت شباكي في كل صباح. وحينما كنا نحاول في الصباح الباكر أن نمر في بعض الشوارع أو نخرج من أبواب المدينة كنا نحسد أنفسنا على الصبر والتحمل الذي كنا نبديه قبل أن نستطيع المرور. أليست هذه صورة جميلة لولاية كان يجب ان تكون من أعظم الولايات ازدهاراً في الإمبراطورية التركية جميعها؟ اهـ.

هذه ليست كل عنزة التي نزلت حول بغداد. هذه هي الحِبْلان والصقور والرُّوَلَة وجزء من عنزة الشمالية، والمقدَّم فيهم هو الشيخ عبدالله (المحزَّم) بن ماجد بن عبدالله الهَذَّال. حيث إن بعض عنزة الشمالية قد ذهبت إلى العراق هرباً من حملات محمد علي باشا على الشام. إضافة إلى أن هذه الفترة كانت العْمَارَات (الاعْمَارَات)، حِبْلان وصقور، والرُّوَلَة يشكلان تحالفاً قوياً، خاصة أن الأمير صَحَن بن الدَّرَيْعِي الشِّعْلان أخواله هم الهَذَّال فأمه هي الشيخة سُكَّر بنت الشيخ الحُمَيْدِي الهَذَّال.

أما السَّلْقَا والدَّهَامِشَة، والذين يعتبرون من العْمَارَات (الاعْمَارَات) بمسماهم الكبير فقد كانوا في نَجْد في عام ١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م. والله أعلم.

الحقيقة، هذه صورة من صور الانفلات الأمني والإداري في الدولة العثمانية، وسوف تأتي الصور الأخرى تباعاً، ينقلها لنا فريزر كشاهد عيان لتلك الفترة التاريخية الحرجة من تاريخ العراق والأمة العربية والإسلامية.

Scanned with CamScanner

وتقارير هؤلاء الرحّالة وكتبهم التي نشروها في تلك الفترة جعلت دول الاحتلال الأجنبي تطمع بالدولة العثمانية وتطمع في أراضيها وثرواتها، مما نتج عنه اتفاقيات التقسيم، وأشهرها اتفاقية (سايكس - بيكو)، التي من خلالها تم تقاسم تركة الرجل المريض، كما سماها قيصر روسيا نيقولا. ولله الأمر من قبل ومن بعد.

وفي ص١٧٣ وبتاريخ ٢٧/ ٧/ ١٢٥٠هـ الموافق ٢٨/ ١١/ ١٨٣٤م قال: **إن الدور الذي لعبه الشيخ صْفُوْق وقبيلته الجَرْبَا من قبل تقوم بدور مثله الآن قبيلة عنزة. فقد كانت بغداد منذ أن وصلنا إليها في حالة حصار فعلي. إذ لم يكن بوسع أحد أن يخرج إلى مسافة مهما كانت قريبة من الأسوار من دون أن يتعرض إلى السلب على اغلب الاحتمال، ولا سيما في الجانب الغربي من النهر. وقد كنت أتوق للذهاب إلى عقرقوف، موقع الخرائب الأثرية المعروف، المعاصر لخرائب بابل والذي يعتقد الكولونيل تايلور أنه موقع أكد الوارد ذكرها في الكتاب المقدَّس. لكن أصدقائنا رجال عنزة قد جعلوه مركزاً لتجمعهم، فلم نجرؤ على الخروج إلى هناك. وقد مدوا رواق سيطرتهم الآن عبر الجزيرة الواقعة ما بين دِجْلَة والفُرَات، واستولوا على طريق الحِلَّة بحيث لا يمكن لأي أحد أن يذهب في ذلك الاتجاه. والحقيقة ان كل شيء غير آمن هنا، لأنهم ليسوا وحدهم، بل كل وَغْد من الناس وكل لص في بغداد أو فيما حولها قد خرج للسلب باسمهم أيضاً. فعاد الكثيرون من المساكين وقد سلبت حتى ملابسهم، ولم يعد بوسع أية قافلة ليست معها قوة كبيرة أن تسير في ذلك الاتجاه. ويقال إن الباشا يقوم بمفاوضة قبيلة عنزة، ويحاول جرياً على خطته السابقة أن يزرع بذور الخلاف بين عدد من أجزاء العشيرة. وقد دعى كالمعتاد عشيرة أخرى لمساعدته كذلك، وهي عشيرة زبيد. ولا شك أن هذا يعود بالوبال عليه وعلى البلاد بوجه عام، ولكن هذه هي سياسته السقيمة. على أن رجال**

Scanned with CamScanner

عنزة، أو الذين ينتحلون اسمهم، لا يعبأون إلا قليلاً على ما يبدو بهذه المفاوضات. فقد سلب عدد من رجال الباشا نفسه في أماكن قريبة من أبواب المدينة، وكان من بينهم يوسف بِك الذي يحمل لقب (باب العرب) أي الموظف الرسمي الذي يتوسط بين الباشا وبينهم، بعد أن كان من مصاحبي الباشا نفسه. فأغاظ هذا سموه بحيث صار يقول الآن إنه سوف لا يتعامل معهم مطلقاً. وقبل يومين فقط سُمع كذلك صوت إطلاق النار في الجانب الغربي من النهر، بالقرب من تربة زبيدة، فتبين أن فريقاً سلاباً من عنزة هاجم المنطقة إلى حد الأسوار نفسها فاستولى على جميع ما فيها من إبل وأغنام وما أشبه. اهـ.

ويضيف في ص١٨٠: كانت الأحوال بين الباشا وقبيلة عنزة تزداد سوءاً على سوء في كل ساعة منذ مدة غير يسيرة، وظل إقلاق البلاد والعبث بها يزداد شدة واتساعاً بحيث إن أشخاصاً محترمين قد سلبوا في أبواب المدينة نفسها. وانقسمت العشيرة على نفسها إلى عدة جماعات، حتى صار من الممكن أن تشترك القبائل العربية الأخرى في النزاع أيضاً، فتشتعل عند ذلك بلاد ما بين النهرين كلها. وقد حدث في الأخير أن سلب عدد من ضباط الباشا نفسه بالقرب من المدينة، ودلَّت التحريات على أن هذا الانتهاك قد اقدمت عليه جماعة من قبيلة عُقَيْل، التي كانت تعيش في القسم الغربي من المدينة، فقرر الباشا وقد ثارت ثائرته لهذه الإهانة الصادرة منهم أن ينتقم انتقاماً عاجلاً من الفاعلين.

وهؤلاء الأعراب هم جزء من عشيرة كبيرة قوية تقيم في نَجْد، وبنتيجة اتفاق عقد قبل ستين سنة مع سليمان باشا احتكروا حراسة القوافل ودلالتها ما بين هذا المكان وحلب ودمشق. ولأجل أن يتسنى لهذه العشيرة أن تزود القوافل بالعدد الكافي من الأدلاء المطلوبين اعتادت أن تبقي على الدوام

Scanned with CamScanner

عدداً معيناً من أفرادها في بغداد برعاية شيخ منهم، لكنهم لم يسمح إلا مؤخراً بالإقامة في داخل الأسوار. اهـ.

المعروف أن (عُقَيْل) أو (العُقَيْلات) ليسوا قبيلة؛ بل هم مجموعة من أهل نَجْد، كانوا يحترفون التجارة بين الأقاليم العربية. وسبب التسمية؟! قال أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري: «العُقَيْلِي نسبة رعية لدويلات عُقَيْلِيَّة (نشأت في شرق الجزيرة العربية) وإن لم تكن من قبيلة واحدة. أو أن العُقَيْلات على التشبيه ببني عقيل ذوي التجارة. والعُقَيْلات ليست من إطلاق أهل نَجْد على أنفسهم وإنما هي إطلاق غيرهم عليهم. وعلى هذا يظن أهل الأقطار الأخرى - وقت إطلاقهم كلمة عُقَيْلات - أن هؤلاء التجار هم ذرية العقيليين؛ لأنهم جاؤوا من بلادهم وورثوا حرفتهم»[(١)].

وقيل: بسبب العُقُل التي كانوا يحملونها معهم لعقل إبلهم؛ لأن غالب عملهم هو شراء الإبل من البادية وجلبها إلى الشام والعراق ومصر. وهم من دلّ الرحَّالة (موسيل) على الأمير النُّوْرِي بن شِعْلان والذي عرف فيما بعد بالشيخ موسى الرويلي[(٢)]. حيث قالوا له: إن هذا الأمير العربي هو وحده من يقدر على حمايتك في هذه البلاد. وهذا ما حصل، مما جعل موسيل يعجب بالأمير النُّوْرِي وبقبيلة الرُّوَلَة، فمكث بينهم فترة من الزمن سجل فيها كل صغير وكبيرة عن حياة هذه القبيلة الوائلية، ومع ما في كتابه من ملحوظات إلا أنه جيد في مجمله ومفيد

---

(١) مسائل من تاريخ الجزيرة العربية، أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري، ص٢١٧، بتصرف.

(٢) هو الرحالة التشيكي ألويس موسيل المعروف بالشيخ موسى الرويلي، عاش مع قبيلة الرُّوَلَة فترة من الزمن، نتج عنها كتابه المعروف: أخلاق الرُّوَلَة وعاداتهم، الذي نشر في نيويورك عام ١٣٤٧هـ/ ١٩٢٨م. وكتاب: في الصحراء العربية. توفي موسيل عام ١٣٦٣هـ/ ١٩٤٤م.

لمن يريد معرفة الرُّوَلَة في أيام البادية، بل إن الرُّوَلَة نموذج لبقية القبائل الوائلية ومن يشبهها من القبائل العربية الأخرى، وهذا في الحقيقة رأي الشيخ حَمَد الجاسر - رحمه الله - أيضاً. حيث قال عن كتاب موسيل (أخلاق الرُّوَلَة وعاداتهم): «إنه كتاب في الواقع لا يختص بمن أُلِّفَ عنهم، بل يشمل وصف حياة جيل يُكَوِّنُ أغلب سكان الجزيرة، ممّن يُعدُّ المادة الأصيلة لأولئك السكان جميعهم، خلال قرون متطاولة، منذ عُرِفت هذه الأمة التي ينتسب إليها، حتى آذنت شمس تلك الحياة بالأفول شيئاً فشيئاً»(١).

وفي ص١٩٧ تحدث فريزر عن الخيل عند قبيلة زبيد مقارنة بما عند قبيلة عنزة من الخيل الأصيلة والجميلة في نفس الوقت حيث قال: **أما خيولهم فقد خيبت أملي كثيراً، فإنني لم أرَ إلا في النادر جواداً ذا منظر أصيل بين جميعها. ولا شك أن أحسنها كان قد ركبها أناس أصطحبهم الشيخ معه حينما ذهب في خدمة الباشا، لكنني كنت أتوقع أن أرى مزيداً من الخيول التي تستحق أن ينظر إليها.**

فلم تكن هزيلة وصغيرة فحسب؛ بل كانت قبيحة الشكل وتنقصها جميع الصفات المهمة التي يتميز بها الجواد العربي. والحقيقة أن قبيلة زبيد لم تكن على ما يبدو مشتهرة بالخيول الأصيلة. وإذا سألتهم عن سبب ذلك يردون عليك بقولهم: «إننا إذا أردنا أن نحصل على الأصائل من الخيول نذهب إلى عنزة فننهب ما نريد». وقد فعلوا هذا في الحقيقة ذات يوم؛ لكنه كاد أن يكلفهم وجودهم كقبيلة محترمة بين القبائل.

فقد أرادوا في يوم من الأيام على ما يبدو أن يحصلوا على عطف مير آخور باشا، أو رئيس الخَيْلِيَّة التابع للباشا، بأن يقدموا له هدية محترمة.

---

(١) رحَّالة غربيون في بلادنا، حَمَد الجاسر، ص٢٥٨.

لكنهم وقد كانوا لا يملكون أنفسهم الجياد الأصيلة اللائقة، عمدوا إلى سرقة دزينة من أحسن خيول عنزة التي كانوا على وفاق تام معها في ذلك الوقت. على أن هؤلاء سُرعان ما اكتشفوا السرقة، ولم يفتهم أن يعينوا السُّرَّاق أنفسهم. فبعثوا إلى زبيد يحملونها وزر الجريمة، وهم يقولون: «لقد كنا إخواناً لكم وهكذا نرغب أن نكون. وقد سُرقت خيولنا وأنتم سُرَّاقها.. نحن نعلم ذلك ولا يجديكم الإنكار شيئاً، بل أرجعوها لتكونوا إخواناً لنا كما كنتم من قبل، وإلا فنحن أعداء لكم منذ الآن». فحلفت زبيد بكل ما هو مُقَدَّس بأنهم واهمون فيما ذهبوا إليه، وأنها لا تعلم شيئاً عن الموضوع، ودعت عنزة أن تأتي فتفتش عن خيولها عندهم. ولا شك أن العرب لا يجاريهم أحد في إخفاء الخيل المسروقة، وقد نجحوا نجاحاً غير يسير في هذا الحادث بحيث لم تستطع عنزة تمييز خيولها من بين الخيول الأخرى. لكن رجال عَنَزَة ظلوا غير مقتنعين بالنتيجة، وقالوا: «إن هذا لا يدل على شيء في الحقيقة، فأنتم السُّرَّاق وليس غيركم. ولما كنتم قد اخترتم أن تؤذوننا وتهينوننا ولا تلتفتون إلينا، فليكن الأمر كذلك، ونحن أعداؤكم».

وقد بَرَّت عنزة بوعدها هذا. ولما كانت على جانب أكبر من القوة والمنعة بين القبائل فقد دبرت في الحال أن تضايق زبيداً وتؤذيها حتى أضجرتها ونغصت عليها عيشها، فقررت أن تحسم المشكل مع عنزة بقدر الإمكان. ولذلك بعثت زبيد إلى المير آخور ترجوه أن يعيد لها الخيول بأي شرط كان. فتم لها ما أرادت وأعيدت إلى عنزة خيولها المسروقة مع اعتراف متواضع بالخطأ، ورجاء بإعادة الصداقة إلى ما كانت عليه من قبل بين العشيرتين. فَأَبَتْ عنزة ذلك قائلاً: «كلا، لقد أثبتم أنفسكم بأنكم أناس لا عقيدة لهم، أيها الأوغاد المساكين الذين يعد من الخزي والعار الاتصال

Scanned with CamScanner

بهم. لقد وجدتم من المناسب أن تعيدوا ما نهبتموه، لكنكم هيهات أن تستعيدوا تقديرنا لكم، وسنبقى على عدائنا لكم». والحق أن هذا النزاع مع عنزة قد عجل بالقضاء على مكانة زبيد بين العشائر. اهـ.

وهذا تأكيد لما نقوله دائمًا، حيث إن عنزة إذا خاصمت أو حاربت فهي تعلن ذلك للمقابل أياً كان جنسه أو لونه، وهذا يسمى: (رد النِّقَا)، وهو إعلان الحرب، ولفظها: (عليك مردود النِّقَا). وهو مأخوذ من النَّقاء أي الصفاء، وكأنهم يقولون له: لن تصفو الأجواء بيننا بعد ذلك. إذ الغدر لا يوجد في أخلاق قبيلة عنزة الوائلية ولله الحمد والمنة.

وفي ص٢٠١ تحدث فريزر عن ترك عنزة حصار بغداد حيث قال في يوم الخميس ١٠/ ٨/ ١٢٥٠هـ الموافق ١١/ ١٢/ ١٨٣٤م: **لقد تأيدت هذا اليوم الأخبار التي تناهت إلينا من قبل حول انقسام عنزة على نفسها وفي جناح الجزيرة. ويقال بصورة جازمة إنهم قد رحلوا من هنا، وبعد أيام قلائل يؤمل أن تفتح الطرق المحيطة بالعاصمة وتخلو من قطاع الطرق والسَّلابين.** اهـ.

وبعدها بأيام يؤكد فريزر انسحاب عنزة حيث قال في ص٢٠٣: **وفي هذا اليوم زرنا شيخ زبيد، الذي كنت آمل أن أحصل منه على دليل للقافلة يأخذنا في مستهل رحلتنا على الأقل إلى المناطق العربية. فقد تأكد تنحي عنزة وانسحابهم إلى بُعْد كافٍ لا يجعل منهم مصدر خطر عاجل على الأقل ولما كانت هناك قافلة تستعد للتوجه إلى الحِلَّة، فقد كنا نأمل أن نتحرك إلى الجزيرة بسلم وأمان.** اهـ.

وفي ص٢٠٧ تحدث عن منازل القبائل جنوب بغداد وذلك فيما بين دِجْلَة والفُرَات أو ما يسمى بالجزيرة حيث قال: **وأخيراً، فقد أكملنا استعدادتنا للرحلة التي نعتزم القيام بها إلى الجزيرة، أو ما بين النهرين**

السفلى. ونظراً لأنكِ سوف تصاحبينا الآن خلال تجوالنا في أرض تقطنها عشائر عربية بالكلية، فقد يسرّكِ أن تكوني على مزيد من الاطلاع على طبيعة هؤلاء الناس وأخلاقهم قبل أن أقدمهم لك.

فأنت تعلمين على ما أعتقد أن بلاد ما بين النهرين، أي البلاد الكائنة ما بين دِجْلَة والفُرَات، تشغلها الآن عشائر عربية على كونها لا تعتبر جزءاً من جزيرة العرب. ولا شك أن خصب هذه البلاد هو الذي أغرى هذه العشائر بأن لا تكتسح القسم الأعظم منها فقط بل بالاستيلاء - أيضاً - على معظم الأراضي المنخفضة التي تقع في الجانب الأيسر من دِجْلَة وتمتد من سواحل الخليج حتى المُوْصِل. وهكذا فإن القسم الشمالي من بلاد ما بين النهرين، أو الجزيرة كما يسميها العرب، الممتد من نهر الخابور إلى ما يقرب من بغداد تقطنه الآن عشيرة الجَرْبَا التي أتينا على ذكرها مرات عدة من قبل. وتنتشر عشيرة الدَّلَيْم في الأماكن التي تجاور المدينة مباشرة. أما البلاد التي تمتد من هذه المنطقة إلى شط الحي، الذي يخترق الجزيرة ويوصل ما بين النهرين العظيمين، فتملكها عدة قبائل تختلف فيما بينها من حيث القوة والاعتبار، وابرزها وأكثرها انتشاراً قبيلة زبيد. وعلى الشاكلة نفسها، تشغل البلاد الممتدة من هذا الشط إلى القرنة، حيث يلتقي النهران، عشائر عديدة أهمها ربيعة، من أقارب المِنْتِفِق، والحقيقة أن جميع القبائل الأخرى هي من متعلقات العشيرتين القويتين الأخيرتين.

وفي الجانب الأيمن من الفُرَات تقوم عشيرة عنزة، وهي العشيرة العظيمة التي أصبحت تعرفين الشيء الكثير عنها بلا شك، بحكم البلاد وحماية عدد من القبائل الصغيرة التي تنتشر على طول النهر من البير إلى عَانَة، أو تقوم باضطهادها تبعاً لما تقتضيه الأحوال والظروف. وفيما بين الحِلَّة والسَّمَاوَة تستولي على منطقة الأهوار المتكونة من فيضان الفُرَات،

Scanned with CamScanner

وفي ضمنها ما تسمى بأهوار لملوم، عشيرة الخَزَاعِل الكبيرة التي تستمد قوتها من طبيعة البلاد التي تقطنها. وهؤلاء أناس يمتهنون الزراعة والرعي، ويعيشون لدرجة كبيرة على ما تنتجه قطعان الجاموس الذي تربى على أدغال الأهوار الكثة، فضلاً عن كونهم متوحشين خاصين وقطاع طرق غادرين. ومن السَّمَاوَة إلى البحر تعود البلاد كلها من دون منازع إلى عشيرة المِنْتِفِق العظيمة التي تمتد - أحياناً - إلى هَيْت وعَانَة في الشمال متاخمة إلى عنزة، وتحمي عدداً من القبائل الصغيرة التي تعتمد عليها. وجميع هذه العشائر، عدا عنزة، من رعايا باشوية بغداد بالاسم على الأقل.

وفي الجانب الأيسر من دِجْلَة، إلى شمال بغداد، تستولي على البلاد عدة قبائل صغيرة عربية وكردية، كل أفرادها لصوص ينهبون المسافرين ويقترفون كل نوع من أنواع السلب والإغارة. وفي جنوب بغداد، توجد قبيلة بني لام القوية التي تصل في تجولها من أقسام سوسيانا الجنوبية إلى الكرخة. وقد استولى عرب بني كعب على جميع المنطقة الكائنة ما وراء نهر الكرخة إلى البحر. ولا شك أن نظرة تلقينها على الخارطة تجعلك قادرة على فهم مواقع هذه القبائل المختلفة. اهـ.

من خلال هذا المقطع يعطينا فريزر صورة عن منازل القبائل في العراق، ويؤكد أهمية عنزة كقبيلة مستقلة كبيرة تنضوي تحتها الكثير من القبائل والعشائر. واستقلال عنزة عن باشوية العراق لم يأت من فراغ، فهو يرجع إلى عدة أسباب ومنها:

١ - قوة الزعامات الوائلية كإبن هَذَّال وابن شِعْلان. والتي هي بحد ذاتها إمارات مستقلة مثل ابن شِعْلان.

٢ - كثرتهم. وهذا العدد الذي قدَّره فريزر بـ(٣٥) ألف محارب يمثل:

العْمَارَات (الاعْمَارَات): جِبْلان وصقور، والرُّوَلَة، وجزء من عنزة الشمالية.

٣ - كثرة تنقلاتهم. فهم مرة في نَجْد، ومرة في شمال الجزيرة العربية، ومرة في الشام، إذ ليس لهم مكان محدد يمكن من خلاله السيطرة عليهم مثل (الشُّوَايَا)، وهي القبائل التي تربي الأغنام وما في حكمها.

وفي نفس السياق قام فريزر في ص٢٠٩ يصف الجنس العربي ويثني على كثير من صفاته الأخلاقية حيث قال: **وجميع أفراد هذه القبائل الصغيرة، وهي تتحدر من نفس الأرومة التي يتحدر منها إخوانهم في الجزيرة العربية، أو أي مكان يوجدون فيه، يشبهون هؤلاء في جميع النواحي الأخلاقية الأساسية. فهم جميعهم يدعون بفضيلة السخاء، وإكرام الضيف، والعدالة، وطهارة الذمة، والوفاء بالعهد، وبالصفات الحميدة المعروفة كالشجاعة والاستقلال وتعشق الحرية.** اهـ.

إنه ليس ادعاء بل هي الحقيقة، فالعرب يتمسكون بمكارم الأخلاق عموماً. وحالة الفوضى التي يتحدث عنها فريزر جميع الأمم عانت منها، ومنها أوروبا نفسها فيما يسمى بالعصور المظلمة؛ وهي التي ما قبل الثورة الفرنسية.

Scanned with CamScanner

رحلات فالن إلى جزيرة العرب

١٢٦١هـ/١٨٤٥م

١٢٦٤هـ/١٨٤٨م



ترجمة: سمير سليم شبلي.

راجعه: يوسف إبراهيم يزبك.

الناشر: دار الورَّاق للنشر المحدودة، لندن، ٢٠٠٨م.

عدد الصفحات: ٢٩٦ صفحة من القطع المتوسط.

نبذة عن الرحَّالة[١]:

هو جورج أوغست والن، وهناك من يكتبها فالين؛ لكن الأستاذ الدكتور عوض البادي، والأستاذة مارية الهلالي، والأستاذة كاي أورنبري، يؤكدون الأول: (والن). جنسيته: فنلندي. وقد عرف عند الباحثين والمثقفين العرب بالشيخ عبد الولي.

ولد والن عام ١٢٢٦هـ/ ١٨١١م في أرخبيل أولاند الناطق بالسويدية وكان ترتيبه الرابع بين إخوانه.

سجل والن في جامعة ألكسندر القيصرية عام ١٢٤٤هـ/ ١٨٢٩م

(١) انظر: عاشق الصحراء، سيرة الرحَّالة والن، كاي أورنبري، ترجمة: مارية الهلالي.

Scanned with CamScanner

حيث درس اللغات الكلاسيكية الشرقية، لغات العالم الإسلامي: العربية والفارسية والتركية.

عُيِّن محاضراً جامعياً في اللغات الشرقية التي درسها.

ومن الأشخاص الذين تأثر بهم والن أستاذه المصري محمد عيَّاد الطنطاوي (١٢٢٥-١٢٧٨هـ/ ١٨١٠-١٨٦١م) محاضر اللغة العربية في معهد سان بترسبورغ للدراسات الشرقية. مما جعله يعقد العزم على الرحلة إلى البلاد العربية واكتشافها.

توفي والن في مدينة هلسنكي، في ظروف غامضة، وعمره ٤١ عاماً، وإلى الآن لا يعرف سبب وفاته، عام ١٢٦٩هـ/ ١٨٥٢م.

ملخص الرحلة:

تجوّل جورج أوغست والن في بلاد الشام ومصر وشمال الجزيرة العربية في رحلتين، الأولى عام ١٢٦١هـ/ ١٨٤٥م، والثانية عام ١٢٦٤هـ/ ١٨٤٨م. ولم تسعفه الظروف المالية في الوصول إلى العاصمة السعودية الرياض، فرجع إلى بلده فنلندا، وكان قد عزم على العودة مرة أخرى حتى يكمل رحلاته؛ لكن اخترمته المنية فجأة قبل أن يعود، وعمره ٤١ عاماً.

Scanned with CamScanner

قبيلة عنزة
في رحلات والن



يقول والن في ص٣٠: ومَعَان الحالية من أكبر البلدان في طريق الحج السوري، فيها مائتا عائلة تقريباً تنحدر من سبع بطون، أو (فناد)، مختلفة، وقد اختلطت بالمهاجرين النازحين إليها من القُرى السورية الأخرى. وهم أقوياء البنية، سوريو الملامح، يستطيعون تعبئة قوة محاربة من مائة وخمسين مقاتلاً - وقيل لي: ثلاث مئة - وهذه القوة المحاربة تبعث في نفوس أهل مَعَان ثقة تجعلهم يخفضون الخُوَّة التي يفرضها عليهم شيوخ القبائل المجاورة من الشَّرَارَات والحُوَيْطَات وعنزة. وقد يرفضون تأديتها. اهـ.

ويضيف في ص٣٨: إن القبائل الرئيسة في جوار مَعَان، التي يعمل الأهلون على حفظ صلات الصداقة بها، هي أولاً: الشَّرَارَات المعتبرة السيدة الأصلية لمَعَان والجوف، ويعيش أكثرها في هذا الجزء من الصحراء وفي وادي السِّرْحَان، وثانياً: الرُّوَلَة والنَّايف، بطنا عنزة، ثم بنو صَخْر قرب شَوْبَك والكَرَك، ثم الحُوَيْطَات وقبائل أخرى تعيش في المنحدرات الشرقية من سلسلة الشراة. اهـ.

الرُّوَلَة هي القبيلة، والنَّايف كانوا ولا زالوا بيت الإمارة في قبيلة

الرُّوَلَة، وهم من الشِّعْلان من عشيرة المُرْعِض من الرُّوَلَة. وفي أثناء رحلة والن كان أمير الرُّوَلَة هو الأمير فيصل بن نايف الشِّعْلان المتوفي عام ١٢٨٠هـ/ ١٨٦٤م.

وفي ص٥٢ تحدث والن عن قبائل جنوب الأردن، وتحدث عن بعض الخلافات فيما بينها، ثم قال: **وجميع هذه القبائل على عداوة مع عنزة ومع العُرْبَان الذين في الجانب الشرقي من الجبال. فهي تهاجم عنزة حتى في عقر دارها. وفي مقامي بوادي دلاغة عند بني عمران كنت أرى دائماً فرساناً من عنزة متربصين في الجبال القريبة لينقضوا بين ساعة وأخرى على المقيمين في جوار نبع (بسطة). وقبل قدومي بقليل نشبت معركة بين الحُوَيْطَات والرُّوَلَة بسبب المرعى فقدت فيه أرواح وخيل كثيرة.** اهـ.

وفي ص٦٠ قال: **نادراً ما يجوب البدو صحراء سورية وذلك بسبب قحطها ويبابها الكاملين وإنْ أتوها فأيامهم فيها قصيرة. ويصادف - أحياناً - بعض من الشَّرَارَات الذين يعيشون في وادي السِّرْحَان، وهم في طريقهم إلى مَعَان وجبال الشراة. وإلى الشمال منهم ينتشر بنو صَخْر حتى الكَرَك. أمَّا في الأجزاء الجنوبية حيث تتسع الأودية وتزيد خصباً فأفخاذ عنزة كالفُقْرَا (الأفْقَرَا) ووُلْد سليمان تضرب خيامها - أحياناً - لبضعة أيام.** اهـ.

وُلْد سليمان هم إحدى قبائل ضَنَا عُبَيْد من ضَنَا بِشْر من عنزة. وزعامتهم في أسرة العُوَاجِي العريقة.

وعندما وصل الجوف، وهي مدينة دُوْمَة الجَنْدَل، تحدث عن أحيائها، وذكر فيه أن سكان حي عَشْوَان من الرُّوَلَة، فقال في ص٦٨: **وسكان عَشْوَان أصلهم من الرُّوَلَة الرُّحَّل من قبيلة عنزة.** اهـ.

في هذا المقطع يثبت نسب حي عَشْوَان، وأنهم في الأصل من قبيلة الرُّوَلَة. والجوف اسم يطلقه الناس - فيما مضى - على دُوْمَة الجَنْدَل،

Scanned with CamScanner

والآن في هذا العصر يطلق اسم الجوف على المنطقة ككل، ويتكون من عدة مدن: سُكَاكَا، دُوْمَة الجَنْدَل، صُوَيْر، طَبَرْجَل. بالإضافة إلى عدد من القرى والبلدات. أما القُرَيَّات (قُرَيَّات الملح) فهي في الحقيقة وإن كانت ضمن منطقة الجوف إدارياً في العهد السعودي إلا أنها خارج المنطقة جغرافياً.

ومن ص٧٧-٨٤ تقريباً تحدث والن عن الأوضاع السياسية والدينية والتعليمية والمعيشية في منطقة الجوف، وتحدث عن الدعوة الإصلاحية بما نعتبره شهادة حق من رجل عاش في تلك الأيام فقال: **إنّ الوهابيين متزمتون يُسمون أنفسهم بالموحِّدين، ويقولون إنّ الآخرين يشركون بالله - تعالى - كائنات أدنى منه ويعتبرونها جديرة بأن يعبدها الإنسان. وهم لا يتخذون كلمة (وَهَّابِيَّة) اسماً لهم لأنهم يعدونها إهانة. والذين يطلقون عليهم هذه اللفظة هم أهل البلاد العربية التركية، والوهابيون لا يؤلفون مذهباً خاصاً بهم بل يتبعون مذهب الإمام أحمد الحنبلي. وأمراء آل سعود لم يسكّوا نقوداً تحمل أسماءهم**. اهـ.

كلامه فيه بعض التحامل على الدعوة الإصلاحية السلفية!! دعوة الإمام محمد بن عبدالوهاب رحمه الله؛ لكنه قال كلمة الحق، وهذا شيء جميل نفرح به. ومن قرأ مؤلفات علماء الدعوة السلفية ابتداء من الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب فما بعده سوف يصل إلى هذه النتيجة - بإذن الله - دون أدنى شك.

وفي نفس السياق السابق تحدث والن عن الأوضاع التعليمية في منطقة الجوف فقال: **إنّ الأولاد هنا - كما في جميع القرى الوهابيَّة - يلقنون منذ الصغر أصول الدين وشعائره. والكتابة والقراءة منتشرتان بينهم أكثر مما هي عليه في المدن العربية والتركية**. اهـ.

Scanned with CamScanner

كذا قال!! وأنا اعتبر ذلك من باب المبالغة في الثناء لا أكثر. ولم تنتشر الكتابة والقراءة بل والتعليم بمعناه العام في منطقة الجوف إلا في عهد الملك عبد العزيز آل سعود - رحمه الله - فما بعده، إلى هذا العهد الذي افتتحت فيه جامعة الجوف عام ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م ولله الحمد.

ثم تحدث عن مكارم الأخلاق التي يتحلى بها أهل الجوف فقال: **ومع أن المعروف عن أهل الجوف أن طباعهم قاسية وأنهم يميلون للتشاكس فالجميع يشهدون لهم بأنهم مضاييف كرماء، ومهذبون مع الغريب. وأعلن، فيما يتعلق بي شخصياً، إني لم ألق، حتى بين أكرم عرب الصحراء، قبيلة تفوق أهل الجوف في أفضالهم. ولم يستقبلني أحد أحسن من استقبالهم إيّاي.** اهـ.

نعم، وهذه هي أخلاق أهل الجوف بادية وحاضرة، وهم ينقلونها إلى من بعدهم ولله الحمد.

وفي ص٨٣-٨٤ قال: **ويؤدي سكان الجوف الزكاة لزعيم شَمَّر فيتصرف بها على مشيئته. غير أن هذه التأدية لا تدرأ عنهم هجمات رُحَّل الجوار. وكل حي (سوق) يدفع (خُوَّة) لشيخ، أو لعدة شيوخ من البدو. والخُوَّة في الغالب كمية معينة من التمر. والقبائل الرئيسة التي تستوفيها هي الشَّرَارَات والرُّوَلَة من عنزة - وتسمى أيضاً جِلاس - والنَّايف والشّعْلان، وهما بطنان من الرُّوَلَة عظيمان، يعيشان أكثر أيام السنة في حوران. والبدو يعرفون حوران باسم (نِقْرَة الشام).**

ولكنهم في الشتاء - أي الرُّوَلَة - يتوزعون في أراضي النفود الواسعة باحثين عن المراعي لقطعان جِمالهم في جوار الجوف وبئر الشَّقِيْق. وأحياناً يذهبون جنوباً إلى القَصِيْم، وإلى الشمال الشرقي، وإلى الشرق؛ حتى

Scanned with CamScanner

يصلوا إلى الجزيرة في تخوم العراق حيث يلتقون مع الفروع الأخرى لقبيلتهم[١] . اهـ. أي عنزة.

جاء في كلام المؤلف: **الصيف**. وهذا غير دقيق، والصواب هو في الشتاء تنتشر الرُّوَلَة في النفود، وهو ما يُسمى برمل عالج. لأنهم في الصيف يكونون في بلاد الشام، وفي الشتاء ينتشرون في الجوف وفي النفود وهذا عادتهم في كل سنة. وإذا مكث منهم أحد في الجوف فهم لا يبتعدون عن الآبار؛ نظراً لحاجتهم للماء في الصيف كما هو معروف.

وفي ص٨٩ وصف بلدتي الطُّوَيْر وقَارَا فقال: **وإلى الشمال الشرقي في الجوف، وعلى ثماني ساعات منها، محلة صغيرة تدعى: قصر الطّوَيْر، تسكنها حوالي عشر أسر. وبين المحلتين موضع ثالث يقال له: قَارَا. تقطنه ما يقرب من عشرين أسرة أصلها من الدِّغْمِي من عنزة، وفيها حصن قديم يعرف بالمشرفة**. اهـ.

الآن الطُّوَيْر وقَارَا يعتبران من أحياء مدينة سُكَاكَا بعد اتصال العمران بينها.

والدِّغْمِي هم بيت الرئاسة في عشيرة الدُّغْمَان من الرُّوَلَة. وهو من أقدم مشايخ قبيلة عنزة وقبيلة الرُّوَلَة على وجه الخصوص، إذ تعود مشيخته إلى أربعة قرون قد مضت وقد تزيد، وهو ثالث ثلاثة في قبيلة الرُّوَلَة من حيث الأقدمية: القَعْقَاع وابن نُصَيْر وابن دِغْمِي[٢] .

وفي ص١٠٤ قال: **سرنا ثلاث عشرة ساعة وثلاثة أرباع الساعة في**

---

(١) نقلت هذا المقطع من كتاب: الرحَّالة الأوربيون في شمال الجزيرة العربية، د. عوض البادي، ص٣٧. بتصرف. فهو أدق في ترجمته.

(٢) انظر: قبيلة الرُّوَلَة في التاريخ، فائز الرويلي.

Scanned with CamScanner

اتجاه جنوبي - جنوبي شرقي حتى أتينا إلى آبار الشَّقِيْق الست، وهي في سهل تربته مالحة صلبة على عكس الرمل الناعم الذي تتكوّن منه الأراضي المحيطة بهذا السهل. وعمق الآبار من عشرين إلى خمس وعشرين قامة، وقعرها أحواض واسعة تنتهي عند السطح بفتحات، قطر الواحد منها حوالي الياردة، وهي مبنية بحجارة كبيرة ومهارة وعناية فائقة، وعلى الفوهة لاحظت رسوماً مختلفة لصلبان ولأشكال قد تكون حروفاً. والرسوم ممحوّة غير واضحة. والماء عذب جيد ومتوافر طوال السنة. وهذه هي الآبار الوحيدة بين الجوف ونَجْد، تقع في أرض غنية بمراعيها، حتى في أواخر فصل الصيف. ولها أهمية كبيرة لأنها صلة الوصل بين سورية ونَجْد، ولأن العرب الرُّحَّل يقعون فيها على المرعى في جميع الفصول. وطوال الشهرين الأخيرين من هذا الصيف نزلت على الآبار مئات من أسر الرُّوَلَة وشَمَّر والشَّرَارَات إذ وجدت مراعي تكفي إبلها العديدة. ولما بدأت الآبار تشحّ اضطرت هذه الأسر إلى مغادرة المكان فرحلت قبل يومين من وصولنا.

والمسافة بين الجوف والشَّقِيْق (١٢) ساعة إلى (١٤) قطعناها في ما يقرب من عشرين ساعة على جِمالنا الهزيلة. اهـ.

آبار الشَّقِيْق: من مياه الرُّوَلَة، وهي للهَقْشَا من الدُّغْمَان، وما بعدها إلى وسط النفود الكبير تقريباً هو آخر حدود إمارة ابن شِعْلان، في دائرة قطرها حوالي ٥٠٠ كيل، والمركز والعاصمة هي مدينة دُوْمَة الجَنْدَل.

تحدث والن عن بلدة (جُبَّة) بشيء من التفصيل، وتحدث عن القبائل التي تأتيها فقال في ص١١٠: ويأتي إلى هنا كثيرون من قبائل مختلفة، ولا سيما في موسم التمر. وفي أثناء إقامتي في جُبَّة بلغ عدد خيام البدو الرُّحَّل في السهل، وبين المنازل، أكثر من (١٥٠) خيمة جُلّهم من الرُّوَلَة وشَمَّر، وكان في العداد - أيضاً - أفراد من عنزة، وبِشْر، والفُقَرَا (الافْقَرَا)، ومن الشَّرَارَات والعَوَازِم الذين حالفوا شَمَّر. وحشود الرُّحَّل لا تفارق جُبَّة في

Scanned with CamScanner

جميع الفصول لأن في جوارها أخصب مراعي منطقة النفود، ولأنها المحلة الوحيدة التي فيها ماء بين هذه المراعي والشَّقِيْق. اهـ.

الرحَّالة في كتاباته لا يُدقق كثيراً، أو أن هذا حدود علمه، فهو يذكر الأسرة ومباشرة ينسبها إلى قبيلة عنزة، وما هناك مشكلة في هذا فهي في النهاية من عنزة لا شك؛ لكنه يذكر عنزة ومن ثم يذكر بعض القبائل على أنها تماثل عنزة وهي في الأصل من عنزة!! مثل قوله: **وكان في العداد - أيضاً - أفراد من عنزة وبِشْر والفُقَرَا (الافْقَرَا).** بينما بِشْر أحد جذمي قبيلة عنزة، فقبيلة عنزة تتكون من ضَنَا بِشْر ومن ضَنَا مُسْلِم. والفُقَرَا (الافْقَرَا) إحدى قبائل المَنَابِهَة من بني وَهَب من ضَنَا مُسْلِم من قبيلة عنزة الوائلية. فهي من عنزة ولا يمكن ان تذكر وكأنها قبائل مختلفة عن عنزة.

وفي ص١٢٠ قال: **إن أرض النفود من أغنى مراعي بلاد العرب، لكن العرب لا يزورونها إلا في فصل الربيع فقط، طلباً لمياه الأمطار التي تتجمع في برك وأحواض. والماء قليل جداً في أجزائها الوسطى، لذا يندر أن تشاهد مضارب للبدو بين الشَّقِيْق وجُبَّة. أما الأجزاء الشمالية من وادي السِّرْحَان ومنحدرات النفود الجنوبية المتاخمة لجبل شَمَّر فيزورها العديد من البدو طوال السنة.**

وينزل الشَّرَارَات والرُّوَلَة في الأجزاء الشمالية من وادي السِّرْحَان، ويضرب بِشْر وشَمَّر في المنحدرات. وفي المنحدرات الشرقية تتنقل شَمَّر والظَّفِيْر والمِنْتِفِق في الشتاء والربيع. أما في الصيف فيتجه البدو جميعاً إلى الأراضي المزروعة، فشَمَّر إلى أراضيهم والآخرون نحو الفُرَات ودِجْلَة. اهـ.

وفي ص١٦٥ تحدث والن عن منطقة حائل وعن إمارة ابن رشيد فقال: **أما المراعي الفسيحة والسهول الصحراوية الكبيرة التي تحيط**

Scanned with CamScanner

بالمنطقة فتسكنها عنزة العدنانية، وتربطها أواصر الأخوة الحميمة بشَمَّر، بدوهم وحضرهم على السواء. ومع أنهم يؤدون الزكاة لكبير شيوخ شَمَّر، معترفين بسيادته، فإنهم من ناحية أخرى يحتفظون دائماً بحريتهم على أنهم بدو مستقلون. اهـ.

نعم، ولا زالت أقرب القبائل إلى عنزة هم شَمَّر، ويضاف إليهم قبيلة بني خالد الكبيرة والمعروفة، وقبيلة بلي القُضَاعِيَّة العريقة.

ويلاحظ من سياق الكلام أن والن يعد ابن رشيد ويحسبه على قبيلة شَمَّر!! وهذا خطأ، فابن رشيد إمارة أتت بتعيين من آل سعود، وتحديداً الإمام فيصل بن تركي حيث كان في الأحساء عام ١٢٤٩هـ/ ١٨٣٣م وأتاه الخبر باغتيال والده فرجع إلى الرياض وقتل من قتله، وكان معه عبدالله بن رشيد فقال له الإمام فيصل: ماذا تريد؟ فقال: إمارة حائل. فعيّنه عليها أميراً. فكان تابعاً لآل سعود طوال حياته إلى أن نشب الخلاف بين أبناء الإمام فيصل بن تركي بعد وفاته على الحكم، وفي هذه الأثناء تولى الإمارة محمد بن عبدالله بن رشيد وهو الذي استقل بها، ثم التفت إلى آل سعود وقضى على الدولة السعودية الثانية بمغادرة الإمام عبد الرحمن بن فيصل بن تركي الرياض عام ١٣٠٩هـ/ ١٨٩٢م.

وفي أثناء زيارة والن إلى الجزيرة العربية وتحديداً إلى حائل كانت إمارة ابن رشيد تابعة مطيعة لآل سعود، وكانت بعض قبائل عنزة الموجودة تتبع إدارياً لمنطقة حائل، فهم يؤدون الزكاة للحاكم الإداري المباشر والذي بدوره يوصلها للحاكم العام وهم آل سعود. أما بعد أن استقلت إمارة ابن رشيد فلم تدفع عنزة له شيئاً من الزكاة بخلاف الحواضر في المدن والقرى الذين استمروا في التبعية. وقد أشار إلى هذا بعض الرحَّالة الذين زاروا المنطقة بعد والن ومنهم دوتي عام ١٢٩٤هـ/ ١٨٧٧م، الذي يجعل ابن رشيد يغزوهم في بعض الأحيان.

Scanned with CamScanner

قبيلة الرُّوَلَة لم تدفع الزكاة لابن رشيد سواء يوم أن كان يمثل آل سعود أو بعد أن استقل لوحده، فالرُّوَلَة لم تعرف حاكماً غير ابن شِعْلان، فهو الذي كان يجمع منهم الزكاة وغيرها، فقد كان حاكماً مستقلاً تبدأ حدود إمارته من جنوب آبار الشقيق في وسط النفود الكبير إلى مدينة حمص، ومن نهر الفُرَات إلى ينابيع الزَّرْقَا بالقرب من عَمَّان عاصمة الأردن الآن، وهذه الأراضي هي أماكن انتشار الرُّوَلَة وحلفائهم ومن يتبعهم، يتجولون فيها بكامل حريتهم.

ويضيف والن في ص١٦٥: **وفيما قبيلة الرُّوَلَة العظيمة في حوران تهاجر عشائرها الواحدة بعد أختها إلى سورية**. اهـ.

قبيلة الرُّوَلَة تقضي الشتاء في منطقة الجوف وما حوله، فإذا دخل الصيف ارتحلوا إلى بلاد الشام، فهم يطوون المراحل إلى أن يصلوا إليه. وكل عشيرة لها مسارها المعروف كل سنة، حيث من كثرتهم يصعب عليهم المسير الجماعي، إضافة إلى أن كل عشيرة فيها ما يكفيها من الفرسان والمقاتلين الذين يحمونها فهي ليست بحاجة إلى بقية العشائر. ومما يميز الرُّوَلَة أنهم تحت قيادة سياسية واحدة منذ عام ١١٠٠هـ/ ١٦٨٩م تقريباً ممثلة في أسرة الشِّعْلان الكريمة.

وفي ص١٦٩ تحدث والن عن الطرق في الجزيرة العربية، خاصة طرق الحج والتجارة والقبائل التي عليها فقال: **والطريق من تَيْمَاء إلى خيبر والمدينة المنورة سهل، ومياهه كثيرة. وهو يخترق بقعة يصادف فيها في أكثر الأوقات بدو الفُقَرَا (الافْقَرَا) وبِشْر. وليس هنالك على حد علمي بين سورية والأماكن الشرقية من نَجْد أي اتصال مباشر. والطريق المعقول سلوكه بينهما قد يكون من الدِّرْعِيَّـة عبر القَصِيْم وجبل شَمَّر والجوف؛ ولكنه لا يطرقه سوى من اضطرته إلى ذلك ظروف استثنائية.**

ويأتي أحياناً عرب الرُّوَلَة من حوران إلى نَجْد في طلب المرعى

فيمرون بالجوف أو بصحراء الدَّهْنَاء، إلى الشرق من سُكَاكَا، متجهين إلى القَصِيْم. والطريق من الدِّرْعِيَّـة إلى مصر تمر عادة عبر القَصِيْم إلى جبل شَمَّر وتنعطف منه إلى الأخضر أو تبوك في طريق الحج السوري.

ومع هذا كله يصعب الكلام على الطرق في بلاد العرب، ويصعب تحديد اتجاهاتها. فباستثناء دروب الحجاج الرئيسة ليس هناك طرق ثابتة في الصحراء. والجمل يستطيع السير على جميع الأتربة. والبدوي الجسور الذي يعرف أرضه وآبارها، والذي تعوّد مكاره العطش والجوع ينتقي طريقه من حيث شاء. اهـ.

وفي ص١٨٤ قام والن يصف الطريق الذي سلكه من حائل إلى الحجاز، وتحدث عن بلدة الحُلَيْفَة والتي هي من ديار الرَّسَالِيْن من السَّبَعَة من عنزة فقال: **وفي وسط السهل، إلى يسارنا، قرية صغيرة اسمها «الحُلَيْفَة» فيها ثمانية منازل وبعض بساتين فقيرة من النخيل يملكها عرب عنزة. اهـ.**

الحُلَيْفَة الآن مدينة عامرة بالناس، تقع على طريق المدينة – حائل القديم، وهي لعشيرة الرَّسَالِيْن من السَّبَعَة من عنزة، وكبيرها الشيخ ابن صْعَفَق من الرَّسَالِيْن. وبعد توحيد المملكة العربية السعودية على يد الملك عبد العزيز عام ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م أصبحت الحُلَيْفَة مفتوحة لجميع الناس كغيرها من المدن والقرى، حيث أصبح الوطن واحداً ولله الحمد.

وفي رحلته الثانية عام ١٢٦٤هـ/ ١٨٤٨م تحدث والن في ص٢١٦ عن الموالي المولَّدين فقال: **ويجوز القول إن المتولِّدين أكثر كَدّاً من البدو، أو إن اعتزازهم بأنفسهم في الأقل، لا يصل إلى عَدِّ الزراعة والعمل الشاق مذلّة لهم. ولهذا السبب، ولأنهم يحتاجون إلى بأس البدو كي يدرأوا أخطار البادية عنهم، يفضلون سكنى القُرى حيث يتفقون مع**

Scanned with CamScanner

البدو للعناية بالنخيل، أو لتدبير رزقهم بوسيلة أخرى. وقَلَّ أن بلغ واحدهم جاهاً أو غنى لأن أسيادهم الذين يحتقرونهم يجبون منهم جبواً كثيراً، أو لأنهم قد يكونون، هم، مُبذِّرين. ولبخس ثمن العبيد في الحجاز تكتظ بهم المدن والقُرى. وسمعت أن الجزء الأكبر من جنائن النخيل الواسعة المثمرة التي يملكها عرب الفُقَرَا (الافْقَرَا) من قبيلة عنزة، يزرعه المتولِّدون ويعنون به، وثلث سكان تبوك منهم، يعملون مثل سواهم من السكان في فلاحة الأرض ومتاجرة البدو والحجاج الذين يتوقفون هناك يوماً أو يومين في طريقهم إلى مكّة ورجوعهم منها. اهـ.

وقال جوارماني في رحلته «نجد الشمالي» عام ١٢٨٠هـ/ ١٨٦٤م(١): أما خَيْبَر فهي قرية يقطنها ٢٥٠٠ نسمة، وتتوارى دُورها تحت مزارع النخيل. وهي تنقسم إلى سبعة أحياء يحتل كلٌّ منها واحداً من الوديان السَّبْعَة لجبل الحَرَّة، الذي يضم في هذا الموضع كثيراً من ينابيع الماء البالغ الصفاء. وعلى هذه الوديان تُشرف الصخرة السَّامقة التي تلوح عليها أطلال قصر قديم جداً، يُدعى قصر اليهودي أو قصر اليهود. وسُكَّان خَيْبَر يتألفون من المَغَارِبَة ومن الأحباش الذين هم عقب عبيد وُلْد سليمان والبِدْيَان. وهؤلاء العبيد ظلّوا يقيمون بِخَيْبَر بعدما أباد مرض الجُدري أسيادهم قبل عدة قرون، فعزوا هذا المرض إلى الماء وتركوا القرية لهم؛ لكن دون أن يتنازلوا كلياً عن ملكيتها، فلقد عيّنوا عليهم حق ملكية عذقين من التمر على كل نخلة عند جني الطَّلْع، وتركوا لهم فيما عدا ذلك حرية زراعة المحاصيل الأخرى على حسابهم. اهـ.

وفي أثناء بحوثي وجدت كلاماً لمؤلف مجهول سبق والن وجوارماني فيما ذكراه. فقال هذا المؤلف المجهول في حدود سنة

(١) نجد الشمالي، جوارماني، ص١٢٦.

Scanned with CamScanner

١٢٢٣هـ/ ١٨٠٨م[(١)]: وأما أهل خيبر فساكن البلد عبيد. وأهل ملك البلد بدو. وأما أسماؤهم فالآيْدَا والفَقِيْر. يحضرون إليها بالقيظ. ويخرجون بالشتاء لناحية البرية. وحواليها من المدائن العُلا. وأما خيبر فهي بلد وباء: أوجاع وأسقام، وبلاد نخل. اهـ.

ومن ص٢٢٥ إلى ص٢٢٨ تحدث والن عن بعض القبائل التي تسكن بين خيبر والجوف وتبوك وشمال غرب الجزيرة العربية فقال: **وجميع هذه القبائل من القحطانيين الذين نزحوا عن اليمن، وأخذوا تدريجياً يبعدون العدنانية الإسماعيلية، السكان الأولين في المنطقة، وحلّوا محلهم. إلا أن قبائل عنزة العدنانية بدأت الآن تدفع هؤلاء القحطانية إلى النزوح، بدورهم، دفعة بعد أخرى إلى داخل الجبال وتخوم الصحراء. اهـ.**

هذا حال الدنيا تزاحم وتدافع. لكن ومع وجود هذه النصوص التاريخية التي تؤكد أن عنزة قد دفعت وأجلت بعض القبائل من ديارها؛ لكنها لا تتبجح بذلك في الكتب والمجالس والمنتديات القبلية كما تفعل ذلك بعض القبائل التي تزوّر التاريخ، وتقول إنها قد أجلت عنزة من ديارها؛ بينما لم يذكر ذلك أي مؤلف أو شاعر أو مرجع يعتمد عليه!! فقط هم المصدر والمرجع؟!! بل الذي ذكر بخلاف قولهم!! فإن عنزة الذي أخرجها من ديارها هو الجوع والقحط، ذكر ذلك كبار مؤرخي نَجْد.

وقبيلة عنزة عندما خرجت من بعض ديارها كان خروجها تدريجياً، والمغلوب لا يكون خروجه بهذه الطريقة؛ فضلاً عن هذا أن عنزة لا زالت في بعض ديارها القديمة كخَيْبَر والعُلا ونَجْد. فدعوى أن عنزة قد غلبت

---

(١) كيف كان ظهور شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب، لمؤلف مجهول، تحقيق: د. عبدالله العثيمين، ص١٣٦.

Scanned with CamScanner

على أمرها فهاجرت دعوى باطلة جملة وتفصيلا. نعم غلبهم الجوع والقحط الذي جعلهم يتركون بعض ديارهم، وقد فعل مثل فعلهم الكثير، مثل شَمَّر والظَّفِيْر وبني خالد وبعض حاضرة نَجْد، إذ إن بعضهم لم يرجع إلا في العهد السعودي الأخير، مثل أهل مدينة الزُّبَيْر الذين هم في الأصل من نَجْد كما لا يخفى على القارئ المتابع.

زد على ذلك موقف قبيلة عنزة السياسي من الدولة السعودية الأولى والثانية مما جعلهم يبتعدون عنها، وقد فعل مثل فعلهم قبيلة شَمَّر وقبيلة الظَّفِيْر.

وفي ص٢٣٦ تحدث عن بعض القبائل التي تشبه قبيلة عنزة من حيث اللهجة والملامح الخَلْقِيَّة والخُلُقِيَّة وغير ذلك، فقال: **بنو بلي هم أول قبيلة من هذه البقاع تشبه لهجتها نطق سكان نَجْد، ونطق بدو عنزة الذي يختلف كثيراً عن لهجة المدن ولهجة العرب الأكثر اختلاطاً بسواهم، ذلك أنهم يكثرون التنوين واستعمال بعض الصيغ الصرفية والنحوية والتعابير القديمة، ولا سيما لفظهم القاف والكاف لفظاً غريباً يسميه النحويون بالكشكشة.**

ويقول بنو بلي إنهم اعتنقوا الوهابية مختارين، دليلاً على إيمانهم. وهم يؤدون الزكاة، وبانتظام يقيمون الصلوات الخمس والفرائض والشعائر الخاصة بالمذهب، إلا أنهم فيما عدا ذلك يجهلون تعاليم الإسلام الأساسية جهلاً مطبقاً، ولا يكترثون - مثل سواهم من البدو - بالفقه والشرع الإسلاميين.

يقال إن بني بلي قحطانيون من اليمن. ولكني أرى ملامحهم أقرب إلى بني عنزة وإلى القبائل السورية العدنانية منها إلى الحُوَيْطَات وعرب غربي شبه الجزيرة العربية ومصر. والكثيرون منهم ذوو بشرة فاتحة اللون، وهذا

Scanned with CamScanner

أمر نادر جداً في الصحراء، أظن أنه يقتصر على القبائل الشمالية فقط. ولم تكن هذه الملامح وتلك اللهجة وحدها العامل الذي دفعني إلى التفكير بعنزة، بل دفعتني إلى ذلك ضيافتهم السخية التي تميّز بدو الداخل عن جيرانهم المقيمين عند حافة الصحراء. وتبين لي كذلك أنهم مرحون وعندهم الكثير من حضور الذهن كعرب الشمال البعيدين عن عادات الوهابية الصارمة وعن تقشفهم.

ويقول القلقشندي: بنو بلي بطن من قُضَاعَة من القحطانية. اهـ.

قبيلة عنزة تمثل نقطة التقاء لقبيلة بلي وقبيلة شَمَّر وقبيلة بني خالد، فهذه القبائل الثلاث ترتبط بقبيلة عنزة برابطة المحبة والجوار والنسب، وليس هذا تقليلاً من شأن القبائل الأخرى، لكن هذه القبائل الثلاث هي الأقرب إلى عنزة، حتى أن هذا الرحَّالة قد لاحظ تشابه قبيلة بِلي بقبيلة عنزة من حيث اللهجة والصفات الخَلْقِيَّة والخُلُقِيَّة من كرم ونخوة وشهامة وتمسك بمكارم الأخلاق. كيف لا وقبيلة بِلي قبيلة قُضَاعِيَّة قحطانية عريقة لا شك.

وتحدث والن في ص٢٤٦ عن الدعوة الإصلاحية فقال: **ويذهب فريق من الكُتَّاب العصريين (١٢٦٤هـ/١٨٤٨م) إلى أن الوهابيين قد اعتنقوا المذهب الحنفي. ويروي البعض الآخر أنهم وضعوا مذهبا خاصاً بهم يؤلف طائفة مستقلة. والروايتان لا أساس لهما من الصحة. فالوهابيون مصلحون فقط، ويتبعون المذهب الحنبلي.** اهـ.

وهذه شهادة أخرى من رجل عاصر الدعوة الإصلاحية السلفيَّة، وقال كلمته بكل تجرد ومصداقية. وهذا فيه دليل على متابعة الناس لهذه الدعوة الإصلاحية من البدايات، ولم تخلو هذه المتابعة - غالباً - من الظلم والكذب والشائعات التي نفاها وفنَّدها هذا الرحَّالة نفسه.

Scanned with CamScanner

وتحدث والن في ص٢٤٨ عن مدينة تَيْمَاء وما فيها وما حولها فقال: **إن أكثر البدو المقيمين في جوار تَيْمَاء من قبيلة عنزة. وأعظم بطونها: الفُقَرَا (الافْقَرَا) ووُلْد علي ووُلْد سليمان والبِشْر. ويقيم الفُقَرَا (الافْقَرَا) بين الحِجْر وتبوك وخيبر وتَيْمَاء، وفخذهم الرئيسي بنو وَهَب. ويقيم وُلْد علي ووُلْد سليمان، عادة، في الأجزاء الجنوبية من النفود إلى الشرق من تَيْمَاء. أما البِشْر، والعُوَاجِي فخذهم الرئيس، فمنتشرون في النفود، من هُنا وشرقاً حتى القَصِيْم في الأراضي المغطاة بالحصى التي تلي النفود.** اهـ.

القبائل التي حول تَيْمَاء من عنزة هم: وُلْد سليمان والفُقَرَا (الافْقَرَا) ووُلْد علي. والعُوَاجِي هو بيت الرئاسة في قبيلة وُلْد سليمان.

ويضيف في نفس السياق: **انطلقت مع العُوَاجِي من البِشْر كان راجعاً إلى موطنه، بعد سفره من حائل إلى مصر دليلاً لجماعة تقود عشرين حصاناً لعباس باشا، وعلى بعد ساعة إلى الجنوب من تَيْمَاء مررنا بقمة (غُنَيْم) اليتيمة إلى يميننا ودخلنا بقعة منبسطة اسمها السنانية. وبعد سير طال خمس عشرة ساعة بلا توقف في هذه البقعة، وفي أرض (الخولة) التي هي امتداد لها، أتينا مضارب الفُقَرَا (الافْقَرَا)، وعددها (٢٠٠) خيمة ونيّف نصبت على سفح تلة منعزلة من صخور رملية اسمها جبل (بِرْد)، وكان أكثر سيرنا ليلاً.** اهـ.

عباس باشا الأول بن طوسون بن محمد علي، ثالث الولاة من أسرة محمد علي بمصر. ولد بجُدَّة، حين كان أبوه حاكمها، عام ١٢٢٨هـ/ ١٨١٣م وتولى حكم مصر بعد وفاة عمه إبراهيم في أواخر عام ١٢٦٤هـ/١٨٤٨م، قُتل غيلة عام ١٢٧٠هـ/ ١٨٥٤م رحمه الله.

والعُوَاجِي المذكور هو أحد أفراد الأسرة الكريمة بيت الرئاسة في قبيلة وُلْد سليمان، ذهب معهم كدليل إلى مصر. والقصة باختصار هي: أن

Scanned with CamScanner

الإمام فيصل بن تركي بن عبدالله آل سعود أخذ إلى مصر ووضع تحت الإقامة الجبرية، وفي أثناء وجوده هناك أعجب به الأمير عباس باشا فسعى في إخراجه من مصر وساعده على الهرب، فعاد الإمام فيصل إلى الرياض، ومن باب رد المعروف أرسل مجموعة من الخيل الأصيلة إلى الأمير عباس، فسأل ما الذي يميزها عن غيرها؟! فقالوا: هي أصيلة. قال: وكيف هي أصيلة؟! قالوا: معروفة أنسابها. فأمر بتشكيل لجنة لتسجيل أنساب الخيل العربية الأصيلة، وجلب ما يستطيعون منها إليه.

ذهبت اللجنة إلى الإمام فيصل بن تركي فقدم لهم ما يستطيع تقديمه. وأرسلهم إلى عنزة، وتحديداً إلى سميّه الأمير فيصل بن نايف الشِّعْلان لمعرفته بأنساب الخيل، فجمع لهم الأمير فيصل الشِّعْلان الرُّوَلَة العارفين بأنساب الخيل، وسجّلت اللجنة كل ما حصلوا عليه من معلومات، وأرسل للأمير عباس باشا بعض الخيل كهدية خاصة له، ومنها نشأت العلاقة بينهما.

تروي جامعة كتاب: مخطوطة عباس باشا. أن عباساً قد تشاجر مع عمه إبراهيم باشا حاكم مصر، فسافر إلى بلاد العرب، وبحكم العلاقة التي بينه وبين الأمير فيصل الشِّعْلان؛ فقد حَلَّ ضيفاً عليه لمدة سنتين عام ١٢٦٣هـ/ ١٨٤٧م، وعام ١٢٦٤هـ/ ١٨٤٨م، حتى موت إبراهيم باشا أواخر عام ١٢٦٤هـ حيث تولى عباس الحكم بعد عمه[١].

وعندما ترك عباس باشا الرُّوَلَة عام ١٢٦٤هـ/ ١٨٤٨م وعاد إلى مصر، أخذ معه الشيخ حَمَد بن نايف الشِّعْلان وبعض الرُّوَلَة، فأمضوا هناك في مصر بعض الوقت، لكنهم اشتاقوا إلى الرُّوَلَة، فاستأذنوا من عباس باشا، فأذن لهم بعد أن حملهم بالهدايا، ومنها أحد مواليه،

---

(١) أصول الخيل العربية الحديثة، ص١٩٥، بتصرف.

Scanned with CamScanner

ويدعى مُرْجَان، وهو جد أسرة المرجان الموجودة الآن بالرُّوَلَة. عاد الوفد، فلما وصلوا إلى فلسطين توفي الشيخ حَمَد بن نايف الشَّعْلان، ودفن هناك في حدود عام ١٢٦٦هـ/ ١٨٥٠م رحمه الله.

وقد أرسل عبَّاس باشا الأول ابنه الأمير محمد صدِّيق إلى الرُّوَلَة، ليتولى تربيته الأمير فيصل بن نايف الشَّعْلان، وليتدرب على الفروسية وفنونها، وذلك اقتداء بالأمويين، إلا أنه توفي عندهم في الصيف، في أثناء تواجدهم في بلاد الشام، وعمره لم يتجاوز السنتين، فدفنوه بجوار مسجد مبرك الناقة في بُصْرَى في ٨/ ١٢/ ١٢٧٠هـ الموافق ١/ ٩/ ١٨٥٤م رحمه الله. وقد قام الأمير فيصل الشَّعْلان بدعوة كبار المشايخ ليشهدهم على وفاة الأمير محمد صدِّيق بن عباس باشا الأول، والصلاة عليه، وعمل مضبطة (محضراً) بذلك وقَّع عليه أولئك المشايخ.

وقال والن وفي نفس السياق السابق أيضاً: **قضينا اليوم التالي في خيام الفْقَرَا (الأفْقَرَا). وفي المساء لحقت بنا جماعة كان ابن سُعُود قد أرسلهم في أواخر السنة الماضية في خيل إلى الخديوي عباس باشا وهم الآن في طريق العودة إلى الرياض مقام زعيمهم، ومعهم واحد من عبيد باشا مصر أرسله مولاه لشراء خيول جديدة من نَجْد.** اهـ.

ابن سُعُود: هو الإمام فيصل بن تركي بن عبدالله آل سعود. كما مر معنا.

Scanned with CamScanner

نَجْد الشمالي
رحلة من القُدْس إلى عُنَيْزَة في القَصِيم
١٢٨٠هـ/١٨٦٤م



ترجمة وتعليق: د. أحمد ايبش.

الناشر: هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

عدد الصفحات: ١٦٠ صفحة.

الرحَّالة والرحلة(١):

ولد كارلو كلاوديو كامّيلو جوارماني في ليفورنو بشمال إيطاليا، عام ١٢٤٤هـ/ ١٨٢٨م. كان والده يعمل في التأمين والشحن، ثم تعاطى تجارة الحرير، وبعد خسارته في التجارة قرر الهجرة إلى المشرق، فاختار بيروت التي كانت من أهم المراكز التجارية البحرية في شرقي البحر الأبيض المتوسط إبَّان فترة عهد «التنظيمات الخيرية العثمانية»، عام ١٢٦٦هـ/ ١٨٥٠م.

في بيروت اشتغل كارلو بالتجارة؛ لكنها لم تلائمة، فحصل على وظيفة ممثل للبريد الإمبراطوري الفرنسي في القدس. ومن موقعه

---

(١) منقول من كلام المترجم بتصرف واختصار.

الجديد هذا بدأ رحلاته في بوادي بلاد الشام، وركَّز جهوده على دراسة سلائل الخيل العربية الأصيلة واشتغل بتجارتها. ويخبرنا بنفسه عن قيامه برحلة إلى الجوف عام ١٢٦٧هـ/ ١٨٥١م، وكان عمره آنذاك ٢٣ سنة. كما يروي عن معرفته الوثيقة بأغلب شيوخ البدو في بَرِّ الشام والحَمَاد ونواحي الأردن، وبأن نَجْداً بقيت في باله حلماً بعيد المنال.

قاده هذا الاهتمام إلى إجادة اللغة العربية، وإلى التكيّف مع حياة البادية، والتمرّس المباشر بالعادات والتقاليد البدوية، ومعرفة اللهجات المحلية للعشائر المنتشرة في شمالي جزيرة العرب. ولم يجد في ذلك صعوبة، خاصة أن بشرته الإيطالية الزيتونية مكّنته من الاختلاط مع العرب، وأفادته إقامته المطوَّلة في القدس بالتأقلم التام مع العربية وأهلها.

أسفرت هذه الخِبرَات عن تأليفه لكتاب نفيس في معرفة أرسان الخيل العربية، سَمَّاه: (الخمسة Al Kamsa) نسبة إلى الأرسان الخمسة الأساسية لخيل جزيرة العرب: الكحايل، الصَّقْلاوِيَّات، الحَمْدَانِيَّات، العُبَيَّات، الهُدْب. وإن كان هذا العدد غير دقيق، حيث إن هناك الخيل الشُّوَيْمَات والقِدْرَانِيَّات، نسبة لابن قِدْرَان من الفْرِجَة (الافْرِجَة) من الرُّوَلَة، وهُنَّ من السلالات الأصيلة المعروفة. تمَّ نشر الكتاب في بولونيا بإيطاليا عام ١٢٨٠هـ/ ١٨٦٤م.

وأهدى جوارماني كتابه إلى ملك إيطاليا فيكتور عمانوئيل الثاني؛ لكن قبيل نشر الكتاب، استدعاه إلى فرنسا في سبتمبر من عام ١٢٨٠هـ/ ١٨٦٣م وزير الزراعة بغرض مهمة شراء خيول لإمبراطور فرنسا نابليون الثالث، ومن باريس استدعي إلى تورينو في مهمة مماثلة. ثم في ديسمبر عاد إلى فلسطين مُكلَّفاً بشراء جِيَاد فحول لصالح الحكومتين

الفرنسية والإيطالية، فاستيقظ في ذهنه حلمه القديم بزيارة نَجْد، موئل عشائر العرب ومهد خيلها.

انطلق من القدس في ٢٦ يناير من شتاء عام ١٢٨٠هـ/ ١٨٦٤م ومعه خادمه محمد الجزّيني، فحلَّ ضيفاً على بعض عشائر فلسطين: التَّعامرة والكعابنة وبني حَميدة، ثم عبر نهر الأردن إلى وادي زرقاء معين، وتابع إلى الحماد القبلي ديرة بني صَخْر، فزارهم بالقليطة وتزوَّد منهم برسائل توصية إلى شيوخ نَجْد، وأخذ منهم دليلاً، وهو الدَّرَيْبِي، كان له عوناً كبيراً وبطلاً ثانياً في رحلته هذه. كما التقى بالشيخ طلال بن فيصل الشِّعْلان الذي زوَّده برسائل أنقذت حياته.

تجوَّل جوارماني في شمال الجزيرة العربية وفي وادي السِّرْحَان والجوف وتَيْمَاء وحائل وخَيْبَر والعُلا وعُنَيْزَة. والذي لفت انتباه جوارماني جودة سوق عُنَيْزَة، التي تعد المركز الرئيس لتصدير خيل نَجْد إلى الكويت، ومنها إلى بومباي بالهند.

وفي أثناء ترحاله هذا قابل بعض الأمراء والمشايخ، ومنهم:

- الشيخ طلال بن فيصل الشِّعْلان الذي أعطاه رسالة توصية.
- الشيخ فَنْدِي الفايز أحد مشايخ قبيلة بني صَخْر الكبار. وأعطاه رسالة توصية مماثلة لرسالة الشيخ طلال الشِّعْلان.
- الشيخ سليم اللحاوي أحد مشايخ الشَّرَارَات الكبار. الذي استضافهم.
- الأمير عبد الكريم الرُّمَّان أمير تَيْمَاء. الذي استضافه ومنحه رسالة توصية موجهة لأمير حائل الأمير طلال الرشيد.
- اليِدْيَان مشايخ وُلْد علي من عنزة في الحجاز. الذين رحبوا به واستضافوه مع توجّسهم منه.

- الأمير عبدالله بن الإمام فيصل بن تركي آل سعود، الذي أتهمه بالتجسس لصالح تركيا.

- الأمير زامل السَّليم أمير مدينة عُنَيْزَة.

- الأمير بَنْدَر بن طلال الرشيد. الذي استقبله بترحاب ولطف. واصطحبه معه لمقابلة والده الأمير طلال بن رشيد وعمه الأمير عُبَيْد.

- الشيخ سلطان بن ربيعان أحد مشايخ عُتَيْبَة الكبار. الذي كان في حالة حرب مع الأمير عبدالله بن الإمام فيصل بن تركي آل سعود. فدخل جوارماني في معسكر عُتَيْبَة التي انتصرت في هذه الحرب، فباعوه أربعة جِيَاد أصيلة.

بعد مغامرة مثيرة - كادت أن تكون مميتة - بديار قبيلة الرُّوَلَة في وادي السِّرْحَان، عاد جوارماني أدراجه إلى حوران جنوبي الشام بغير الطريق الذي جاء منه، ومعه ثلاثة جِيَاد من أصل أربعة، حيث أصيب أحدها في المغامرة المذكورة. ومن حوران توجه إلى دمشق التي أرسل منها الجِيَاد المذكورة إلى أوروبا بحراً عبر بيروت، أما هو فقد رجع إلى القدس ليتابع حياته الاعتيادية فيها. وهكذا، لم تدم رحلته الشائقة في نَجْد الشمالي غير ٤ أشهر: من ٢٦ يناير إلى بُعيد ٢٢ مايو ١٨٦٤م.

أما أسلوبه الحيّ في وصفه لطبيعة البلاد والأحداث، ولقائه بالناس من شيوخ وأمراء وبسطاء، في تَيْمَاء والجوف وعُنَيْزَة وبُرَيْدَة وحائل وخَيْبَر، وتفاعله الإنساني معهم، وإغفاله لذاته ولعقدة التفوق الأوروبي، فأمرٌ وصل فيه صاحبنا الإيطالي إلى الذروة دون ريب.

أخيراً عاد كارلو جوارماني إلى إيطاليا، فأقام مع زوجته وابنتيه: سُليمى Zulima وإلفيرا Elvira في جنوة، حيث أضحى تاجراً معروفاً مُوسراً، وتوفي فيها عام ١٣٠٢هـ/ ١٨٨٤م وعمره ٥٦ عاماً.

Scanned with CamScanner

قبيلة عنزة
في رحلة جوارماني



تحدث جوارماني في ص٣١ ممتدحاً القبائل العربية في أهم خصلة من خصال الخير ومكارم الأخلاق، وهي الكرم والجود والعطاء فقال: **مهما بلغ فقر البدوي، عليك أن تبقى على كامل اليقين بأنك عندما تدخل بيته لا يمكن أبداً أن تمضي الليلة دون أن تتعشّى. وفي العشائر الصغيرة والفقيرة يتم استقبال الضيوف على الدوام في بيت شَعْر مُضاف إلى البيوت، وتتناوب على الإنفاق عليه في كل يوم أسرة مختلفة. أما لدى العشائر الكبيرة، فرغم أن في كل منزل للمضارب بيت للضيوف، فإن كثيراً من العرب من أجل نشر صيت لهم بفضيلة الكرم لا يتركون لأي عابر سبيل فرصة الاقتراب من هذا البيت المخصص للضيافة؛ بل يأخذونه حتى بالقوة إلى بيوتهم.** اهـ.

وفي أثناء وجود جوارماني عند الشيخ فَنْدِي الفايز أحد كبار مشايخ بني صَخْر، طلب منه ومن الشيخ طلال بن فيصل الشّعْلان رسائل توصية كجواز عبور في المناطق التي عزم على الرحيل إليها. قال جوارماني حول هذا في ص٣٧: **ألجأني توخّي الحذر إلى أن أطلب من الشيخ فَنْدِي الفايز رسالة توصية موجهة إلى جميع شيوخ العشائر الصديقة والحليفة لبني صَخْر. كما أرسل لي الشيخ طلال بن فيصل الشّعْلان رسالة أخرى**

بواسطة رجل من عشيرة عُتَيْبَة مُستجير (بالرُّوَلَة)، موجهة للشيخ سلطان بن رُبَيْعَان شيخ العُتَيْبَة الرُّوْقَة في أواسط جزيرة العرب، وهما شيخان مستقلّان ويشتهران بسطوة غزواتهما على أراضي أمراء نَجْد وعلى عشائر البدو التي تخضع لهم وتدفع الجِزْيَة. وفي رسالة الشيخ فَنْدِي الفايز جرت الإشارة إليّ باسم: خليل آغا، على اعتباري موفداً من الحكومة العثمانية، مكلفاً بشراء الخيل في البادية. اهـ.

الجِزْيَة: الجِزْيَة: ضريبة مالية، يأخذها الحاكم المسلم، أو من ينوب عنه، في نهاية السنة، من الذكور البالغين، من رعايا الدولة الإسلامية، من غير المسلمين، ممن فتحت بلادهم عنوة، ومقدارها دينار ذهبًا، أو ما يعادل ذلك من الفضة، ويجوز أخذ الزيادة بحسب اجتهاد الحاكم، وتسقط عن غير القادرين؛ وذلك مقابل حمايتهم والذود عنهم، وتمتعهم بكامل حقوق المواطنة، والتي يضمنها الإسلام ويؤكدها. أما أهل الصلح فيؤخذ منهم ما صالحوا عليه، وبإسلامهم تسقط عنهم كافة. وحكم الجِزْيَة أنها تصرف في المصالح العامة[١].

أما التي يذكرها جوارماني فهي ضرائب عينية أو نقدية يأخذها الحُكَّام ومشايخ القبائل من رعاياهم أو من تصل أيديهم إليه تحت مسمى: الزكاة، الخُوَّة، الوَدِي. وكل نوع له سببه وطريقة تحصيله.

الزكاة: وهي الزكاة الشرعية وتفصيلاتها في الفقه الإسلامي معروفة.

الخُوَّة أو الخَاوَة: من الإخاء، وهي ضريبة نقدية أو عينية يأخذها القوي من بعض المدن والقرى، وبعض القبائل والعشائر، مقابل حمايتهم والذود عنهم.

(١) انظر: منهاج المسلم، أبو بكر الجزائري، ص٤٥٦.

Scanned with CamScanner

الوَدِي: وهي ضريبة نقدية أو عينية يأخذها الأمير أو الشيخ من جميع رعاياه.

وفي ص٣٨ تحدث جوارماني عن قصة مقتل الأمير فيصل بن نايف الشِّعْلان فقال: **كان طلال بن فيصل الشِّعْلان منذ عدة أيام نازلاً ضيفاً على الشيوخ من آل الفايز. وكان أبوه فيصل الشِّعْلان قد قضى نحبه منذ بُرهة قليلة جرَّاء شُرعة الثأر، إذ كان قتل واحداً من رَبعِه من آل المشهور، وراحت أسرة القتيل بأسرها تتعقب خُطاه منذ وقت طويل، إلى أن فاجأته في بيت شَعْره الذي بناه بغير احتراس بعيداً عن مضارب عشيرته. ويحكى أن فيصلاً، الذي يشتهر صيته كواحد من أجسر المحاربين الذين يتناقل مآثرهم البدو، لما لاح له الخطر المحدق به لم تتغيَّر رباطة جأشه قيد شعرة، ورغم أنه لم يلحق أن يلبس درعه، فقد وثب إلى القتال وثباً، وبضربة واحدة من سيفه قَدَّ درع أول من صادفه وكتفه، وكان ذاك واحداً آخر من آله هو الشيخ عَتَّاب؛ ولكنه أصيب بطلقة من مسدس، ولما حاول القيام والدفاع عن نفسه، عاجله الشيخ نهار المشهور - أخو القتيل الأول - بضربة من سيفه على جبهته أطاحت بدماغه. ويُحكى أن نهاراً المشهور تلطَّخ وجهه بدم عدوه.** اهـ.

قُتل الأمير فيصل بن نايف الشِّعْلان على يد أبناء عمه آل مَشْهُور من الشِّعْلان، قتله نهار المَشْهُور الشِّعْلان في ٥/ ٨/ ١٢٨٠هـ الموافق ١٤/ ١/ ١٨٦٤م. رحمه الله[١]. وقتلوا مع الأمير فيصل ابن أخيه فَوَّاز بن حَمَد بن نايف الشِّعْلان، وكان يتواجد في هذا الوقت - للأسف - ابن جَنْدَل شيخ عشيرة السُّوَالِمَة، وشيخ رابع لا أعرف اسمه، فقتلوهما

---

(١) انظر: أخلاق الرُّوَلَة وعاداتهم، موسيل، ص٧٣. وعشائر الشام، أحمد وصفي زكريا، ص٣٧٠.

Scanned with CamScanner

أيضاً، في موضع يقال له: عَظمَان[١]، بالقرب من مدينة طُرَيْف الآن، ودفنوا هناك رحمهم الله جميعاً. وذلك أَخْذًا بثأر بَرْجَس بن صَحَن بن الدَّرَيْعِي بن مَشْهُور الشّعْلان، الذي قتله فَوَّاز بن حَمَد بن نايف الشّعْلان غيلة وهو نائم، وطمعاً أيضاً في الإمارة، حيث قام المَشْهُور بأخذ المركب (العُطْفَة) وهو رمز الإمارة عند الشّعْلان، وانتخبوا من بينهم حُمُود بن حسين المَشْهُور الشّعْلان أميراً على قبيلة الرُّوَلَة. والرُّوَلَة عندما يكون الخلاف بين الشّعْلان أنفسهم فإنهم يلتزمون الحياد، ومن يفرض نفسه من الشّعْلان يتبعونه، فالولاء من الرُّوَلَة للأسرة الحاكمة الشّعْلانية منقطع النظير ولا يزال.

وأعقب الأمير فيصل طلالاً، وذريته يعرفون بالطلال. وقد حاول الشيخ طلال بن فيصل أن يكون الحاكم بعد والده؛ لكن الذي يظهر من الأحداث أن النايف بعد أن استردوا المَرْكَب (العُطْفَة)، وهو رمز الإمارة، وذلك بمساعدة الشيخ الفارس سَاجِر الرَّفِدِي، قد اتفقوا على الأمير هَزَّاع بن نايف، وهو كبيرهم في ذلك الوقت. ويساعده في تسيير دفَّة الحكم ابن أخيه سَطَّام بن حَمَد الشّعْلان، والذي تولى الإمارة بعد وفاة عمه الأمير هَزَّاع.

أما الشيخ طلال فقد رحل ومعه قرابة ثلاث مئة بيت ممن يؤيدونه من الرُّوَلَة، وكانت نهايته في معركة مع قبيلة وُلْد علي من عَنَزَة فيما بعد عام ١٢٩٥هـ/ ١٨٧٨م رحمه الله.

وفي ص٥٠ قال جوارماني: **في يوم ١٣ فبراير غادرت تَيْمَاء بصحبة بدوي من الأيدان (البِدْيَان) وتركت هناك محمداً والدَّرَيْبِي مع المال، على اعتبار أنني لم أرغب بالتعرّض للخطر في بلاد ما تزال بالنسبة لي مجهولة**

---

(١) عَظمَان: موضع يقع غرب مدينة طُرَيْف في شمال السعودية.

Scanned with CamScanner

تماماً. كنت أنوي التجوال في المراعي المعتادة قديماً لبني طيّ، ثم أجتاز بعد ذلك جبل الحَرَّة لأصل إلى قبيلة عُتَيْبَة Ehtebe، التي يسميها سكان الحجاز: Eteibe، وأخيراً أدخل نَجْدَاً عبر القَصِيْم.

وخلال ثلاثة أيام، قام دليلي بالتوجه صوب الجنوب الشرقي بجنوب، فأوصلني مباشرة إلى مضارب شيخه رِجَا[١] الاَيْدَا Raja Aleida، على طريق خَيْبَر Keibar، في وسط الصخور الشمالية للحَرَّة، في موقع يبعد بضعة دقائق شرقاً عن خبرات الماء الطبيعية الهائلة.

وعلى بعد مسيرة يوم - حسب تعبير البدو - من مضارب رِجَا الاَيْدَا، تقع خَيْبَر بسبب وعورة الطريق. وهي تبعد كذلك عن تَيْمَاء بحوالي ١٠ - ١٢ ساعة أكثر مما تبعد تبوك عن تَيْمَاء، حيث يعتاد أهالي تَيْمَاء على الذهاب دوماً عبر ثلاثة أيام في موسم مرور قافلة الحج إلى مكة.

استقبلني الشيخ رِجَا، وهو ابن أخ واحد من أشدِّ خصوم الوهابيين شوكة وقوة، بشكل جعلني للمرة الأولى أشعر بأنني أُجَابَه بعدم التصديق لحقيقة مهمتي على أنها تتعلق بالخيل، وبأنني اعتُبرتُ جاسوساً لصالح الباب العالي. على ذلك، راح الشيخ يُجيب على جميع اسئلتي المتعلِّقة بالخيل وفق اعتبارات سياسية. وجعلني الإطناب اللامُتناهي من امتعاضه من سلوك أمراء نَجْد، وتفاصيله المتناهية في الإسهاب حول ابتزازهم وغِناهم، أتيقَّن كم كان يعاني من البقاء تحت نفوذهم، وبأن قبيلته كانت لتقاتلهم عن طيب خاطر، لولا أنها تخشى أن تُلفي نفسها وحيدة في هذا الصراع.

مكثت في خيمته ثلاثة أيام، إذ لزم بعض الوقت لإرسال خبر لإحضار

---

(١) رجا: من الرجاء، بتفخيم حرف الراء وكسرها، وفتح الجيم.

Scanned with CamScanner

الجِيَاد الفحول إليّ، والتي راح يقول بأنها الأكثر شهرة في قبيلته. وهو لم يكن ليتوانى عن عرض هذه الجِيَاد عليّ في أماكنها؛ ولكنها مشتتة في أماكن عدة من ديرته. لكنني لم أجد في أشكال هذه الجِياد ما كنت أتوقَّع العثور عليه في موطن زيد الخيل، عملاق بني Ghant من بني طَيّ، ولذا ففي يوم ١٩ رحلت إلى جوف وُلْد سليمان.

وبدلاً من المضيّ في خط مستقيم، رحتُ أتوجه تارة نحو اليمين وطوراً نحو اليسار، متجولاً بشكل مُتَعَرِّج ما بين مراعي الجبل أو مراعي الحَرَّة. فتوصّلتُ - عن طريق المصادفة - في المواضع التي كانت تمر بها أجمل رؤوس خيل البِدْيَان والوُلْد سليمان، بأن خيل البِدْيَان قد تمَّت مواراتها جيداً عن أنظاري، وكنت متأكداً تماماً بأن الوُلْد سليمان لم يكونوا على قدر وافٍ من التعاون. ولمَّا ظهر دليلي بمظهر كما لو أنني كنت خبيراً تماماً بمكر البدو، بما لا يمكن معه خداعي بسهولة، ولرغبته بالمكافأة التي وعدته بها، فقد قرر أن يكون معي صادقاً ومخلصاً.

لقد فضلنا النوم في الهواء الطلق في المراعي، على أن نأوي إلى المضارب الموصدة في السهول. فتحتْ الخيمة يكون بوسعنا توخّي الحذر، وتحت السماء المرصَّعة بالنجوم ينفتح القلب بسهولة ويُسر. ثم أن الرعاة إن كانوا عبيداً فليس لديهم موجب للأنانية، وإن كانوا أحراراً فهم لا ينتمون دوماً إلى القبيلة ولا يعدّون أنفسهم أمناء على أسرارها.

طوال مكوثنا مرتحلين في ديرة الأيدان Aleidan (البِدْيَان)، لم تسفر أبحاثنا عن أيَّة نتائج مفيدة على الإطلاق. ولقد تمكنت من رؤية جِيَاد جميلة جداً - ولو بأعداد قليلة - لكنها ليست من الصنف الذي يلزمني، ولا هي من النوع الذي يحوز الإعجاب في أوروبا. فلقد كانت واطئة القامة إلى حد كبير. وبما أنه لم يكن هناك كبير ثقة بترجيح السّلالة الصافية على جميع

Scanned with CamScanner

الصفات الأخرى، ومن جهة أخرى لرغبتي بعدم الانحياز كُليّاً إلى رأيي الشخصي، فلقد اضطررتُ بأن ألتزم حدود التعليمات المعطاة إليّ.

كُنّا غالباً ما يُتعمَّد إيقاعنا بالمغالطات من قبل الوُلْد سليمان، حيث إن دليلي لم يكن يعرف جيداً سوى زملائه. ولكن الصبر والتعقل اللذين أبديناهما ونحن ننظر بإعجاب ظاهري إلى الأفراس في المضارب، مكنانا من العثور على طريقة لاكتشاف أفرَه الخيول في المراعي المنتقاه. اهـ.

وعندما وصل جوارماني إلى موضع يُسَمَّى جوف وُلْد سليمان من عنزة قال في ص٥٢: **كان (العُوَاجِي) شيخ عشيرة الوُلْد سليمان قد استدعي إلى حائل. ولمَّا لم أكن أودّ انتظار عودته، فلقد رجعتُ إلى الأيدان (البِدْيَان)، فقطعتُ مباشرة في ثلاثة أيام الطريق الذي كنتُ فيه مُسبقاً خلال سبعة أيام.** اهـ.

وفي أثناء وجود جوارماني مع قبيلة عُتَيْبَة باحثاً عن الخيل الأصيلة، حدثت معركة بينهم وبين الأمير عبدالله بن الإمام فيصل بن تركي آل سعود في شهر شوال ١٢٨٠هـ/ مارس ١٨٦٤م، فمنع شيوخ عُتَيْبَة جوارماني من الاشتراك معهم في هذه المعركة، وأوكلوا به من يحرسه حتى لا يلحقه الأذى، وهذا من شيم ونبل قبيلة عُتَيْبَة تجاه الضيوف والغرباء. شاهد جوارماني المعركة كاملة ووصفها لنا، والتي أسفرت عن انتصار قبيلة عُتَيْبَة.

في هذه المعركة كان جوارماني صادقاً في وصفه فلم يحاول أن يختلق بطولة لنفسه كما يفعل بعض الرحَّالة؛ بل عرض الصورة الحقيقية لحاله؛ لذلك سوف أنقل النص كاملاً؛ حتى يعرف القارئ الكريم أن بعض الرحَّالة صادق في وصفه ونقله، والحكمة ضالة المؤمن أنَّى وجدها أخذها وهو أحق الناس بها. قال جوارماني في ص٥٧: **في يوم**

Scanned with CamScanner

١٣ مارس، ركب بنو قحطان خيولهم إلى مرمى بنادق رجالنا، ورفضوا التراجع والهزيمة إطلاقاً. وفي يوم ١٤ قام الأمير عبدالله بمهاجمتنا من جميع الجهات، فتمَّ صدّه بنجاح كبير. وفي يوم ١٥ عاود الهجوم تحت قيادته شخصياً، بقواته أجمع البالغة حوالي ١٠٠٠٠ رجل، ولم ينسحب إلا بعد غروب الشمس بساعتين، دون أن يتمكن من زحزحتنا عن عشّ النسور الذي نتمركز فيه، ولا من كسر خيَّالتنا الشجعان.

وحوالي منتصف الليل، ارتجّت الأرض بصيحة حرب عُتَيْبَة في مضاربهم. وامتطى الشيخ سلطان بن رُبَيْعَان، الشيخ العام للرُّوْقَة، مع ٤٠٠ خيَّال و ٥٠٠٠ بواردي، متن هجنهم، فباغتوا النجديين وأوقعوا في صفوفهم مذبحة مروعة. ولم تتوان قواتنا عن الإسراع إلى ميدان المعركة وزادت في شدة القتال ضراماً.

استمرت المعركة حتى الصباح، وما كان من بني قحطان الذين أدّوا دورهم إلا أن بادروا أول الناس إلى الانسحاب وتخلّوا عن الأمير عبدالله، الذي قام بالانسحاب إلى القَصِيْم، دون أن يتبع فلوله أحد. أما الشيخان الظافران سلطان بن رُبَيْعَان ومِبْرِك، فقد تبادلا القُبل في ساحة الوغى.

في هذا الوصف الوارد أعلاه، كان بمقدوري أن اضع نفسي في حَومة الأحداث كأحد أبطال ثربانتِس[1] Cervantes، وأدَّعي لنفسي المجد أو السفاهة حسب ما يستنتجه من يقرأ كتابي هذا، ولكنني آثرت على ذلك هوى عقيماً هو هوى العلم والحقيقة المُجرَّدة.

---

(١) يعني بهذا رواية: دون كيخوته دي لامنتشا Don Quixote de la Mancha المعروفة لأشهر أدباء إسبانيا ميغيل دي ثربانتِس سابيدرا Migel de Cervantes Saavedra [المحقق].

على ذلك، فإنني أقرُّ بأنه في خلال جميع المعارك التي خاضتها عشيرة الشيخ مِبْرِك الباسلة، كان موقعي ضمن الملجأ الأكثر عمقاً واحتجاباً ضمن الوهدة، حيث ألفيت نفسي بين الجرحى والنساء والمتاع، وهذا ما مكنني بين الفينة والأخرى من التجوّل ما بين جِياد الرجال الذين لم يكونوا مشاركين في القتال. كانت هذه الجِياد مشكولة في الأجَمات بقيود، وكانت أمامي الفرصة سانحة لدراستها. ولم تُقلقني الرصاصات التي كانت تُصَفِّر فوق رأسي، وترتدُّ على الصخور المحيطة بنا وتعود لتسقط خامدة عند قدمي.

كانت هذه الدراسة في الواقع ذات أهمية قصوى؛ لأن خيول قبيلة عُتَيْبَة هي أقوى الخيول التي تجول بأكناف البوادي. وكانت في بعض الأحيان تصرف تركيزي أنَّات الجرحى الذين يأتون لتلقّي بعض العون، وبصيحات النساء اللواتي يستقبلنهم بفورة الفرح. وكُنَّ ينخينهم للعودة إلى القتال إن أمكنهم ذلك، عندما كان الذّرور والرَّماد بفيان بإيقاف الدم النَّازف من جراحهم، وبعدما كُنَّ يُضمِّدنَّ الجراح بالعصائب.

لقد بدت نساء قبيلة عُتَيْبَة جديرات حقاً بمنافسة بطلات حِمْيَر في الماضي الغابر. اهـ.

كما ترى أخي القارئ الكريم، فقد فضَّلتُ نقل المقطع كاملاً؛ حتى تعرف أن الكثير من الرحَّالة صادق في وصفه ورواياته، ولهم الفضل بعد الله في حفظ الكثير من تاريخنا، خاصة الثلاثة قرون الأخيرة، التي تعتبر الفترة التاريخية الغامضة من تاريخ الجزيرة العربية والقبائل بشكل عام. لذلك كتابات هؤلاء الرحَّالة تعتبر مادة علمية تاريخية لا يستغني عنها الباحث في أحوال ذلك الزمان وذلك المكان. طبعاً، هذا لا يمنع من التمحيص والتدقيق.

Scanned with CamScanner

وفي اليوم التالي لانتصار قبيلة عُتَيْبَة اشترى منهم ثلاثة جِيَاد بمئة بعير كانت تمثل ثلث قيمتها إلا أن الشيخ سلطان بن رُبَيْعَان لم يفاوضه في السعر بسبب التوصيات التي كان يحملها معه من شيوخ قبيلة بني صَخْر ومن ذلك العُتَيْبِي المستجير بقبيلة الرُّوَلَة. قال جوارماني في ص٥٩: **وكان حصولي عليها بهذا الثمن الزهيد بفضل التوصية التي أحملها من شيوخ الصّخور وشيوخ عشيرة عُتَيْبَة المستجيرين الذين تعرفت عليهم عن طريق الشيخ طلال بن فيصل الشّعْلان، وبشكل ما بفضل مكانة الشيخ مِبْرِك الذي كان يرغب بترحيلي بأسرع ما يمكن، مخافة أن يقع لي مكروه. اهـ.**

وعند اقتسام الغنائم، حصل خلاف بين شيوخ قبيلة عُتَيْبَة على جواد كُميت مشقرّ له نجمة على جبهته ومُحجَّل القائمتين الخلفيتين، فقام الشيخ مِبْرِك بتهدأتهم، وأقنعهم بأن يعطوه جوارماني؛ لأنه شارك في العناية بالجرحى، وهذا نصيبه من غنائم هذه المعركة، فاقتنعوا وأعطوه الجواد.

وفي ص٦٠ تحدث جوارماني عن الخلافات بين القبائل في نَجْد والحجاز وعن الرايات التي تجتمع عليها الناس. فقال: **وهنا أقول راية واحدة ولا أقول: عُطْفَة ootfe، إذ أنني حتى الآن لم أجد هذه العبارة مستخدمة في نَجْد. وفي بر الشام لا تستخدم إلا لدى ضَنَا بِشْر التابعين للأمير ابن هَذَّال، والرُّوَلَة التابعين للشّعْلان. اهـ.**

العُطْفَة: هو مركب تركبه إحدى بنات شيوخ القبيلة؛ لتشجيع قومها على القتال والاستماتة في الدفاع عنها، ولا يستخدم إلا في المعارك الكبيرة. وكما هو معروف عند البادية فإن من يفقد عُطفته عليه أن يحصل على مثلها من الخصوم لا أن يصنعها، والجدير بالذكر أن قبيلة الرُّوَلَة هي القبيلة الوحيدة التي لم تفقد عُطْفَتَهَا على مدى تاريخها، وهي موجودة عند أمراء الرُّوَلَة آل شعلان لمن أراد أن يُنظر إليها.

Scanned with CamScanner

وفي نهاية هذه الرحلة الماتعة ١٤/ ١٢/ ١٢٨٠هـ الموافق ٢٠/ ٥/ ١٨٦٤م، وفي وادي السِّرْحَان، تعرضت القافلة التي كان فيها جوارماني لغارة من قبل بعض الرُّوَلَة وبعض الشَّرَارَات بقيادة حَمَد بن بْنَيَّة الشّعْلان، وبعد معركة سريعة بين الطرفين أخذهم حَمَد بن بْنَيَّة، إلا أن جوارماني وبعض من معه استطاعوا الهرب، بعد أن فقد حصاناً من الأربعة التي اشتراها من قبيلة عُتَيْبَة، إلى أن وصلوا قُرَيَّات الملح، ومن قرية كَاف ذهب إلى حوران، مُنهياً بذلك رحلته التي استمرت حوالي أربعة أشهر.

انتهت الرحلة، إلا أن جوارماني ألحق بها ملحوظات ومعلومات جغرافية للمسافرين إلى نَجْد الشمالي، ومنها قال في ص١٢٦: **أما خَيْبَر فهي قرية يقطنها ٢٥٠٠ نسمة، وتتوارى دُورها تحت مزارع النخيل. وهي تنقسم إلى سبعة أحياء يحتل كلٌّ منها واحداً من الوديان السَّبْعَة لجبل الحَرَّة، الذي يضم في هذا الموضع كثيراً من ينابيع الماء البالغ الصفاء. وعلى هذه الوديان تُشرف الصخرة السَّامقة التي تلوح عليها أطلال قصر قديم جداً، يُدعى قصر اليهودي أو قصر اليهود. وسُكَّان خَيْبَر يتألفون من المَغَارِبَة ومن الأحباش الذين هم عقب عبيد وُلْد سليمان والبِدْيَان. وهؤلاء العبيد ظلّوا يقيمون بِخَيْبَر بعدما أباد مرض الجُدري أسيادهم قبل عدة قرون، فعزوا هذا المرض إلى الماء وتركوا القرية لهم؛ لكن دون أن يتنازلوا كلياً عن ملكيتها، فلقد عيّنوا عليهم حق ملكية عذقين من التمر على كل نخلة عند جني الطَّلْع، وتركوا لهم فيما عدا ذلك حرية زراعة المحاصيل الأخرى على حسابهم.**

وفي كل عام، يقترب وُلْد سليمان والبِدْيَان من خَيْبَر دون أن يدخلوها، إذ يعتقدون أنَّ ماءها يبقى قتَّالاً لا محالة، فيجلب لهم السكان المَغَارِبَة التمور التي تعود عليهم وعلى الجِزْيَة بمبلغ ٢٠٠٠ ريال مجيدي (٩٣٢٠ فرنك فرنسي)، التي يتعيَّن عليهم أن يدفعوها لطلال بن رشيد، وهذه الجِزْيَة الوحيدة التي يترتب عليهم دفعها.

Scanned with CamScanner

وجميع سُكَّان خَيْبَر مسلمون وذوو نفوس طيبة. ومن الخطأ حقاً الظن بأن اليهود كانوا في القرن الثامن عشر يقطنون خَيْبَر. اهـ.

ليست خيبر فقط لوُلْد سليمان والبِدْيَان شيوخ وُلْد علي، إنما تشترك معهم قبيلة الفُقَرَا (الافْقَرَا) والشِّمْلان والبَجَايْدَة والكل من عنزة. وهذه القبائل الخمسة هي الأكثر تملكاً في خَيْبَر بعد رحيل قبائل عنزة وانتشارهم في أرض الله الواسعة.

والجِزْيَة المذكورة المقصود بها الزكاة الشرعية، وتؤديها بعض قبائل عنزة في ذلك الوقت إلى حاكم الجبل طلال بن رشيد، وهو وبدوره يرسلها إلى الحاكم العام الإمام فيصل بن تركي آل سعود.

وفي ص١٤٠ ذكر جوارماني آبار الشَّقِيْق، وأن الذي حفرها هم الرُّوَلَة من عنزة، وأن الأمير طلال بن رشيد قام بردم هذه الآبار حتى يوقف هجمات الرُّوَلَة على حدوده الشمالية.

وفي ص١٤٣ قال جوارماني: **في مطلع القرن التاسع عشر، كان يحكم الجوف أمراء ينحدرون من أسرة (بني سَـرَّاح) من قرى وادي السِّرْحَان المستقلة التي تدفع الخُوَّة للرُّوَلَة. وفي عام ١٢٦٩هـ/ ١٨٥٣م حاصـر طلال بن رشيد الجوف واستولى عليه برغم المقاومة الباسلة التي دامت عشرين عاماً. وتَمَّ أسر أميره حَطَّاب بن سَرَّاح وإيداعه السجن، وما زال إلى الآن يعيش في سجون قصر حائل، أما أبناؤه فقد عادوا إلى وادي السِّرْحَان وعمَّروا فيه قرية الوَشْوَاش Uschevasc، بالقرب من إِثْرَة Etere والأخضر Ekder، إلى الشمال الغربي من الأولى، وإلى الشرق من الثانية. اهـ.**

آل سَرَّاح: حُكَّام دُوْمَة الجَنْدَل في منتصف القرن ١٣ الهجري، غدر بهم الأمير عبيد بن علي بن رشيد عندما غزا الجوف باسم الدولة السعودية

Scanned with CamScanner

الثانية، فلم يقدر على اقتحام دُوْمَة الجَنْدَل؛ وذلك لشجاعة أهلها وجودة تحصينها، فتصالح مع حَطَّاب وابنه غالب السَّرَّاح؛ لكنه غدر بهم، وأخذهم معه إلى حائل، ووضعهم في السجن، وكان غالب بن حَطَّاب السَّرَّاح قد حذر والده من ذلك، وصدق ظنه. تمكن غالب من الهرب والعودة إلى الجوف لكنه لم يستقر فيه، لوقوعه في نفوذ الدولة السعودية الثانية ونائبها ابن رشيد، فذهب إلى الأمير فيصل بن نايف الشِّعْلان في قُرَيَّات الملح يطلب النصرة، فنصره. وعَمَّر غالب قرية الوَشْوَاش في أعالي وادي السِّرْحَان؛ لكنه لم يسلم من المؤامرات حيث أرسل له ابن رشيد من قتله غيلة رحمه الله، وبهذا انطوت صفحة حكام الجوف آل سَرَّاح عام ١٢٧٥هـ/ ١٨٥٩م تقريبًا، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

Scanned with CamScanner

رحلة من الكويت إلى الرياض
١٢٨١هـ/١٨٦٥م



ترجمة وتعليق: د. أحمد إيبش.

الناشر: دار قتيبة، دمشق - بيروت، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

عدد الصفحات: ١٩٠ صفحة.

نبذة عن الرحَّالة(١):

هو لويس بيلي، ولد عام ١٢٤٠هـ/ ١٨٢٥م، وانخرط في جيش بومباي بالهند وخدم في الحرب الإيرانية عام ١٢٧٣هـ/ ١٨٥٧م، وقام بعدة مهام سياسية فخدم بوظيفة سكرتير المفوضية البريطانية في طَهْرَان بعد أن وصلها قادماً من طرابزون في تركيا لاستلام منصبه.

وعندما أنهى مهماته قفل عائداً إلى الهند بطريق هراة وقَنْدَهَار مرتدياً البَزَّة الرسمية البريطانية، فكان بذلك أول بريطاني يمر بالمنطقة منذ الحرب الأفغانية ١٢٥٤-١٢٥٨هـ/ ١٨٣٨-١٨٤٢م.

وبعد أن أمضى فترة قصيرة كمندوب سياسي في زِنْجِبَار، أرسل إلى

(١) منقول من مقدمة المترجم بتصرف واختصار.

Scanned with CamScanner

الخليج العربي كمقيم سياسي عام ١٢٧٩هـ/ ١٨٦٢م. وأبدى نشاطاً كبيراً بالتنقل في المنطقة. وكان في تحركاته وأعماله فاعلاً لكن تعوزه الرويّة والتعقل، وكان من أوائل المسؤولين الإنكليز الذين رأوا عدم كفاية حفظ السلام في المنطقة، بل وجوب رفع السويّة المعيشية لشعوبها. وكان يدعو لإنشاء مستعمرة بريطانية على شبه جزيرة المسندم التي تعد من أكثر المواقع حرارة على الأرض.

بقي بيلي في منصبه بالخليج حتى عام ١٢٩٠هـ/ ١٨٧٣م، وبعد ذلك تولى عدة مناصب هامة في الهند، ومراراً ما دخل في صراعات سياسية مريرة.

وفي عام ١٣٠٠هـ/ ١٨٨٣م دعاه ليوبولد ملك بلجيكا ليصبح حاكماً مدنياً للكونغو؛ لكن بيلي آثر الدخول في البرلمان البريطاني.

توفي بيلي عام ١٣١٣هـ/ ١٨٩٥م.

ملخص الرحلة:

هذه الرحلة هي عبارة عن تقرير يحمل الرقم (٥٧)، أرسله لويس بيلي إلى وزير الدولة البريطانية في بومباي: سي. كون بتاريخ ١/ ١/ ١٢٨٣هـ الموافق ١٥/ ٥/ ١٨٦٦م. يصف فيه رحلته من الكويت إلى الرياض لمقابلة الإمام فيصل بن تركي بن عبدالله آل سعود.

وكان الهدف الرئيس من هذه الرحلة كما قال بيلي هو: إبعاد مشاعر العداء عن مخيلة الأمير (فيصل بن تركي آل سعود)، التي حملها من جراء أعمالنا حول تحريم تجارة الرقيق على الشاطئ الشرقي لأفريقيا ومهاجمتنا للسواحل. وكذلك لتوثيق عُرى الصداقة وإحلالها محل ذلك العداء.

وقد جاء في الرحلة وصف الطريق والناس الذين مر بهم. كما وصف ديوان الإمام فيصل وذكر كبار رجالات الديوان.

Scanned with CamScanner

بدأت الرحلة في شهر شعبان ١٢٨١هـ الموافق يناير ١٨٦٥م وكان خط سيرها كالآتي: الكويت - ملح - لقيط - الوفرة - تلّة الكبريت - الوريعة - كنيسات - المهيريات - الغزّا - عريق الدحول - أوتاد - شوية - الغيلانة - عريق بنبان - سدوس - الملقى - الرياض.

وخط سير العودة كان كالآتي: الرياض - الدغم - مخيط - سعد - الدهناء- عريج - روات البيضا - ربيداء - روضة الحنى - الفروق - الأحساء- العقير. والعقير وهو أحد الموانئ السعودية القديمة على الخليج العربي حيث أبحر منه بيلي متوجهاً إلى بوشهر يوم السبت ٢١/ ١٠/ ١٢٨١هـ الموافق ١٨/ ٣/ ١٨٦٥م.

Scanned with CamScanner

قبيلة عنزة
في تقرير بيلي



يقول بيلي في تقريره ص٥٤: **لدى جميع بدو نَجْد باستثناء أربع عشائر هي: سبيع ومطير وعنزة وشَمَّر، عادة نصب صليب يعلق عليه ثوب أحمر على مدخل الخربوش الذي ستجري به عملية الختان.** اهـ.

هذا الكلام غير صحيح أبداً، خاصة بعد انتشار الدعوة الإصلاحية السلفية بين الناس، ولم نسمع بهذه العادة إلا عند الصَّلُبَة فيما مضى. والله اعلم.

يقول بيلي في تقريره ص٥٥: **رغم أن الأمير نفسه يرد إلى عشيرة عنزة من حيث النسب، فعلاقته بها ليست طيّبة.** اهـ.

الأمير المقصود به هو الإمام فيصل بن تركي آل سعود رحمه الله.

حديث بيلي عن نسب آل سعود هو المشهور والمعروف فهم من عنزة. وأود أن أذكِّر القارئ الكريم أن هذه التقرير قد كتب عام ١٢٨٢هـ/ ١٨٦٥م، ولو عرف قولاً آخر لذكره، فهو المندوب الرسمي لدولته بريطانيا، ولا بد أن يخبرهم بالحقيقة التي توصل إليها، والرائد لا يكذب أهله، أضف إلى ذلك أن دليل بيلي أحد مشايخ قبيلة سُبَيْع

Scanned with CamScanner

ومعهم أحد أفراد الصَّلُبَة، ولو رافقهم أحد من عنزة لقلنا أخذ معلوماته من هذا الوائلي.

أما قوله: **فعلاقته بها ليست طيِّبة**. هذا الكلام غير دقيق!! فقبيلة عنزة قبيلة كبيرة، وهي في الحقيقة مجموعة قبائل، وهي تمتد من خَيْبَر إلى نَجْد إلى شمال الجزيرة العربية إلى بلاد الشام والعراق. وهذا التوتر الحاصل بين الإمام فيصل وبين إحدى قبائل عنزة لم يوضحه بيلي، ولم يوضح اسم القبيلة.

ويقول في موضع آخر ص١١٦: **وعلاقتهم (أي السعوديين) سيئة عادة بعشيرة عنزة الضخمة، التي تنتشر مضاربها في الصحاري الشمالية. اهـ.**

لم يذكر بيلي أسباب هذا التوتر في العلاقة بين الإمام فيصل وبين قبيلة عنزة، إلا أنه لم يجانب الصواب عندما قال: **الضخمة**. فهي فعلاً ضخمة في عددها، وعدد فرسانها، وكبر أراضيها التي تسكنها وتسيطر عليها.

ذكر بيلي في الملحق رقم١٠ ص١٥١ عشائر البدو في نَجْد وأعدادها التقريبية والدخل السنوي الذي تؤدية للأمير، وذكر أن عدد عنزة في نَجْد هو: ٦٠٠ فرد، ومقدار الزكاة التي تؤديها هو: ٤٠٠٠ ريال.

وهذه الإحصائية التي أرفقها بيلي مع تقريره تقريبية كما ذكر هو نفسه. بل هي غير صحيحة!! حيث إن عنزة التي في نَجْد أكبر بكثير من هذا العدد الذي لا يعدو كونه فَخْذاً من الدَّهَامِشَة أو السَّلْقَا، إضافة إلى ذلك أنه لم يحدد هذه القبيلة أو القبائل الوائلية من تكون؟! زد على ذلك العشائر والقبائل الوائلية بعيدة عن العاصمة الرياض ولا يوجد لها ثقل هناك.

ذكر بيلي في الملحق رقم١٢ ص١٥٥ قائمة بالسلالات المختلفة

Scanned with CamScanner

للخيل العربية في نَجْد حيث قال: **هناك خمس سلالات (أرسان أو أحواج) أساسية هي:**

١ - صَقْلَاوِيَّة قِدْرَان.

٢ - كُحَيْلَة العجوز.

٣ - عُبَيَّة شَرَّاك.

٤ - دْهَمَة شُوَيْمَان.

٥ - وَذْنَة خرسان.

والرَّسَن الأول غير متوفر في نَجْد، ومنه القليل لدى عشيرة عنزة. ومن هذا الرَّسَن الأول سلالة هجينة تتوفر تحت اسم صَقْلاوِي العبد. اهـ.

ويقول محقق الكتاب الدكتور أحمد إِيْبِش في الهامش: **وصَقْلاوِي العبد هي سلالة خيل آل شِعْلَان شيوخ قبيلة الرُّوَلَة.** اهـ.

تحدث بيلي في تقريره عن بعض القبائل العربية بخلاف الواقع والحقيقة، مثل حديثة عن قبيلة العَوَازِم بأن لهم دين مستقل!! وهذا من خيال بيلي الواسع، فقبيلة العَوَازِم قبيلة كريمة، مثلهم مثل قبائل الجزيرة العربية، يدينون بالإسلام ولا يعرفون غيره؛ بل هم من أهل السُّنَّة والجماعة ولله الحمد.

لم تحقق الرحلة ثمارها المرجوَّة منها، فلقد توفي الإمام فيصل بعد هذا اللقاء بمدة قصيرة نسبياً في ١٤/ ٧/ ١٢٨٢هـ الموافق ٢/ ١٢/ ١٨٦٥م رحمه الله، وأعقب ذلك فترة من الاضطرابات في الجزيرة العربية بوقوع الخلاف بين ابني الإمام فيصل: عبدالله وسعود، وبانشقاق إمارة جبل شَمَّر في حائل، وأميره محمد بن عبدالله الرَّشِيْد، واتخذت مندوبية بوشهر التابعة لحكومة الهند البريطانية موقفاً عدائياً محضاً من الدولة السعودية.

Scanned with CamScanner

رحلة في الجزيرة العربية الوسطى
١٢٩٥-١٢٩٩هـ
١٨٧٨-١٨٨٢م



المترجم: إليسار سعادة.

الناشر: كتب، بيروت، ٢٠٠٣م.

عدد الصفحات: ١٦٦ صفحة.

الرحَّالة والرحلة[١]:

هو شارل هوبير (١٢٥٣-١٣٠١هـ/ ١٨٣٧-١٨٨٤م)، وهذا الكتاب هو أول ترجمة عربية لرحلة هوبير الاستكشافية الأولى إلى مناطق شمال شبه الجزيرة، وذلك خلال السنوات ١٢٩٥-١٢٩٩هـ/ ١٨٧٨-١٨٨٢م حيث عثر على أبرز اكتشاف أثري في المنطقة وهو: حَجَر تَيْمَاء.

نُشرت تفاصيل هذه الرحلة التي بدأها شارل هوبير من البصرة في ١٢/ ٥/ ١٢٩٥هـ الموافق ١٤/ ٥/ ١٨٧٨م في نشرة الجمعية الجغرافية الفرنسية عام ١٣٠١هـ/ ١٨٨٤م، إثر مصرعه بالقرب من بلدة العُلا في ٢٩ تمّوز من العام نفسه على يد دليله ابن شُمَيْلان من شيوخ قبيلة بني رَشِيْد كما يعتقد والله أعلم.

---

(١) منقول من مقدمة الناشر بتصرف واختصار.

Scanned with CamScanner

أعقب هوبير هذه الرحلة برحلة ثانية إلى المنطقة بدأها في حزيران ١٨٨٣م بهدف تأمين نقل حَجَر تَيْمَاء إلى فرنسا، ولمواصلة أبحاثه الأثرية، ووضع خرائط للمنطقة بتكليف من الجمعية الجغرافية الفرنسية، والجمعية الآسيوية ووزارة الإرشاد العام الفرنسية. وخلال الرحلتين أقام هوبير علاقات جيدة مع حاكم المنطقة محمد بن عبدالله الرشيد، وتبادل معه الهدايا والسيوف، وبدوره قام ابن رشيد بتأمين حراس وأدلاء لمساعدة هوبير خلال تجواله.

وبعد مرور سبع سنوات على مصرع هوبير، صدر في باريس عام ١٣٠٨هـ/ ١٨٩١، كتاب بعنوان: (يوميات رحلة في شبه الجزيرة العربية ١٨٨٣-١٨٨٤م)، تضمن كتابات هوبير خلال رحلته الثانية، والتي كان أودع قسماً منها لدى القنصلية الفرنسية في جدة قبل بضعة أيام من مصرعه.

وكانت الكتابات عبارة عن خمسة دفاتر صغيرة الحجم ضمنها هوبير يومياته وانطباعاته، ورسومه للنقوش الحجرية، وأشار نائب القنصل الفرنسي في جدة فيلكس دو لوستالو (Félix de Lostalot) في رسالة إلى ظروف مصرع هوبير فقال: إن هوبير غادر جدة مساء ٣ شوال ١٣٠١هـ الموافق ٢٦ يوليو ١٨٨٤م، يرافقه خادمه محمود ودليلين، وأن هوبير اغتيل في (٦ شوال) ٢٩ يوليو من قبل الدليلين الذين سجنا الخادم محمود لمدة يومين، إلى أن اغتنم هذا الأخير الفرصة المؤاتية للفرار باتجاه المدينة المنورة، وانتقل بعدها إلى حائل ثم إلى جدة.

أشرف نائب القنصل الفرنسي في جدة بمساعدة ترجمان من أصل جزائري مقيم في مكّة المكرمة يدعى سي عزيز على المفاوضات لاسترجاع أوراق هوبير وحَجَر تَيْمَاء، وكذلك الاقتصاص من القتلة.

Scanned with CamScanner

وقام سي عزيز بالمفاوضات مع ابن الرَّشِيْد بشكل سري، ذلك أن هوبير كان يقوم برحلته رغم معارضة السلطات العثمانية، التي كان ابن رَشِيْد متحالفاً معها، ويُعتقد أن ابن رَشِيْد هو الذي كَلَّف ابن شُمَيْلان بقتل هوبير خارج حدود إمارته في بلدة العُلا.

Scanned with CamScanner

قبيلة عنزة
في رحلات هوبير



في ص١٧ قال هوبير: **منذ بداية تكليفي بمهمة علمية في الجزيرة العربية في عام ١٨٧٨م (١٢٩٥هـ)، اصطدمت بعقبات أخرتني وبصعوبات أشرت إليها في تقريري إلى سيادة الوزير.**

فقد اجهضت المحاولة الأولى للوصول إلى الجوف مع الشيخ محمد بن دُوْخِي بسبب ثورة الدُّرُوْز، والاتفاق الذي عقدته من ثم مع سَطَّام بن شِعْلان، شيخ الرُّوَلَة لم يسفر عن نتيجة بسبب نكث هذا الأخير بوعده. وتكرر الأمر في الاتفاقية التي أبرمتها مع الشيخ علي القريشي. اهـ.

الشيخ محمد بن دُوْخِي بن سُمَيْر أحد مشايخ قبيلة وُلْد علي من عنزة، والأمير سَطَّام باشا بن حَمَد الشِّعْلان أمير عشائر الرُّوَلَة، استعانت بهما الدولة العثمانية في تأديب الدُّرُوْز، فدخلا الحرب عام ١٢٩٦هـ/١٨٧٩م. الأمير سَطَّام باشا الشِّعْلان كان دوره هو تمويل الجيش العثماني ونقله إلى ساحة القتال، أما الشيخ محمد بن سُمَيْر فقد باشر القتال بنفسه، وكان لدخول ابن شِعْلان وابن سُمَيْر الأثر الفعَّال في تأديب الدُّرُوْز وكسر شوكتهم.

في ص٢٦ وتحت عنوان: إلى الجوف قال هوبير: **الخامس**

Scanned with CamScanner

والعشرون من مايو (أيار) كان يوماً شاقاً إذ لم يتبق لنا من الماء إلا ما يكفي لصنع الخبز. وبما أنه لا يوجد آبار بعد الجُرَاوِي فكان لا بد لنا من السير دون توقف حتى الجوف. هكذ بقينا ٢٢ ساعة على (الأَشِدَّة)(١). كنا قد انطلقنا في الرابعة صباحاً ووصلنا إلى نهاية مطافنا في ٢٦ أيّار في الثانية فجراً وقد عانيت من العطش كثيراً. اهـ.

وعندما وصل الجوف تحدث هوبير عن تاريخ الجوف القديم والحديث، إلى أن قال: في أواخر القرن الماضي، ضمت الجوف إلى الوهابيين بعد أن شهدت حرباً أهلية وأرسل إليها ابن سعود حاكماً لوقف الاضطرابات وخطباء لتوعية الناس.

وجاء تدمير الامبراطورية الوهابية على يد محمد علي، باشا مصر، فعادت الفوضى إلى الجوف. وقد دام هذا الوضع حتى عام ١٢٥٤هـ/١٨٣٨م وهي الحقبة التي احتل فيها عبدالله بن رشيد مجدداً الجوف لحسابه الخاص لدى قيامه بنجدة مواطنيه شَمَّر الذين كانوا في صراع مع سكان سوق الدلهمية المقيمين في حي الجرعاوي وكانوا قد أصبحوا في فترة معينة الأكثر ضعفاً. وبذلك وفق بين الجميع.

كان هذا الوضع الجديد ضاغطاً على الجوفيين وما أن أدركوا ضعف حكم ابن سعود حتى فكروا في استغلاله لاسترداد استقلالهم. فثاروا وطردوا الأمير الشَّمَّرِي، ومن المرجَّح أن يكون الرُّوَلَة قد دفعوهم إلى ذلك إذ إن قبيلتي النايف والشّعْلان كانتا منذ أمد بعيد تستفيدان من ضريبة صغيرة من الجوف كما وأنهم إلى جانب عداوتهم الدائمة لشَمَّر لم يكونوا يوماً حتى في عصرهم الذهبي أصدقاء الوهابيين. اهـ.

وفي ص٧٦ وتحت عنوان: بُرَيْدَة وعين ابن فهيد قال هوبير: من

(١) مفردها: شِدَاد، وهو ما يوضع على الراحلة للركوب.

Scanned with CamScanner

الشِّقَة قادتني مسيرة ساعتين كاملتين (٧ أميال) الى بُرَيْدَة حيث وصلت وقت صلاة العصر.

المدينة مطوَّقة بجدران من الآجر والتبن بارتفاع ٤ أمتار يجعلها التموج الزهري تبدو وكأنها حديثه جداً. المدخل إليها عبارة عن بوابة كبيرة بمصراعين مع عتبة من الحجر. تتخلل الجدران بين الفينه والآخرى أبراج مدورة أو مربعة يزيد ارتفاعها على ارتفاع الجدران بمترين. لايوجد سطوح وراء الجدران والأبراج.

توجهنا الى القصر مباشرة. وهنا وجدت الأمير حسن خارجاً من المسجد حيث أدَّى صلاة العصر فاستقبلني بحفاوة. وضعت سجادات في الباحة فجلسنا عليها وتبادلنا السلام المعهود. ثم سلمته رسالة التوصية التي أعطاني إياها سيده أمير جبل شَمَّر.

ولأن حسناً لا يعرف القراءة فقد تولى أمين سره قراءة الرسالة بصوت منخفض بحيث لايسمع الاشخاص الحاضرون شيئاً. فكرر لي فوراً ما كان قد قاله قبل القراءة إنه سعيد بالترحيب بي وبالأمير محمد، وأن بيته هو بيتي، وأنه ما عليّ الا أن أطلب ما أرغب. كما أوصاني بألا أخرج أبداً من القصر دون مرافقة اثنين من رجاله وبأن أحمل دوماً سيفي وفق عادة المشايخ في البلاد العربية.

لقد خلف الأمير حسن والده مُهَنَّا الذي اغتيل وسط الشارع قبل ست سنوات. إنه رجل في الثانية والخمسين من العمر مبتذل المظهر ولا ينمّ عن ذكاء متفوق. وفي عينه اليسرى بياض تمنعه من الرؤية من هذا الجانب، وهو يتمتع باستقلالية محدودة ولا يدفع لحائل سوى ضريبة واحدة بعضها من المال وبعضها الآخر عيني.

حكم الأمير حسن المُهَنَّا عشر سنين وقبله شغل شخص يحمل اسم

Scanned with CamScanner

عبدالعزيز المحمد منصب الأمير لمدة أربعين سنة تقريباً أي منذ سقوط الوهابيين.

لا يربو وجود بُرَيْدَة على مئة وثمانين عاماً؛ ولكنها خلفت مدينة أقدم منها كانت موجودة على مسافة ميلين الى شمال البلدة الحالية وتدعى الشَّماس. هذه الأخيرة أُسست قبل ثلاثة قرون ونصف. والمسجد الذي اعتبر بلجريف أنه شُيِّدَ قبل أربعمائة عام في الواقع شُيِّدَ قبل أقل من مئة عام، والمدينة تملك أربع مدارس وستة جوامع بما فيها الجامع الرئيس في العاصمة. أما السكان الذين يعود أصلهم جميعاً الى عنزة فيبلغ عددهم (١٠) آلاف نسمة.

بُرَيْدَة مركز تجاري كبير ولكنه لايعرف أوج ازدهاره الا خلال الأشهر الأربعة من السنة التي تلي قطاف التمر. في هذا الوقت غالباً ما نرى منتصبة خارج بُرَيْدَة ما يربو على ألف خيمة بدو يأتون للتزود بالتمر والقمح والأرز وبعض الأقمشة القليلة التي يحتاجون اليها.

فيما عدا هذه الأشهر الأربعة يكون ثلثا المحلات مقفلة مما جعل بلجريف يعتقد أن المدينة في انحطاط. بل على العكس أعتقد أنه بإمكاني أن أجزم بأن ثَمَّة ثروات في بُرَيْدَة تفوق ثروات حائل عدداً وحجماً. وقد أعطاني الأمير حسن معلومات عديدة تُؤيد ذلك.

المياه في بُرَيْدَة ليست طيبة المذاق. فهي في كل الآبار تقريباً مالحة جداً لا تصلح للشرب ومعكرة جداً في كل مكان. مستوى المياه الجوفية يقع على عمق يتراوح مابين ٥ و١٠ أمتار تحت الأرض، وللوصول اليها يجب على العموم اختراق ثلاث طبقات من الصلصال الرملي تبلغ سماكة كل واحد منها من متر الى مترين.

Scanned with CamScanner

منذ أن بُنيت بُرَيْدَة اجتاحتها النفود وقد اكتشفت بهذه المناسبة بأن النفود يسير من الغرب الى الشرق. فالحدائق الواقعة غربي المدينة بات لديها اليوم من جهتها الغربية ارتفاع يتراوح مابين ٦ و ٨ أمتار من النفود يحاول السكان تثبيته بواسطة زراعة شجر الأَثْل.

غداة وصولي الى بُرَيْدَة الذي كان في الثامن من آب ويصادف أول أيام شهر رمضان المبارك، عشية ذلك اليوم فيما كنت أشرب القهوة مع الأمير، سألني اذا كنت عازماً على الصوم وإذ أجبت بالايجاب انفجر ضاحكاً؛ ولكنه أَكَّدَ لي أن هذا لن يحصل، وأنني لن أحتمله، وأنه علاوة على ذلك كوني مسافراً يعفيني من الصوم. وبالفعل فقد أعد الطعام لي ولرفيقي كالمعتاد وكذلك القهوة.

وبعد وصولي بأربعة أيام، قمت برحلة شمال بُرَيْدَة الى عين ابن فهيد وهي بلدة قديمة جداً يغذي نخيلها خمسة ينابيع. إنما مياهها الصافية والجميلة المنظر غير صالحة للشرب لأنها متخمة بأملاح الكلس والماغنيزيوم.

في منتصف الطريق تقريباً بين عين ابن فهيد وبُرَيْدَة، توقفت ساعة خارج قرية فقيرة تعد ٦٠ شخصاً تدعى الطَّرَفِيَّة. فإثر اختفاء الماء من الآبار قبل أربع سنوات تفرَّق معظم السكان في بلدات أخرى وماتت كل أشجار النخيل وظلَّت جذوعها المجردة من الورق منتصبة في الهواء على نحو محزن وكأنها غابة من عصي المكانس. كانت جميلة فيما مضى فكلها أشجار نخيل يتراوح عمرها ما بين مائة ومائة وعشرين سنة.

يزرع السكان، بالماء القليل المتبقي وغير الصالح للشرب باستثناء بئر واحد، الشَّمَّام والبطيخ. وهم يعملون على جمع الحطب في الصحراء ويبيعونه في بُرَيْدَة كما يبيعون الشَّمَّام والبطيخ.

Scanned with CamScanner

في المقابل عين ابن فهيد في ازدهار مضطرد. وقد رأيت فيها عدة مزارع نخيل تخص إحداها الأمير حسن.

على مسافة ٣ كيلات شمالاً من عين ابن فهيد أطلال قديمة تدعى قصر مارد. وهو عبارة عن مبنى كبير مربع، ضخم جداً، بنى بالحصى والملاط الكلسي طول أضلاعه ٤٠ متراً تقريباً وأضلاع الباحة الداخلية ٣٠ متراً. يواجه باب المدخل الغرب أي القرية الواقعة على قمة تلة صغيرة تشرف على المنطقة.

على بعد خطوات، من الجانب الشمالي للقصر، صخرة على شكل طاولة يتراوح طولها مابين ٤٠ و ٥٠ مترا ويبلغ ارتفاعها مترين، تحمل نقوشاً حِمْيَرِيَّه عديدة ولكنها كلها ممحوة تقريباً ولم أتمكن من نسخ إلا بعضها.

من الناحية المقابلة للقرية تقريباً، على بعد كيلين الى الشمال الغربي فوهة بركان قديمة تشير إليها كتل كبيرة من الحث منتشرة على مساحة ٥٠٠ متر مربع تقريباً وأحياناً مغطاة كلياً بالنقوش.

وعلى غرار بلدات عديدة أخرى في الجزيرة العربية وبالأخص في نَجْد، فقد تحمَّلت عين ابن فهيد نتائج كل الثورات التي هزت هذا البلد فأفرغت مراراً من سكانها وعادت آهله. الاقامة الحالية ترقى الى ثمانين سنة. وبالطبع فإن أحداً من السكان الحاليين لا يعرف شيئا عن الذين سبقوه في هذا المكان.

في اليوم الثالث من وصولي في ١٣ آب، غادرت عين ابن فهيد قبل الفجر بوقت طويل وبعد ساعتين قادتنا مسيرة عشرة كيلومترات جنوباً الى آبار وُسَيْطَة المهمة لأنها تزود عين ابن فهيد بمياه الشرب.

كل ليلة قرابة منتصف الليل يذهب رجلان يقودان خمسة عشر حماراً

Scanned with CamScanner

من القرية حاملة قِرَب السكان ويملأونها من آبار وْسَيْطَة. ويسيرون يومياً مسافة ٢٠ كيلاً للحصول على كمية المياه اليومية اللازمة. وأيّ مياه؟! لم أر في حياتي ماء موحلة إلى هذه الدرجة. أما مذاقها فباستثناء مياه الشَّقِيْق في النفود، لا أذكر أنني شربت ماء بهذه النتانة. ومع ذلك يا للسخرية المُرة، تجري مياه ينابيع القرية التي تسقي النخيل صافية كمياه الصخور عندنا. اهـ.

الأمير حسن بن مُهَنَّا أبا الخيل. وأبا الخيل أسرة كريمة من قبيلة عنزة الوائلية، ظلوا يتوارثون حكم بريدة مدة طويلة، وانتهت إمارتهم على يد الملك عبد العزيز آل سعود عام ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م.

وفي أثناء وجود هوبير في تَيْمَاء تحدث عن قبيلة عنزة وعن فروعها فقال في ص ٩٩: **تبيع تَيْمَاء تمورها بشكل حصري تقريباً لعرب الشَّرَارَات. وفي بعض الأحيان يصل عرب الرُّوَلَة إلى هنا ولكن ليس في كل سنة. والشَّرَارَات هم الذين يمدون تَيْمَاء بالسَّمن والخِرَاف.**

القبيلتان العنزيتان اللتان تؤلفان قبيلة بني وَهَب هي الفْقَرَا (الافْقَرَا) ووُلْد علي الذين تمتد مراعيهم - أيضاً - حتى تَيْمَاء لا يتزودون بالتمور منها بل من خَيْبَر، فكون الفْقَرَا (الافْقَرَا) مالكي نخيل خَيْبَر يعفيهم من شراء التمر.

بالانتظار نشر كامل لوائح كل القبائل وفروعها العديدة الذي سأقدمه لاحقاً، أشير هنا إلى قبيلة بني وَهَب المثيرة للاهتمام من جميع الأوجه والتي تنقسم إلى فرعين كبيرين: وُلْد علي والفْقَرَا (الافْقَرَا).

قبائل فرع وُلْد علي هي التالية:

الِيذْيَان، المَسْعَد، السَّنَد، المريخان، الرِّكَاب، العُطَيْفَات، المشطة

Scanned with CamScanner

(الامْشِطَة)، الطُّلُوْح، الخالد، الرَّبَيْلات، الدِّمْجَان، الطُّوَالِعَة، المشرف، الخيل، الذُّوَيْبِي، الشَّرَاعِبَة.

وهي في مجموعها ١٦ قبيلة حوالي ٦٠٠ خيمة. الشيخ الأكبر الحالي يُدعى مُطْلَق بن رِجَا[1] الآيْدَا.

أما قبائل الفُقَرَا (الافْقَرَا) فيبلغ عددها تسع قبائل:

المُبَارَك، الشَّفِقَة، الحُجُوْر، الخَمَاعِلَة، الصهبان، المَغَاصِيْب، الفرعين، الحُوَيْكِم، الجْمَعَات (الاجْمَعَات).

وتملك هذه القبائل بمجموعها حوالي ٤٠٠ خيمة. يُدعى الشيخ الأكبر الذي تقع خيمته في قبيلة المُبَارَك مُطْلَق بن الحُمَيْدِي.

على النحو الذي أشرت إليه على الخريطة فإن بني وَهَب يجوبون صحراء الشفة حيث تشكل تَيْمَاء حدودها الشمالية والحَرَّة حدودها الجنوبية. نصيب وُلْد علي هو الأفضل لأن أراضيهم تضم قطعة من النفود. في المقابل يجتاز درب الحج الذي يشكل مصدر أرباح للعرب كل سنة، جزءاً من أراضيهم، وبالإضافة إلى ذلك فإنهم يملكون نخيل خَيْبَر الذي يؤمن لهم كل سنة مؤونتهم من التمر. الصحراء المحيطة بتَيْمَاء مباشرة تدعى مدائن صالح. اهـ.

وفي ص١٠٤ استعرض هوبير عشائر قبيلة بِلِي العريقة، وذكر منها المواهيب، وهم فرع من المواهيب من السَّبَعَة من عنزة الوائلية، دخلوا في قبيلة بِلِي بالحِلْف، وشيخهم هو أبو شَامَة، وشيخ الشمل في بِلِي هو ابن رِفَادَة كما هو معلوم.

وفي ص١٠٦ قال هوبير: ..كانت الأرض الغرانيتية على أي حال قد

(١) رجا: من الرجاء، وتلفظ بتفخيم حرف الراء وكسرها، وفتح حرف الجيم.

Scanned with CamScanner

بدأت على مسافة كيلين جنوبي العُلا ومعها دخلنا أراضي عرب عنزة المستقلين ولكن المتحالفين مع شَمَّر.

فرع وُلْد سليمان الكبير هو الباقي في المنطقة. تتناثر خيامهم من جبل مريرة وحتى مشارف يَنْبُع في الجنوب.

القبائل الرئيسة هي التالية:

الجَعَافِرَة، الفضيل، المِرْتِعِد، العُوَاجِي، البكار، الغَضَاوِرَة، المُرَيْخِم، النحات، المَطَارِدَة، السَّهُوْل، الخمشة (الاخْمِشَة)، السعيد، النُّوَامِسَة، الشِّمْلان.

وُلْد سليمان أكثر عدداً من بني وَهَب، وهم - أيضاً - من عرب عنزة كما رأينا ذلك آنفاً؛ ولكنهم أكثر فقراً أيضاً، إلا أنهم في المقابل يملكون كنز الحرية الذي لا يُقدَّر بثمن، وأكثر ما تحتاج إليها المجتمعات المتمدنة جزئياً. إنهم مستقلون تماماً إزاء الحكم التركي الذي يعادونه وإزاء أمير شَمَّر الصديق.

لديهم في جبالهم بعض المراعي الجيدة وهي أفضل من مراعي بِلِي وعلى غرار الأخيرين لديهم ماء وافر. كما أنهم يملكون عدداً أكبر من البنادق من بِلِي.

كل المنطقة الوعرة جداً الواقعة بين العُلا وخَيْبَر تحمل اسم الحِجْر. وهي صحراء غرانيتية قاحلة بشكل مريع. اهـ.

مرت معنا بعض تفصيلات قبائل عنزة في بداية الكتاب في رحلة الجزيري. ومن أراد الاستزادة والبسط فليراجع الكتب المتخصصة.

أما الشِّمْلان فهم من السَّلْقَا من العْمَارَات (الاعْمَارَات) من عنزة، وليسوا من وُلْد سليمان من ضَنَا عُبَيْد من عنزة.

وقبيلة النُّوَامِسَة حلفاء وُلْد سليمان من عنزة.

Scanned with CamScanner

وعندما وصل هوبير إلى خَيْبَر تحدث عنها بشيء من التفصيل فكان مما قال: سكان خَيْبَر الذين يملكون ٣٠٠ بندقية، يبلغ عددهم ١٢٠٠ نسمة ويتوزعون على النحو التالي:

- قرية بِشْر، تملك ١٢٠ منزلاً.
- مكيدة، تملك ١٠٠ منزل.
- عاصمية، تملك ٢٠ منزلاً.

لا يوجد في خَيْبَر سوى مدرسة واحدة تقع في قرية بِشْر؛ ولكن المتابعة فيها غير مؤمنة إلا فيما ندر، وهي قلَّما تفتح أبوابها. يديرها رجل دين لا يُدعى في خَيْبَر الخطيب كما هو الحال في الجبل، بل رئيس المسجد. اهـ.

ويضيف: شمالي بحيرة الثَّمَد، تتابع المياه سريانها عبر الحَرَّة إنما متجهة إلى الشمال - الغربي لتصب في وادي تبق بعد سقي نخيل بلدتين خاليتين من السكان، هدنة وجراية.

يعود نخيل جراية إلى فصيل الخالد من وُلْد علي. اهـ.

ويضيف: من وادي سرير الكثير من النخيل العائد إلى قبيلة الشِّمْلان التابعة لعنزة. اهـ.

ويضيف: يعود نخيل خَيْبَر إلى عرب الفُقَرَا (الأفْقَرَا) أحد فرعي بني وَهَب، الذين يجوبون المنطقة بين خَيْبَر وتَيْمَاء. سكان خَيْبَر يزرعون شجرتهم مناصفة مع الفُقَرَا (الأفْقَرَا) ويستقرون حول الواحة للتأكد من المحصول وتَسَلُّم حصتهم. وكما هو سار في زراعات النخيل كافة فهنا - أيضاً - تتناوب باستمرار سنة محصول جيد تليها سنة محصول سيّئ وهكذ دواليك. سنة مروري (١٢٩٧هـ/ ١٨٨٠م) كانت سنة وفرة. اهـ.

Scanned with CamScanner

رحلة إلى نجد مهد العشائر العربية
١٢٩٥-١٢٩٦هـ
١٨٧٨-١٨٧٩م



المترجم: د. أحمد إيبش.

الناشر: دار المدى، دمشق، ٢٠٠٥م.

عدد الصفحات: ٤٣١ صفحة.

نبذة عن الرحَّالة[١]:

هي السيدة آن بلنت، رحَّالة إنجليزية، ولدت عام ١٢٥٣هـ/ ١٨٣٧م. سيدة مثقفة ورحَّالة جريئة صادقة أضافت إلى أدب الرحلات الغربية في الشرق نصوص رحلتين فريدتين إلى الجزيرة الفُراتية وشمال جزيرة العرب. فكانت من أوائل الرائدات لسلسلة من الرحَّالات النساء اللاتي زرن مشرقنا العربي وكتبن عنه.

وآن بلنت سليلة أسرة نبيلة توارثت العلم والأدب، فهي حفيدة اللورد جورج بايرون الشاعر الإنكليزي الكبير وابنه الإيرل لفليس الأول.

وقد تميّزت آن عن غيرها من الرحَّالات الغربيات اللواتي جلن في

(١) منقول من كلام المترجم بتصرف واختصار.

Scanned with CamScanner

بلادنا، بكونها أديبة تتقن فن الوصف والتشويق، ولكونها واقعية موضوعية متزنة ذات أخلاق عالية، وشخصية جذابة فريدة.

وزوج هذه الرحَّالة هو النبيل الشاعر الإنكليزي ولفريد سكاون بلنت، الذي أمضى شطراً من حياته في الشرق الأوسط ديبلوماسياً ومُبَشِّراً ورحَّالة، كَرَّس جهده للشعر والأدب والسياسة، وتفاعل مع أحداث عصره في كل من مصر والشام والجزيرة الفراتية وشمال نَجْد. عمل طويلاً في بغداد ضمن بعثة تبشيرية، وانتقل للغرض ذاته إلى دمشق، فأحب أسواقها وإصطبلات خيلها. وله عدة كتب في التاريخ السياسي، أشهرها: التاريخ السري لاحتلال إنكلترا مصر.

لقد جمع الترحال بين أديبين يعشقان الحرية، كما جمعتهما هواية الدراسات الشرقية، فتحولت الهوايات المشتركة إلى زواج عام ١٢٨٦هـ/ ١٨٦٩م دفعهما هذا الزواج للترحال في بوادي الشام والجزيرة ما بين عامي ١٢٩٥-١٢٩٦هـ/١٨٧٨-١٨٧٩م، في رحلتين متتاليتين:

١ - **الرحلة الأولى**: في الجزيرة الفُراتية وبادية الشام، دونت أحداثها في كتاب شيق بعنوان: عشائر بدو الفُرات.

٢ - **الرحلة الثانية**: في شمال نَجْد ومنطقة جبل شَمَّر وعاصمتها حائل، فكتبت أحداثها في كتاب آخر ثمين بعنوان: رحلة إلى نَجْد. وهو هذا الكتاب الذي أستعرضه.

لم يعش للسيدة آن من ولفريد سوى ابنة واحدة هي جوديث المولودة في ١٦/ ٩/ ١٢٩٠هـ الموافق ٦/ ١١/ ١٨٧٣م.

انتقل الزوجان إلى مصر عام ١٢٩٨هـ/ ١٨٨١م ليؤسسا مزرعة للخيول العربية في مزرعة الشيخ عُبَيْد التي اشترياها في القاهرة. فطفقا يتنقلان بينها وبين مزرعة كرابت بارك في سسكس بإنكلترا. وراح

ولفريد يُكرِّس جُلَّ وقته لاهتماماته السياسية، فيما واظبت آن على دعمه مادياً ومعنوياً.

انفصلت آن عن زوجها ولفريد عام ١٣٢٤هـ/ ١٩٠٦م، فأقام هو في سسكس بإنجلترا بينما هي فضّلت البقاء في القاهرة، تسلي نفسها بركوب الخيل العربية وتشرف على تربيتها.

وفي ٢٢/ ٣/ ١٣٣٥هـ الموافق ١٥/ ١/ ١٩١٧م توفيت آن بالقاهرة ودفنت بها.

وبعد خمسة أعوام توفي ولفريد عام ١٣٤٠هـ/ ١٩٢٢م، فورثتهما ابنتهما السيدة جوديث ونتوورث وحفيدتاهما.

ملخص الرحلة:

بدأت الرحلة يوم الجمعة ١٢/ ١٢/ ١٢٩٥هـ الموافق ٦/ ١٢/ ١٨٧٨م وانتهت يوم الخميس ١٣/ ٣/ ١٢٩٦هـ الموافق ٦/ ٣/ ١٨٧٩م. هذا في الزمان، أما في المكان فقد بدأت من دمشق مروراً بحوران واللجاة والحَمَاد ووادي السِّرْحَان والجوف وصحراء النفود، حتى مدينة حائل معقل الأمير محمد بن عبدالله بن رشيد، وانتهت الرحلة في بغداد. وكان دليلهما هو محمد بن عبدالله العرّوق، من تدمر. ومعهم مجموعة من المرافقين للخدمة.

Scanned with CamScanner

قبيلة عنزة
في رحلة السيدة آن بلنت



قال ولفريد بلنت زوج السيدة آن في تقديمه للكتاب ص٣٣: **فَنَجْد لدى بدو الشمال مهوى أفئدتهم وأرض آبائهم وأجدادهم، وموطن النخوة والإباء والكرم اللواتي بها يتغنون. في نَجْد هذه عاش عنترة بن شَدَّاد البطل الأسطوري، وكذلك حاتم الطائي المشهور بكرمه الفائق. وتبقى ذكرى نَجْد لدى عرب عنزة وشَمَّر بوجه الخصوص ماثلة في أذهانهم كموطنهم الأول، فمنها بالذات قدمت هجراتهم إلى الشمال منذ بضعة أجيال.** اهـ.

وقال ولفريد في ص٣٦: **بَيْد أنه في أواسط القرن الثامن عشر، انطلق المصلح الإسلامي محمد بن عبد الوهاب، ينادي بإصلاحاته الدينية الجديدة في نَجْد، فكان ممن اتبع مذهبه الجديد الأمير محمد بن سعود، شيخ الدِّرْعِيَّة العنزي. واستطاع ابن سعود، بمعونة ابن عبد الوهاب، أن يرتقي من مجرد زعيم عشيرة وحاكم بلدة واحدة، إلى أن يضحي سلطان الجزيرة بأسرها، وأن يخضع تحت لوائها جميع الشيوخ المناوئين له، الواحد تلو الآخر. حتى أنه في النهاية قام بإسقاط نظام الجزية والحماية، الذي كان في السابق أساساً لسلطته هو الآخر، وقام بتشكيل جيش نظامي من أبناء المدن، مما أعطاها استقلالها الناجز عن الحكم البدوي. وعلى هذا**

Scanned with CamScanner

النحو المذكور، أضحت الجزيرة العربية، للمرة الأولى منذ وفاة محمد ﷺ إمبراطورية موحدة ولها حكومة مركزية نظامية. اهـ.

ولا زلنا - ولله الحمد - يا ولفريد نتفيأ ظلال هذه الحكومة المركزية، ونسأل الله أن يديم علينا نعمة الأمن والأمان.

وفي هذا المقطع يقرر ولفريد نسب الأسرة الحاكمة السعودية وأنهم من قبيلة عنزة. وهذا الكلام يضاف إلى غيره من الأقوال المعروفة والمشهورة والتي أكَّدها كل من كتب عن هذه الأسرة الوائلية الكريمة. ولا زلت أكرر لو عرف ولفريد وغير ولفريد قولاً غير هذا في نسب الأسرة لذكره، حيث إن هؤلاء الرحَّالة ليس لهم مصلحة في تأكيد انتسابهم إلى قبيلة عنزة، خاصة أن وقت هذه الرحلة يوافق بدايات أفول نجم الدولة السعودية الثانية وبدايات استقلال إمارة ابن رشيد.

وقالت السيدة آن بلنت في ص٥١: **تالي هذه الأخبار كانت أحداثاً هامة لدى أصدقائنا في الحَمَاد. قال محمد إن فَارِسَاً وجَدْعَان قد تصالحا ويا لها من أخبار رائعة، وأحلَّا الأمان ما بينهما على امتداد الفُرات، وكانت طريق القوافل قد أضحت بسبب نزاعهما غير آمنة البتَّة. ويبدو أن فرحان بن صُفُوْق قد جَرَّد على أخيه فارس حملة، وفي صحبته بضعة فرق تركية لمساعدته، فما كان من فارس إلا أن تراجع منسحباً وراء النهر؛ غير أن غالبية شَمَّر، كما كنا خَمَّنَّا السنة الفائتة، هبوا لنجدته.** اهـ.

فارس: هو الشيخ فارس بن صُفُوْق الجَرْبَا شيخ عشائر شَمَّر الجزيرة، استلم المشيخة بعد أخيه الشيخ عبد الكريم الجَرْبَا الذي أعدم بالموصل عام ١٢٨٨هـ/ ١٨٧١م رحمه الله.

جَدْعَان: هو الشيخ جَدْعَان بن نايف بن جعثم بن تُركي بن مِقْحِم

المُهَيْد من ضَنَا محمد من قبيلة الفِدْعَان من ضَنَا عبيد من ضَنَا بِشْر من قبيلة عنزة الوائلية.

وقالت آن في ص٥٢: **إن محمداً لا يعرف بالطبع أي شيء عن طرق نَجْد أو الجوف، إلا كونها تقع في مكان ما بعيد باتجاه الجنوب، وأن له أقارب هناك، وأشك أن يكون بدمشق من لديه المزيد من المعلومات حول ذلك. على أية حال، لا شك أن وُلْد علي بوسعهم معرفة أين ينتجع الرُّوَلَة، والرُّوَلَة بدورهم يمكنهم إرشادنا لمتابعة الطريق، على اعتبارهم أكثر من يتوغل إلى الجنوب من بين عرب عنزة.** اهـ.

محمد المذكور هو دليلهم محمد العروق التدمري.

نعم، فالرُّوَلَة لم تترك ديارها، بل كانت تذهب وتعود، رحلة الذهاب في الصيف إلى بلاد الشام، ورحلة العودة في الشتاء إلى بلاد الجوف والنفود الكبير والذي يسمى رمل عالج. ولا أحد يشبه الرُّوَلَة في طول المسير فهم كما قيل عنهم: (بعيدين الظَّعْنَة، وسيعين الطَّعْنَة).

وقالت في ص٥٥: ٧ كانون الأول: **قضينا هذا النهار برفقة السيدة ديكبي وزوجها مِجْوَل المُصْرَب، وهو رجل راق ومهذب، أعطانا الكثير من النصائح المهمة حول رحلتنا الآتية. وهما يملكان بيتاً رائعاً خارج المدينة، محاطاً بالأشجار والحدائق، يقوم ضمن حديقته الخاصة التي تجري بها السواقي الضيقة، وبها ممرات محاطة بالأزهارالإنكليزية المألوفة، وبالأخص الأزهار المعرشة. كما أن هناك بعض الحيوانات والطيور أيضاً، كالحمام والقماري التي ترفرف ما بين الأشجار، وبجعة تجثم بالقرب من البحرة وسط ساحة الدار، بحماية كلب حراسة شرس. وفي الإصطبل فرس جميلة، لكن ليس هناك سواها، لعدم الحاجة إلى أكثر من ذلك في المدينة.**

Scanned with CamScanner

القسم الرئيسي من الدار بسيط للغاية بمفروشاته العربية غير المتكلفة، غير أن هناك بناء منفصلا في الحديقة، مهيئا على طريقة غرف الاستقبال الإنكليزية، وبه مقاعد وأرائك وكتب ولوحات. ومن بين بعض الرسومات الجميلة والهامّة التي رأيتها في مصنف كبير، بعض المشاهد الجميلة لأطلال تدمر، رسمتها المسز ديبكي بالألوان المائية منذ عدة أعوام، حينما كانت تدمر أقل شهرة مما هي عليه الآن.

في أثناء تبادلنا أطراف الحديث جاء الشيخ، كما يدعونه بالعادة، ولو أن ذلك غير مصيب، على اعتبار أن أخاه الأكبر محمد هو شيخ المَصَارِبَة في الواقع. وكان من الطبيعي أن حديثنا انتقل بالتالي إلى شؤون البادية، التي تحتل بوضوح الحيّز الأكبر من تفكيره، والتي نعتبرها الآن دون شك على درجة كبيرة من الأهمية لنا نحن أيضاً. ولقد قدَّم لنا، بين جملة معلومات هامة، عرضاً لقبيلته المُصْرَب، التي لم نُوفها حقها في معرض تعدادنا للقبائل. اهـ.

ثم قامت تصف الشيخ مِجْوَل المُصْرَب فقالت: لست أجد بدأ من ذكر بعض الشيء عن مِجْوَل نفسه كما استخبرت منه، وهذا ما سيبرر الأهمية التي نعلقها على المعلومات المأخوذة من رجل مؤهل مثله من حيث كرم محتدة ومركزه ليكون موضع ثقة. فأما من حيث المظهر، يتميز مِجْوَل بجميع الصفات المميزة للعِرق البدوي النبيل: القامة قصيرة والقد نحيل، الكفان والقدمان دقيقتان، البشرة زيتونية داكنة، اللحية سوداء بالأصل ولكن الشيب بدأ يختطها الآن، وأما العينان فسوداوان وكذلك الحاجبان. اهـ.

ثم تطرقت بالوصف إلى الجنس العربي وصفاته الأصيلة متخذة من طرف خفي قبيلة عنزة نموذجاً فقالت: إنه من غير الصواب على الإطلاق الظن أن من بين العرب الأقحاح من له شعر أحمر أو فاتح اللون. صحيح أنه

Scanned with CamScanner

قد يصادف المرء رجالاً في الصحراء ذوي بشرة فاتحة نسبياً، ولكن هؤلاء قطعاً - إن لم أكن مخطئة - يحملون صفات غريبة، تدل على أعراق خليطة. وما من بدوي صافي الدم تراه بشعر أو عينين دون السواد، وكذلك لا تراه إلا بأنف معقوف غالباً. اهـ.

وقالت آن في ص٥٦ : أما والد مِجْوَل، فهو استثناء نادر من بين أفراد عشيرة عنزة، إذ انه يحسن القراءة والكتابة، ولقد هيأ لأبنائه عندما كانوا فتياناً رجلاً متعلماً لكي يلقنهم قواعد القراءة والكتابة. ولكن من بين تسعة أخوة، لم يكترث بالعلم سوى صاحبنا مِجْوَل. ثم كان زواجه المفاجئ بسيدة إنكليزية سبباً لابتعاده عن البادية شهوراً عديدة في كل مرة، لكنه لم يكن كافياً لتغريبه عنها؛ ورغم أنه اقتبس بعض الشيء من حياة المدن، فهو لم يأخذ أي شيء عن المدنية الأوروبية. إنه يختلف إلى المسجد المجاور لتأدية الصلاة الإسلامية يومياً، ولكن لا يمكن تمييزه بشيء عن أبناء الشّعْلان أو أبناء المِرْشِد في الحَمَاد.

من الواضح للعيان - أيضاً - تعلق نفسه بالبادية، وتشاطره هذا التعلق تلك السيدة التي تزوجها مشاطرة تامة، ولذلك أظن أنه عندما يلي الشيخة بعد أخيه الذي يكبره سناً بكثير، سوف لن يجدا مُتسعاً من الوقت للمكوث بدمشق. على أنهما سوف يتأثران بمجريات السياسة البدوية ولا شك، التي تسبب لمِجْوَل كما أعتقد الكثير من الاستياء، مما قد يحمله على التنازل عن الشيخة لصالح ابنه عَافِت؛ وعند ذلك قد يبقيان كما هما الآن، يقيمان تارة بدمشق، وطوراً بحمص، وتارة أخرى يتبدَّيان بالخيام، وسيبقيان دائماً بمعونة قبيلتهما التي يمدانها دوماً بمتطلبات الحياة البدوية من جهة، وبالبنادق والمسدسات والذخيرة من جهة أخرى. اهـ.

وفي ص٥٩ تحدثت عن نصائح الشيخ مِجْوَل في الطريقة الأفضل لرحلتهم وتناولت حدود بعض قبائل عنزة فقالت: **إنّ بوسع مِجْوَل بطبيعة**

Scanned with CamScanner

الحال إعطاءنا أفضل الإرشادات من أي شخص آخر بدمشق. وهو يقول إن خير ما نفعله لصالح رحلتنا أن ننطلق بادئ ذي بدء إلى جيرود، ونستشير محمد دوخي. فوُلْد علي، من بعد الرُّوَلَة، أكثر القبائل خبرة بالجهات الغربية من الصحراء، ولذا فعلينا استقاء المعلومات الصحيحة منهم، وهذا أقل ما ينبغي فعله. أما السَّبَعَة فهم لا يقاربون نواحي السِّرْحَان إطلاقاً، بل يلتزمون الجهات الشرقية للحَمَاد بوجه الإجمال، حتى أن غزواتهم تكاد لا تتوغل في تلك النواحي القاحلة. لقد وصل مِجْوَل في إحدى المرات إلى الجنوب حتى شارف تخوم النفود، ويذكر أنها وافرة الكلأ في الربيع. أما وادي السِّرْحَان كما يذكر، ففيه آبار ولكن دون مراع البتة. اهـ.

وفي ص٦٤ كتبت المؤلفة في الحاشية عن بعض أعمال حاكم الشام مدحت باشا فقالت: استمر حكم مِدْحَت بدمشق مدة عشرين شهراً، ولم يتميز عهده بسوى المكائد التي مضى بها. واستهل هذا العهد بعمل بطولي وهو إخضاع الدُّرُوْز المستقلين في حوران، وهم جماعة مزهرة ومسالمة، قام مِدْحَت بمعونة وُلْد علي بتمزيق شملهم وإبادة خضرائهم.. اهـ.

وسبب حادثة الدُّرُوْز، هو أن بعض سكان جبل العرب قاموا بمهاجمة قرية بصر الحريري، وقتلوا بعض القرويين، فطلب والي الشام مِدْحَت باشا المذنبين من رؤساء الدُّرُوْز، فرفضوا، وامتنعوا في الجبل المذكور، مشكلين تحالفاً مع عرب حَرَّة اللجاة، فقام مِدْحَت باشا بإرسال حملة عسكرية إلى الدُّرُوْز لتأديبهم تحت قيادة محمد باشا القبرصلي، فتصدوا لها وهزموها، وكبدوا هذه الحملة خسائر بلغت حوالي ٤٠٠ قتيل، فما كان من الدولة العثمانية إلا أن قامت بدعوة الأمير سَطَّام باشا بن حَمَد الشِّعْلان والشيخ محمد بن دُوْخِي بن سْمَيْر لمساعدتهم في ذلك. وكانت مساعدة ابن شِعْلان تتركز في تمويل ونقل

Scanned with CamScanner

الجيش العثماني إلى منطقة حوران. أما ابن سْمَيْر فقد اجتاح الدُرُوْز في رمضان ١٢٩٦هـ الموافق لشهر سبتمبر ١٨٧٩م. وبسبب اشتراك الرُّوَلَة ووُلْد علي من عنزة استطاعت الدولة العثمانية تأديب الدُرُوْز وكسر شوكتهم. ولعل دخول ابن شِعْلان وابن سْمَيْر في هذه الحرب ليس حُباً في الدولة العثمانية؛ إنما هو تصفية حساب قديم مع الدُرُوْز!! فاستغلا هذه الدعوة. والله أعلم[1].

وفي ص٧١ تحدثت عن مكانة بعض مشايخ قبيلة عنزة فقالت: **يُعد محمد دوخي بن سْمَيْر أعظم شخصية في البادية الشمالية الغربية بعد ابن شِعْلان. اهـ.**

وفي ص٩٤ تحدثت عن مدينة بُصْرَى المعروفة تاريخياً فقالت: **أظن كذلك أن أهل بُصْرَى قبل ذلك الحين كانوا يؤدون الجِزْيَة لابن شِعْلان، كما كانوا يؤدونها في زمن خلا للوهابيين في نَجْد. لكن مع ذلك ما زالت للرُّوَلَة بعض الصلات مع البلدة، لأن راعياً قابلناه عند النبع خارج البلدة مباشرة أخبرنا بأن ابن شِعْلان قد أورد جِمَاله في هذا النبع منذ أقل من شهرين. اهـ.**

التي تؤديها بُصْرَى لابن شِعْلان هي ضريبة (الخُوَّة) أو (الخَاوَة) بلفظ آخر. وهي ضريبة عينية أو نقدية تدفعها المدن والقُرى والقبائل والعشائر القليلة للأقوى مقابل حمايتهم والذود عنهم. وهي بخلاف الجِزْيَة التي يدفعها غير المسلمين الذين فتحت بلادهم عنوة للحاكم المسلم، وقد مر الحديث عنها. والجِزْيَة - أيضاً - مقابل حمايتهم والذود عنهم. فهي تتفق من حيث الهدف وتختلف من حيث المصدر الذي يدفعها.

---

(١) انظر طرفاً من أخبار حادثة الدُرُوْز في مذكرات مِدْحَت باشا، ص٥٤.

Scanned with CamScanner

وفي ص١٤٢ ذكرت أنهم قد تعرضوا لغارة من فرسان قبيلة الرُّوَلَة بعد أن وردوا على بئر الجُرَاوِي، لكنهم ذكروا أنهم بحماية الأمير سَطَّام بن شِعْلان، فتركهم قائد الفرسان، وقالت في هذا السياق: **لحسن الحظ كنا قد وقعنا بين أيدي أصدقاء. فلقد كان ابن شِعْلان، مضيفنا في العام الفائت (١٢٩٥هـ/ ١٨٧٨م)، فقد تعهد بحمايتنا حتى في قلب أعماق البادية، ولذا فلم يكن أحد من عشيرته ليجرؤ على التحرش بنا عندما يعلم ذلك. وفوق ذلك كان محمد تدمرياً، فلا يحق لأي رُوَيْلي أن يغزوه ويسلبه، لأن تدمر تدفع الجِزْيَة لابن شِعْلان، وللتدامرة بذلك الحق في حمايته.** اهـ.

وذكرت إن الذين أغاروا عليهم يدعون (رُوَلَة ابن ضباع)، والحقيقة لا يوجد في قبيلة الرُّوَلَة هذا الإسم، والذي يغلب على ظني أن الفرسان الذين أغاروا عليهم كانوا بقيادة الفارس الشيخ ضَبْعَان أَبَا الوُكَل، من شيوخ الكُوَاكِبَة من الرُّوَلَة، أو ضَبْعَان الوُهَيْف من كبار النَّصَيْر من المُرْعِض من الرُّوَلَة؛ لأنهما قد عاشا في عهد الأمير سَطَّام باشا. وهؤلاء كانوا فرسان الاستطلاع، حيث كانت بعض عشائر الرُّوَلَة في حالة رحيل، ووادي السِّرْحَان هو الطريق الاعتيادي للمُرْعِض والدُّغْمَان والكُوَاكِبَة.

والذي يؤيد ظني هذا قولها في نفس السياق: **اتضح أن الشيخ ابن ضباع ورفاقه كانوا فندة صغيرة في طليعة عشيرة الرُّوَلَة الرئيسة. جاؤوا ليستطلعوا إمكان وجود الكلأ في الوادي، فخيموا فيه على بضعة أميال فقط من آبار الجُرَاوِي حيث أمضينا الليلة الفائتة. وفي الصباح جاؤوا لاستقاء الماء فشاهدوا آثارنا على الرمال، فما كان منهم إلا أن تبعونا راكبين بأقصى سرعتهم ليدركونا. وكان من قبيل المصادفة أنهم وجدونا، ولفريد وأنا، منفردين عن بقية القافلة، فأغاروا علينا بمجرد أن لمحونا.** اهـ.

وفي ترجمة محمد غالب لهذه الرحلة والتي نشرها الشيخ حَمَد الجاسر رحمه الله، ذكر أنه ابن ضُبَيْعَان وأنه من الشَّرَارَات. وفعلاً ابن

ضُبَيْعَان من كبار الشَّرَارَات، لكن أن يكون هو فهذا مُستبعد؛ لأن دليلهم حمدان الشَّرَارِي لم يتعرف عليه، ولم تذكر السيدة آن بلنت شيئاً من هذا، ولم تذكر أنهم من الشَّرَارَات، بل ذكرت إنهم من الرُّوَلَة، والمعلومات واضحة وفي حدودها نستطيع أن نجتهد. والذي أنجاهم قولهم: إنهم بحماية ابن شِعْلان فتركوهم لهذا السبب فقط لا غير.

ثم بدأت تمدح هؤلاء الفرسان وتثني عليهم فقالت: **لقد راق لنا هؤلاء الفتية الرُّوَيْلِيُوْن، فبالرغم من سلوكهم الفظ معنا رأينا عليهم سيماء النبل. ولكم شعروا بالخزي لطعنهم إياي بالرماح، فأفاضوا في الاعتذار، هذا بأنهم لم يروا سوى شخص يرتدي عباءة، فلم يشكوا لحظة في أن لابسها كان رجلاً.** اهـ.

وفي ص١٥٤ تحدثت عن الحالة السياسية في الجوف عندما وصلت إليها فقالت: **والجوف، بحسب ما تيسَّر لنا معرفته من محمد - حيث إننا لا نحب أن نطرح من الأسئلة أكثر مما ينبغي - كانت إقطاعاً لابن شِعْلان، شيخ الرُّوَلَة، وما برحت تدفع الجِزْيَة لسَطَّام؛ لكن منذ حوالي العشرين عاماً قام مِتْعِب بن رَشيد بغزوها، وتم اعتبارها من ذلك الحين جزءاً من نَجْد. هذا ولقد جرى عصيان مسلح أو اثنان، لكن تم إخمادهما بعنف، مما جعل أهل الجوف الآن يخشون من رفع صوتهم في وجه الأمير. وفي أثناء إحدى هاتين الثورتين، قام مِتْعِب بقطع عدد هائل من أشجار النخيل، وأنزل خراباً كبيراً بالبلدة، مما يكرههم الآن على الصبر على هذا الوضع برغم أنوفهم.** اهـ.

ثم قالت: **منذ أربعة أعوام خلت، كما قالوا لنا، قام والي دمشق التركي بتجريد حملة عسكرية ضد الجوف كما كنا سمعنا ذلك في كَاف، فقامت الحملة باحتلالها لبضعة أشهر؛ غير أن ابن رشيد أرسل يتشكى حول ذلك للسلطان، وهدد بطردهم وبالتوقف عن إرسال الجِزْيَة التي يؤديها للشريف في المدينة المنورة إن لم يتم سحب العسكر وردهم بشكل ناجز**

Scanned with CamScanner

تماماً. وهذه الجِزْيَة يدفعها الأمير عن ممتلكاته التابعة له، مثل كَاف وتَيْمَاء والجوف، التي لم يقم الأتراك مراراً بمحاولة التدخل في شؤونها. وهو برغم ذلك مستقل عن سلطة السلطان، وليس يقر بالتبعية لأي كان وفي أي مكان. أما عظمة ابن سُعُود والوهابيين فصارت اليوم في ضمير الماضي، وأمسى محمد بن رشيد الآن أقوى حاكم في جزيرة العرب. اهـ.

كانت هذه الرحلة عام ١٢٩٦هـ/ ١٨٧٩م، وكانت الدولة السعودية الثانية على وشك الأفول، والذي حصل بعد ذلك عام ١٣٠٩هـ/ ١٨٩٢م بانسحاب آخر حاكم من الرياض وهو الإمام عبد الرحمن بن فيصل بن تركي آل سُعُود رحمهم الله جميعاً. فصار حاكم نَجْد الأوحد هو ابن رشيد.

وفي ص١٥٥ تحدثت عن علاقة الأمير محمد بن عبد الله بن رشيد مع بعض مشايخ قبيلة عنزة فقالت: **هذا وتربطه بابن هَذَّال وابن مِعْجِل روابط الصداقة، بينما تسوء علاقاته مع سَطَّام الشَّعْلان وشيوخ عشيرة السَّبَعَة. اهـ.**

وفي ص١٥٨ تحدثت عن كرم أهل الجوف فقالت: **في جميع الدور التي زرناها تم تقديم الطعام لنا وإضافتنا، وكان لزاما علينا شرب عدد لا نهاية له من فناجين القهوة المطيبة بالهيل، وأكل ما لا حدّ له من التمر، من نوع (حُلْوَة الجوف)، التي يقولون هنا إنها خير تمور الجزيرة العربية؛ ولهذا التمر مذاق ممتاز، لكن ازدياد حلاوته ودَبَقِه يجعله غير ملائم للاستعمال العام. اهـ.**

وفي ص١٥٩ وصفت عملية إعداد القهوة في الجوف فقالت: **أما تحضير القهوة، فهو هنا مماثل بالضبط لنفس عملية تحضيرها لدى بدو الشمال، ما عدا أنها هنا أكثر إضجاراً. فأولاً هناك عملية فرز مطولة لحب**

Scanned with CamScanner

البُنّ، الذي هو أصغر حجماً وأفتح لوناً مما لدينا في أوروبا؛ ثم بعد عملية التحميص، يجري دق البُنّ مطولاً في المِهْبَاش (النِّجْر)، مع أن البُنّ لا يمكن دقة أبداً إلى مسحوق ناعم؛ يلي ذلك عملية الغسل الاعتيادية المطولة وتنظيف دَلّات (دِلال) القهوة، وهي خمس أو ست، وأخيراً تأتي عملية الغلي الحقيقية، التي تتم ثلاث مرات. اهـ.

وفي ص١٦٧ تحدثت عن هدية قدمتها لأحد الأطفال من أبناء العروق فقالت: **أعطيت مُطْلَقَاً كَنْزَة حمراء صغيرة كنت قد ابتعتها لمنصور بن سَطَّام عندما كنا ننوي زيارة الرُّوَلَة. اهـ.**

منصور بن الأمير سَطَّام باشا الشِّعْلان، توفي وهو طفل صغير، وأمه هي الشيخة جوزاء بنت الأمير صَحَن بن الأمير الدَّرَيْعِي بن مشهور الشِّعْلان. طلقها الأمير سَطَّام باشا وتزوجها الأمير النُّوْرِي بن هَزَّاع الشِّعْلان وأنجبت له الأمير نَوَّاف حاكم الجوف وشمال الجزيرة العربية.

وفي ص٢٦٤ وعندما كانت في ضيافة الأمير محمد بن رشيد تحدثت عن أسرته وفي ثنايا كلامها وردت أسماء بعض مشاهير نساء قبيلة عنزة فقالت: **قام الأمير في أثناء جلوسي بزيارتين للقهوة، وفي كل مرة كانت النساء كلهن، عدا عَمْشَة، ينهضن ويبقين واقفات إلى أن ينصرف. أما عَمْشَة فكانت تكتفي بحركة أو انحناءة خفيفة وتبقى في مكانها، بينما يقف زوجها قبالتنا وهو يتحدث معنا. كان يوجه معظم كلامه لي، ويتحدث بالطريقة الصبيانية التي يفعلها أحياناً. استعلم عن رأيي بزوجاته، فيما إذا كُنَّ أجمل وأكثر سحراً من زوجة ابن شِعْلان جَوْزَة، أخت الحُمَيْدِي بن مَشْهُوْر، أو من زوجته السابقة تُرْكِيَّة بنت جَدْعَان، التي تركته ورجعت إلى بيت أبيها.**

خلال الساعات الثماني والأربعين منذ وصولي إلى حائل، سألني

الأمير عدة أسئلة عن هاتين المرأتين، وقد أجبت للمرة المئة بأن تُرْكِيَّة جميلة ولطيفة، وبأن جَوْزَة أجمل إلا أنها مستبدة. ولقد أصر على المقارنة بين الأسرتين. اهـ.

الأولى هي: الشيخة جَوْزَاء بنت الأمير صَحَن بن الأمير الدَّرَيْعِي بن مَشْهُوْر بن مُنِيْف بن غُرَيْر بن محمد الشِّعْلان. طلقها الأمير سَطَّام بعدما أنجبت له منصورًا الذي توفي وهو طفل صغير. ثم تزوجها الأمير النُّوْرِي بن هَزَّاع الشِّعْلان، وأنجبت له الأمير نَوَّاف حاكم الجوف وشمال الجزيرة العربية.

والثانية هي: الشيخة تُرْكِيَّة بنت الشيخ جَدْعَان بن نايف بن جعثم بن تُركي بن مِقْحِم المُهَيْد من ضَنَا محمد من قبيلة الفِدْعَان من ضَنَا عُبَيْد من ضَنَا بِشْر من قبيلة عنزة الوائلية. تزوجها الأمير سَطَّام باشا الشِّعْلان وأنجبت له ممدوح وخالد.

وما فعله الأمير محمد بن عبدالله بن رشيد وكثرة اسئلته للسيدة آن بلنت ما هو إلا المنافسة والغيرة الشديدة من الأمير سَطَّام باشا ومن أسرة الشِّعْلان.

وفي ص٢٩٤ تحدثت عن خيل الأمير محمد بن رشيد وتناولت في الحديث خيل قبيلة عنزة مفضلة له على غيرها فقالت: **هناك صَقْلاوِي قِدْرَان رمادي من ابن نديري من عشيرة القُمُصَة العنزية، إنه مثال متواضع لتلك السلالة الرائعة، إلا أن البدو يحترمونه لشيوعه هنا بالرغم من عدم تواجد صَقْلاوِي قِدْرَان صاف في نَجْد الآن. من المثير تقدير هذا الحصان هنا، إذ تثبت الحقائق شدة اعتبار خيول عنزة في نَجْد. وكلما شاهد المرء خيول نَجْد، زاد اقتناعه بتفوق خيول عنزة من حيث السرعة، وبالرغم من افتخار الجميع هنا بالكُحَيْل النَّجدي، فمن المُسَلَّم به تميز خيول عنزة عليه.** اهـ.

Scanned with CamScanner

وفي ص٢٩٨ ذكرت القبائل المشهورة باقتناء الخيل فقالت: **وتعد مُطَيْر وبنو خالد والظَّفِيْر وشَمَّر الرعاة الأساسيين لخيول نَجْد، أما عنزة التي تعتبر من افضل القبائل التي تمتلك سلالات ممتازة، فإنها نزحت من نَجْد، إذ بدأت هجرتها شمالاً منذ مئتي سنة، ومنذ ذلك الحين وهي تتابع تنقلها بهجرات متعاقبة، إلى أن بارحت موطنها الأصلي تماماً. ولعل المنزلة التي اشتهرت بها خيول نَجْد في الشرق قد اكتسبتها من خيول عنزة والتي تتباين معه الآن.**

كان ضَنَا بِشْر العنزيون ينزلون بتخوم خَيْبَر على الطرف الغربي من النفود، والرُّوَلَة في جنوب الجوف، أما العْمَارَات (الاعْمَارَات) ففي أقصى الشرق، وكانوا غالباً يمدون سورية وبغداد وإيران بالخيل النَّجْدِيَّة فيما مضى، وسلكت بعض فئات العشيرة طريقها إلى أقصى الجنوب، إذ أن آل سعود أنفسهم هم فخذ من عَنزة. ولذلك كان لديهم خير السلالات الصافية. في الشمال وحتى اليوم الحاضر تسمي عنزة سلالات الأفراس التي جلبوها من نَجْد باسم نَجْدِي، بينما يدعون سلالات الأفراس التي يأسرونها من قبائل الشمال باسم شمالي. اهـ.

غادروا حائل وفي ص٣٢٩ تحدثت عن مستقبل طريقهم فقالت: **سنلتقي الظَّفِيْر وشيخم ابن سُوَيْط، الذي يُقال: إنه يملك عُطْفَة كتلك التي يملكها ابن شِعْلان، لكنها تنصب كالخيمة عند خوض المعارك. ولدى عشيرة العِجْمَان، بالقرب من الكويت، عُطْفَة لها ريش نَعَام، وفتاة تُنْشِد في أثناء القتال. اهـ.**

Scanned with CamScanner

أرض جلعاد
رحلات في لبنان وسورية والأردن وفلسطين
١٢٩٧هـ/١٨٨٠م



ترجمة وتعريب: د. أحمد بن عويدي العَبَّادي.

الناشر: دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عَمَّان، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م.

عدد الصفحات: ٤٧٦ صفحة، ملحق (مشروع الاستيطان اليهودي بفلسطين).

الرحَّالة والرحلة[(١)]:

كتاب أرض جلعاد The land of Gilead الذي كتبه الرحَّالة اليهودي البريطاني: لورنس أوليفانت، عندما قام برحلته إلى بلاد الشام: لبنان وسورية والأردن وفلسطين، عام ١٢٩٧هـ/ ١٨٨٠م، وصدر الكتاب في طبعته الأولى والنادرة عام ١٣٠٦هـ/ ١٨٨٩م.

أهدى المؤلف كتابه إلى الأميرة البريطانية كريستين، أميرة بريطانيا العظمى وأيرلندا في حينه. وذلك تقديراً لها على مشاعرها العميقة الحارَّة، وتحمّسها واهتمامها بجهود المؤلف في إقامة الاستيطان اليهودي في

---

(١) منقول من كلام المترجم، ص٧، وص١٣، بتصرف.

Scanned with CamScanner

فلسطين. وذلك واضح أن الاهتمام البريطاني الرسمي لم يبدأ بِوعد بلفور المشؤوم عام ١٣٣٦هـ/ ١٩١٧م.

ورغم ما في الكتاب من حقد على الإسلام والمسلمين والنصارى العرب والبدو والعشائر، وأنه لا يتحدث إلا عن السلبيات، ويغمض عينه وقلمه عن الإيجابيات إلا أن في الكتاب مادة أدبية على مستوى رفيع، وفيه - أيضاً - مخططاً واضحاً وكاملاً وعميقاً ودقيقاً، ليس للاستيطان اليهودي فحسب؛ بل ولطريقته، والمخططات اللازمة للقيام به، وفلسفته... كما يبيِّن سعي المؤلف الحثيث للقيام بذلك مع المسؤولين الأتراك في دمشق واستنبول، حيث تظهر الدولة العثمانية مهلهلة ضعيفة متناقضة، مخترقة من قبل أعداء الأمة والعروبة والإسلام.

Scanned with CamScanner

قبيلة عنزة
في رحلات أوليفانت



تحدث لورنس أوليفانت عن أحوال القبائل في شرق نهر الأردن عام ١٢٩٧هـ/ ١٨٨٠م بشيء من الاختصار، ونقل لنا تصريحات أحد المسئولين الأتراك في شمال الأردن عن قبيلة عنزة، ورأيه فيهم. قال لورنس في ص١٣٩: **لقد أجرينا محادثات مهمة مع القائمقام في مواضيع العُرْبَان، وهو صاحب خبرة مكثفة معهم. لقد كان رأيه حصيفاً شأن كل رجل ذكي لديه معلومات عن هذا الموضوع، وهو يرى أن منطقة شرق الأردن لا يمكن أن تنضوي تحت لواء الأمن والنظام والطاعة للدولة، إلا إذا انقطع درب الحجاج عبرها من دمشق إلى مكّة المكرمة ذلك أن هذا الطريق يشكل في الديار الأردنية عبئاً على الدولة، واستنزاف لمواردها، حيث تدفع الخزينة مائة ألف دينار ذهبي في كل عام يذهب أكثرها إلى جيوب العُرْبَان، الذين يزودون القوافل بالجِمَال فضلاً عن المبالغ المدفوعة ضمن مجال الابتزاز... وإذا ما جرت محاولة من الدولة لإخضاع العُرْبَان للقانون أو لمعاقبتهم على لصوصيتهم، فإنهم ينتقمون من الحكومة برفضهم تزويد الحجاج بالجِمَال، أو بتأخير مرورهم (أي الحجاج) إلى نقاط الحاج التي تخلو من الحماية، وبالتالي عرضة للهجوم حتى يتم دفع الكمية المطلوبة من المستلزمات، وهم يفعلون ذلك لإلحاق الأذى الذي**

Scanned with CamScanner

يستطيعونه ضد سلطان الحكومة للتعويض عما لحقهم منها (أي الحكومة) من البطش والتنكيل.

إن مثل هذه العقلية والسلوكيات تعطيهم (أي قبائل شرق الأردن) نمطاً من الاستقلالية مما يجعل من المتعذر ضبطهم؛ ولكنهم إذا ما حُرموا من فرصتهم بوضع العصا في عجلة الحكومة، فإن اعتمادهم على المرعى يوقعهم ثانية تحت عصا الدولة، ذلك أن المراعي الجيدة في فصول محددة من السنة تقع تحت سيطرة الجيش التركي، وذلك يعني أنهم ملزمون حينها بالخضوع للقانون.

إن المقصود بحديثي الآن (ولا زال الحديث للقائمقام) هي تلك العشائر التي في شرق الأردن، والتي اعتادت أن تغزو فلسطين باستمرار وبأعداد كبيرة، أما الرحَّالة الذي يريد استكشاف المنطقة الممتدة إلى الشرق من بلاد حوران، حيث يتعذر إرسال القوات العسكرية بحيث تستطيع العشائر أن تتخذ من موسم الحج وسيلة للابتزاز لتحصيل الأموال، فإنه (أي الرحَّالة) سيجد القبائل الأخرى هناك لا تعرف القانون ولا تعترف به (أي قانون الدولة العثمانية). كما هو شأنهم منذ كانوا في الجاهلية الأولى، لكنهم في حقيقة الأمر لا يستطيعون الحيلولة دون تطوير منطقة غنية ومنتجة من التطوير بالصناعة الأمينة، كما هو الحال في الجولان وعَجْلُوْن والبَلْقَاء.

وإذا ما تمّ طرد هذه القبائل من هذه المواقع فإنهم يتحركون إلى الصحراء يجوبونها، ويقاتلون بعضهم بعضاً من أجل السيطرة على الواحات، دون أن يؤثر ذلك تأثيراً جاداً على ازدهار المنطقة (أي جلعاد) أو يعيق حركة التطور فيها، ويمكن القول - دونما تحفظ -: إن إلغاء طريق الحاج عبر الأردن سيؤدي، خلال وقت قصير، إلى نهوض عملية الإصلاح

Scanned with CamScanner

والتجديد في شرق الأردن، وبالتالي الانعتاق من حالة العزلة التي تعيشها الآن (١٢٩٧هـ/ ١٨٨٠م).

أما قبيلة عنزة فهي أكثر قوة بكثير مما هي عليه سائر القبائل فيما بين الأردن وبلاد ما بين النهرين، وهي تهيمن على منطقة تبلغ مساحتها حوالي ٤٠,٠٠٠ ميلاً مربعاً، وبمقدورها أن تعزز أكثر من مائة ألف مقاتل من فرسان وهَجَّانَة لخوض أية معركة، وتنقسم عنزة إلى أربعة أقسام كبيرة يشكل كل قسم منها قبيلة تنقسم بدورها إلى أقسام وبطون وأفخاذ أخرى. ومن هؤلاء وُلْد علي، وهم أكثر بطون عنزة غارة على شرق الأردن، وتحتدم بينهم وبين بني صَخْر معارك من حين إلى آخر، كما أنهم يزودون الحجاج بالقسط الأكبر من الإبل، أما شيخهم فإنه يحظى بتأثير كبير في دمشق، وبخاصة أن معظم شيوخ العُرْبَان يقضون ردحاً من الزمن في حاضرة الخلافة الإسلامية زمن بني أمية، وإذا تعذَّر حضورهم تركوا ممثلين لهم فيها.

وهناك بطن آخر من بطون عنزة، وهي قبيلة مهمة (الرُّوَلَة)، تتخذ ديرتها على تخوم الحدود السورية، حيث عاش بينهم القائمقام الحالي لعَجْلُوْن (مدار حديثنا تَوّاً). وقد أخبرنا أنهم (أي الرُّوَلَة) الوحيدون الذين لا زالوا يحتفظون بالمَرْكَب War-Cradle الذي كانت سائر القبائل تملكه وخسرته، إلا الرُّوَلَة، والمَرْكَب عبارة عن مركبة شبيهة بالسيَّارة وتُسمى «العُطْفَة»، ويتألف من ريش النعام، وقبل أن تتحرك القبيلة إلى الغزو فإنهم يختارون أجمل فتاة في القبيلة وهي ترتدي أجمل الملابس الحريرية الزاهية أو تتزين بها، ثم تركب هودج العُطْفَة (المَرْكَب) الذي يوضع على ظهر أحد الجِمَال، الذي يكون له رَسَنٌ (مِقْوَدٌ) من خيوط الحرير ليوضع في يد الفتاة التي تمتطيه (المذكورة أعلاه)، ثم يبدأ محاربوا القبيلة الاستعراض مروراً من أمامها، عندئذ عليها أن تختار أحد هؤلاء الفرسان ليقود لها جملها ويصبح قائد الجيش الغازي (عقيد القوم) الذي سيصحبون المَرْكَب.

Scanned with CamScanner

ويفترض فيه أن يُبلي بلاء حسناً في القتال. وإذا ما خسرت القبيلة هذه المعركة، وتمَّ أسر المَرْكَب، فإنه يَحْرُمُ على القبيلة بعدها من امتياز امتلاك هذا الهودج أو أي مَرْكَب للعُطْفَة. ويقال إن الرُّوَلَة هي القبيلة الوحيدة التي لا زالت تحتفظ بهذا الشرف المميز وذلك بعدم أسر مركبها طيلة تاريخها وحروبها. وقد أخبرني أحد العُرْبَان الذين تكلمت إليهم عن الموضوع فيما بعد أنه يستحيل على الرُّوَلَة أن يفقدوا مركبهم لأنهم لا يسرفون في تقديمه في المعارك ولا يخاطرون بتعريضه للأسر في المعركة. اهـ.

مَرْكَب الحرب أو عُطْفَة الرُّوَلَة War-Cradle: لا تظهر إلا في المعارك الكبيرة. حيث يخرجها ابن شِعْلان، أمير عشائر وقبائل الرُّوَلَة ومن يتبعهم للساحة، ومن ثم تنتخب إحدى فتيات الرُّوَلَة لتجلس على المَرْكَب، وعادة تكون من الأسرة الحاكمة، أي من الشِّعْلان، والفرسان والهَجَّانَة في أثناء المسير يحيطون بها من جميع الجهات، وعند الاشتباك مع العدو تبدأ هذه الفتاة بتشجيع المقاتلين رافعة صوتها بذلك، وتزغرد للشجاع منهم فقط!! حتى تبعث روح الغيرة في البقية ليفعلوا مثله.

Scanned with CamScanner

ما وراء الأردن.. حياة ومغامرات
١٣٠٧هـ/١٨٩٠م



تعريب: د. أحمد عويدي العَبَّادي.

الناشر: الأهلية للنشر والتوزيع، عَمَّان، ٢٠٠٥م.

عدد الصفحات: ٢٢٤ صفحة.

الرحَّالة والرحلة:

تجول روبنسون ليز في بلاد الشام كلها وكتب رحلته هذه، والتي قَدَّر وقتها مترجمها الدكتور أحمد العَبَّادي بعام ١٣٠٧هـ/ ١٨٩٠م، وقد كُتبت - حسب قول الدكتور أحمد العبَّادي - بلغة ركيكة أتعبته عند التعريب والترجمة. والحقيقة هذا يترجم لنا ثقافة وعلم الرحَّالة نفسه، لكنها لا تخلو من فائدة بحسب مشاهدات روبنسون التي نقلها والتي سوف استعرضها وأوضح ما يحتاج إلى توضيح إن شاء الله.

Scanned with CamScanner

قبيلة عنزة
في رحلة روبنسون



قال روبنسون عن مضارب البدو في ص٢٧: تتباين مضارب البدو حجماً وعدد خيام حسبما هو موقع ومجد القبيلة. فعلى سبيل المثال، نجد أن قبيلة شَمَّر الكبيرة التي تقطن الصحراء السورية، وتمتد ديرتها ومضاربها إلى نهر الفُرَات، لم تخضع لتعداد موحَّد، بل متقطع لا يشملها كلها؛ ولكن الرقم الذي يذكر غالباً في مجالس القبائل التي تصغرها عدداً وعدّة، يصل إلى خمسين ألف فارس، وهو عدد يمكن وصفه بالمبالغ فيه. أما وُلْد علي، وابن شِعْلان، والرُّوَلَة فهي القبائل الأكبر التي تجوب أرجاء تخوم أرض الميعاد، وهم يخيمون بين حين وآخر في هذه الديار في فصل الصيف، بل ويَدَّعون حقهم الموروث في جزء منها.

وتتوزع هذه القبائل في مضارب مختلفة تشبه البلدات الصغيرة، حيث يأتيهم التجار من دمشق يحملون إليهم (إلى العُرْبَان) البضاعة، ويزودون رجال هذه القبائل بكماليات الحضارة مقابل ما يأخذه هؤلاء التجار من مواشي البدو ومنتجاتها. اهـ.

قبيلة عنزة الوائلية من أكبر القبائل العربية على الإطلاق، وهم ينتشرون في الحجاز وشمال الحجاز ونَجْد والجوف ودول الخليج

العربي والعراق وبلاد الشام. ويذكر بعض الباحثين أن منهم أعداد كبيرة في مصر والسودان وشمال أفريقية، في ليبيا وتونس والجزائر والمغرب وموريتانيا. وهي القبيلة الوحيدة التي أمتدادها الجغرافي بهذا الشكل. وقد تأتي شَمَّر بعدها من حيث العدد.

والرحَّالة من شهرة ابن شِعْلان يجعله في عداد القبائل التي يذكرها؛ بينما فَخْذ أو أسرة الشِّعْلان هم جزء من المُرْعِض من الرُّوَلَة من الجِلاس من ضَنَا مُسْلِم من قبيلة عنزة الوائلية. وهم يترأسون عشائر الرُّوَلَة الجِلاسية. فابن شِعْلان هو أمير الرُّوَلَة والجِلاس.

وعندما نقول: الرُّوَلَة والجِلاس فنحن لا نفرق بينهما فالرُّوَلَة جزء من الجِلاس كما هو معروف؛ لكن لشهرة الرُّوَلَة نفردها لوحدها عند الكلام. إذ بعض النسَّابة يفردون عشائر المْحَلَف (الامْحَلَف) الجِلاسية عن الرُّوَلَة؛ لذلك نقول: الرُّوَلَة والجِلاس. وإلا المْحَلَف (الامْحَلَف): السُّوَالِمَة والأَشَاجِعَة والعَبَادِلَة، أحد أقسام قبيلة الرُّوَلَة الرئيسة. ومعروف أن الرُّوَلَة يكتفون بلقبهم الأدنى (الرُّوَيْلِي) دون لقبهم الأعلى (العنزي)؛ وذلك لشهرة قبيلة الرُّوَلَة عن غيرها من قبائل عنزة.

ويكمل حديثه عن النظام القبلي حيث قال في ص٢٨: **إن درجة وأهمية القبيلة لا تتوقف دائماً على عدد رجالها، حيث أن تأثيرها يعود أحياناً إلى القيمة الاستراتيجية لمواقع منطقتها، كما أن قربها من الطرق الهامة في المنطقة يعطيها أهمية عريضة في الحفاظ على قوتها. ويتم تعداد القبائل بطريقتين، الأولى: حسب عدد خيامهم. والثانية: حسب قوتهم القتالية، أي عدد الفرسان الذين يمكن أن يأتوا إلى ميدان المعركة.** اهـ.

وتحدث عن الغزو والغارات فقال في ص٢٩: **يتم ترتيب الغزو أو**

Scanned with CamScanner

الغارة لغايات الحصول على الأسلاب، وإن أكثر الساعات المناسبة للقيام بذلك، هي الساعات التي تسبق الفجر، ورغم أن الحرب قد تعلن بين قبيلتين، إلا أنهما لا تشتبكان في عداوات نشيطة. وقد يتم التهديد ثم يليه القتل أو الغزو، مما يضع الطرفين في حالة تأهب طويل، مشوب بالرِّيبة والشك التي تنتهي في نهاية المطاف إلى نشوب معركة بينهما. ولقد كانت المعركة الكبرى الأخيرة إلى الشرق من قلعة الزَّرْقَا في عام ١٨٨٥م (١٣٠٢هـ) ما بين الرُّوَلَة وبني صَخْر. اهـ.

ويضيف: **وقد تقع المعركة لدى الأمم المتحضرة في أي مكان؛ ولكن ذلك مختلف عند البدو، حيث يستوجب الأمر تعيين موقعها سلفاً، بحيث يكون الزمان والمكان معروفاً سلفاً للطرفين.** اهـ.

هذه الصورة التي يذكرها روبنسون هي من باب التحدي بين الطرفين، وهو تحديد مكان وزمان المعركة. أما المعارك التي تأتي عرضاً أو لم يخطط لها فهذه لها حالتها الخاصة، وهي قد تحصل بين الناس فيما سبق وليست حصراً على الأمم المتحضرة كما يقول.

وتحدث روبنسون عن حقوق المستجير (الدخيل) في ص٥٧: **وأما عند عشائر شرق الأردن، فإن الدخيل إذا ما جاء إلى الشيخ واستغاث به قائلاً: أنا دخيل الشيخ... الخ، وينزع عقاله عن رأسه، ويسقط مغشياً عليه عند أقدام صاحب الدم، فإن الأمر يستوجب على الحضور أن يقوموا بواجبهم في إخبار الشيخ الذي تم الاستنجاد باسمه الذي يضطر للحفاظ على شرفه، وذلك باتخاذ اجراءات وخطوات فورية للانتقام من الشخص الذي لم يحفظ استجارته.** اهـ.

ويضيف في هذا الإطار: **أتذكر ذات مرة، أنني التقيت فلاحاً على أحد تلال جلعاد وذلك بجوار أم قيس (جدارا)، وهو يحمل عَلَماً أبيض**

Scanned with CamScanner

على رأس رمحه، مردداً وهو يسير على الطريق: (هذا شرف شيخ مشايخ وُلْد علي). وهنا ألقيت عليه التحية. لقد أخبرني الرجل قبل ذلك بوقت أنه كان مضطراً لمغادرة قريته فَارّاً إلى أحد مضارب البدو، وذلك على أثر قتله لجاره بعد مشاجرة بينهما. ولكن شقيق القتيل لحق القاتل، إلى ديار تحت سيطرة شيخ مشايخ وُلْد علي. وقبل أن يأخذ صاحب الدم بثأره، بعد أن أدرك غريمه أو يكاد صاح القاتل قائلاً: أنا دخيل الشيخ محمد السَّمَيْر، وحيث صدف وجود شهود على هذا الإعلان، فإن السلام كان من نصيبه. لقد كان نطق اسم شيخ مشايخ وُلْد علي حماية له. وبقي عليه أن يشهد للناس في هذه الديرة على قوة الزعيم الكبير. اهـ.

هذه الطريقة تُسمى: (التبييض). وهي أن يرفع أحدهم راية بيضاء لمن له في رقبته معروف، فرد أو جماعة، ويذكره ويذكر اسم قبيلته ومعروفه، ويطوف بهذه الراية البيضاء على الناس. وهي من باب رد المعروف كعادتهم في ذلك الزمان، وهي عادة جميلة قد اندثرت.

وفي ص١٦٣ قال: **لا بد من القول أن المنطقة في جنوب حوران، وشرق مؤاب وجلعاد وجنوب باشان ليست تحت الحكم التركي إلا إسمياً، حيث تقع تحت سيطرة قبائل البدو وتعود إليهم، وتظهر في الخرائط مغطاة بلون شاحب، أو بلون يضع حدوداً للصحراء في شرق الأردن.** اهـ.

الحقيقة هذا هو واقع الدولة العثمانية للأسف، بل إن بعض المدن والتي هي في حكم العواصم لبعض الأقاليم العربية قد وصل الخطر إليها، ولا تستطيع أن ترده، وذلك بسبب ضعف الدولة العثمانية!! وضعف الحاكم الإداري المباشر لإدارة الولاية!! مثل ما حصل في بغداد في أثناء زيارة الرحَّالة فريزر لها، وقد مر معنا ما قاله في الصفحات السابقة.

وفي يوم من أيام الرحلة تحدّث عن اشتباك حصل بين الرُّوَلَة

Scanned with CamScanner

والدُّرُوْز حيث قال في ص١٨٥ : وقبل أن تغيب شمس هذا اليوم، وجدنا أنفسنا أمام معركة حقيقة، بين الرُّوَلَة والدُّرُوْز. فقد كان خمسة عشر بدوياً من قبيلة الرُّوَلَة يبحثون عن مكان يخيّموا فيه قرب بلدة ذيبين الدَّرْزِيَّة، فما كان من شيخ القرية إلا وركب جواده يرافقه ثلاثة رجال، واتجهوا إلى حيث رجال الرُّوَلَة، وطلبوا من هؤلاء البدو أن يبتعدوا عن الموقع إلى أي مكان آخر. وهنا نشبت معركة، وتم قتل واحد من الدُّرُوْز، وأخذ الخيول المتبقية وهرب الرجال الثلاثة مشاة، ناجين بأرواحهم. وقد سمعنا فيما بعد ونحن في بُصْرَى وقنوات أن خمسين درزياً استعادوا الخيول بعد معركة حامية الوطيس مع الرُّوَلَة، وأن ثأراً استعر أواره بين الطرفين مما يعني مزيداً من القتلى من كليهما. اهـ.

الشام قبل مئة عام
رحلة الإمبراطور غليوم الثاني إمبراطور ألمانيا وقرينته إلى فلسطين وسورية
١٣١٦هـ/١٨٩٨م



سجل وقائعها: الصحفي خليل سركيس.

اعتنى بها وأعاد بعثها من جديد: حسن السماحي سويدان.

الناشر: دار القادري، دمشق، ط٢، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

عدد الصفحات: ٢٠٧ صفحات.

نبذة عن الكاتب[١]:

هو خليل بن خطار سركيس، الأديب والصحفي الكبير، صاحب امتياز جريدة (لسان الحال) ومجلة (المشكاة). ولد في عبية في لبنان عام ١٢٥٨هـ/ ١٨٤٢م. درس بالمدرسة الأمريكية ببيروت.

تعلم وأتقن صناعة الطباعة عام ١٢٧٦هـ/ ١٨٦٠م. وعني بإصلاح الطباعة وتجميلها، وكان أول من صنع أمهات الحرف الفارسي. ثم أنشأ مطبعة مع سليم البستاني سماها مطبعة التعارف. وبعد مدة انفرد في العمل وسَمَّى مطبعته المطبعة الأدبية.

(١) من ترجمة المحقق للمؤلف بتصرف واختصار.

أصدر في بيروت جريدة: لسان الحال اليومية. ظهر العدد الأول منها يوم الخميس ١١/ ١٠/ ١٢٩٤هـ الموافق ١٨/ ١٠/ ١٨٧٧م، وهي جريدة سياسية تجارية علمية زراعية صناعية، واستمرت تصدر ٣٨ عاماً، ثم أصدر مجلة المشكاة.

وفي عام ١٣٠٩هـ/ ١٨٩٢م زار استنبول، وله في هذه الرحلة كتاب سَمَّاه: رحلة مدير اللسان خليل سركيس إلى الآستانة وأوربة وأمريكة.

وله عدة مؤلفات منها: رحلة الإمبراطور غليوم الثاني إمبراطور ألمانيا وقرينته إلى فلسطين وسورية، وتذكرة الخواتين وأستاذ الطباخين، سِفْر الدموع، تاريخ أورشليم.

توفي خليل سركيس في بيروت عام ١٣٣٣هـ/ ١٩١٥م ودفن بها.

ملخص الرحلة[1]:

وصل إمبراطور ألمانيا غليوم الثاني وقرينته إلى ميناء حيفا في الساعة الثانية والنصف من بعد ظهر الثلاثاء ١٠/٦/١٣١٦هـ الموافق ٢٥/ ١٠/ ١٨٩٨م، وانتهت جولته بمغادرته ميناء بيروت في الساعة الخامسة من صباح يوم الأحد ٢٩/٦/١٣١٦هـ الموافق ١٣/ ١١/ ١٨٩٨م، أي استغرقت الرحلة (٢٠) يوماً، زار خلالها الإمبراطور ومرافقوه: حيفا، ويافا، والقدس الشريف، وبيروت، ودمشق، وبعلبك. وكان استقبال دمشق واحتفالها بالإمبراطور حدث الأحداث في هذه الرحلة.

وقد رافق الإمبراطور الصحفي العربي الوحيد الأستاذ خليل سركيس، وقد نشر تفصيلات الرحلة في جريدته لسان الحال، ثم جمعها في كتاب وطبعه في نفس السنة ١٣١٦هـ/ ١٨٩٨م.

---

(١) من مقدمة المحقق بتصرف واختصار.

Scanned with CamScanner

قبيلة عنزة
بقلم خليل سركيس



وفي يوم الأربعاء ١٣١٦/٦/٢٥هـ الموافق ١٨٩٨/١١/٩م قال الأستاذ خليل سركيس في ص١٤٤ : **وقدَّم سعادة سَطَّام باشا الشّعْلان إلى الإمبراطور جواداً من جِياد الخيل العِرَاب، فأهدته الإمبراطورة حِلِيَة ثمينة مُرَصَّعَة**. اهـ.

هو الأمير سَطَّام باشا بن حَمَد بن نايف بن عبدالله بن مُنِيْف بن غُرَيْر بن محمد الشّعْلان، أمير الرُّوَلَة، ولد عام ١٢٦٠هـ/ ١٨٤٤م تقريباً، تولى الإمارة بعد وفاة عمه الأمير هَزَّاع بن نايف الشّعْلان عام ١٢٩٢هـ/ ١٨٧٥م تقريباً.

بلغت الإمارة أوج قوتها في عهد الأمير سَطَّام باشا، حيث يذكر أحد الرحَّالة أن القوات التي كانت تأتمر بأمره بلغ عددها (١٥) ألف مقاتل. وهذا العدد يعتبر كبيراً بالنسبة لذلك الزمن، فهو بهذا العدد يستطيع أن يقاتل على عدة جبهات.

توفي الأمير سَطَّام باشا عام ١٣١٧هـ/ ١٨٩٩م تقريباً في شمال الجزيرة العربية في موقع اسمه الشَّاظي وسط الحَمَاد ودفن هناك رحمه الله.

Scanned with CamScanner

رسائل جيرتروود بيل
١٣١٧-١٣٣٢هـ
١٨٩٩-١٩١٤م



ترجمة: رزق الله بطرس.

مراجعة وتعليق وتقديم: ماجد شُبَّر.

الناشر: الورَّاق للنشر المحدودة، لندن، ٢٠٠٨م.

عدد الصفحات: ٣٥٢ صفحة من القطع المتوسط.

نبذة عن الرحالة:

ولدت جيرتروود بِل في واشنطن عام ١٢٨٥هـ/١٨٦٨م في عائلة أرستقراطية، تخرجت من جامعة أكسفورد، درست اللغة العربية بالقدس، وعند سقوط بغداد بيد الإنجليز عُيِّنَت السكرتيرة الشرقية للحاكم كوكس.

توفيت بيل في ٢/ ١/ ١٣٤٥هـ الموافق ١٢/ ٧/ ١٩٢٦م. ودفنت في بغداد.

ملخص الرحلة:

تجولت الآنسة بيل في بلاد الشام كلها وفي العراق وشمال الجزيرة

Scanned with CamScanner

العربية إلى مدينة حائل المعروفة. وسجلت بعض تفصيلات رحلاتها على هيئة رسائل كانت تبعثها إلى أسرتها في بريطانيا.

لقد تركت لنا الآنسة بيل رسائل بلغ عددها ١٦٠٠ رسالة، وكذلك يوميات بلغ عددها ١٦ مجلداً، وملحوظات خاصة بلغ عددها ٤٠ كتيباً صغيراً، بالإضافة إلى ٧٠٠٠ صورة. لقد كانت الآنسة بيل أول امرأة في التاريخ الحديث تكتب مدوّناتها السياسية والتاريخية في رسائل.

والذي بين أيدينا هو عبارة عن بعض الرسائل التي انتقتها دار الورَّاق في لندن وترجمها رزق الله بطرس. وجاء فيها ذكر قبيلة الحْسَنَة (الَاحْسَنَة) من المَنَابِهَة من عنزة.

Scanned with CamScanner

قبيلة عنزة
في رسائل الآنسة بيل



في ص١١٦ قالت الآنسة بيل في إحدى رسائلها: **الجمعة ٢٥/ ٥/ ١٩٠٠م (١٣١٨هـ): وجدت خيمتي قد نصبت في مهين Mahin قرب الماء، ومئات الجِمال تشرب بجانبها. كانت مجموعة كبيرة من أعراب قبيلة الحُسَنَة (الاحْسَنَة) Hasineh قد وصلت، منتقلة من مناطقها الشتوية، ونصبت خيامها السوداء في مكان غير بعيد عني. جاء شيخهم محمد لكي يزورني وهو شاب في العشرين أو أقل، وسيم، ذو شفتين غليظتين، وقور، وكان شعره يتدلى في جدائل سميكة من تحت كوفيته. كان يحمل سيفاً ضخماً، ذا غمد مُطَعَّم بالفضة. بعد ذهابه ظهرت أخته وبعض النسوة الأخريات في ثيابهن القطنية الزرقاء الداكنة الوسخة التي تجرجر على الأرض. الشيخ محمد وجيه عظيم، يدين له ٥٠٠ خيمة وبيتاً في دمشق ولا يعرف سوى الله كم يملك من الخيول والبغال. اهـ.**

هذه هي قبيلة الحُسْنَة (الَاحْسَنَة) إحدى قبائل المَنَابِهَة من ضَنَا مُسْلِم من قبيلة عنزة الوائلية. وهم من أوائل من هاجر من قبائل عنزة إلى بلاد الشام ويُرجَّح أن ذلك قد حدث في نهايات القرن (١١) وبدايات القرن (١٢) الهجري.

Scanned with CamScanner

والشيخ المذكور هو الشيخ محمد بن مِلْحِم بن فارس بن مَزْيَد المِلْحِم، أعلن العصيان على الدولة العثمانية وانضم إليه الكثير من المؤيدين، فقامت الدولة العثمانية بالتفاوض معه إلا أنهم قد أضمروا الغدر، فلما حضر كانوا قد نصبوا له كميناً، فقبضوا عليه، وأعدم في دمشق لاحقاً رحمه الله.

والمِلْحِم من كبار مشايخ قبيلة عنزة، وعمر هذه الزعامة الوائلية لا يقل عن ٦٠٠ سنة.

وقول الآنسة بيل عن ثياب نساء المِلْحِم بالوسخة فهذا رأيها وهذا فهمها، وإلا معروف أن نساء الشيوخ دائماً الجواري عندهن فهن دائماً مخدومات؛ لكن طول الثوب إنما هو من باب السُّنَّة، حيث أمر الإسلام بستر المرأة؛ لكن بسبب اختلاف الثقافة اعتبرت الآنسة بيل طول ثياب نساء المِلْحِم بأنه ضَرْبٌ من الوساخة، بينما هو مقصود، وقد قال الرسول ﷺ عن هذا بأن الأرض طاهرة وهو يُنقي بعضه بعضاً.

وفي نفس السياق قالت: **وبعد تناول الشاي، رددت له الزيارة وجلست على سجادات ووسائد في خيمة الشيخ الكبيرة وكان الحسنة (الَاحْسَنَة) يجلسون في دائرة حولي بينما كنت أشرب القهوة. ظهرت أم الشيخ أيضاً، وعوملت بتكريم كبير، نهض محمد وأعطاها مكانه على السجادة، وشِدَاد جمله لتجلس عليه. وبعد قليل، تناول أعرابي أسود الجبين يرتدي رداء أبيض رَبَابَة، وهي آلة موسيقية ذات وتر واحد ولها قوس، وغَنَّى بينما كان يعزف عليها أغنيات طويلة حزينة، ورتيبة، وكل سطر من الشِّعْر كان قد وضع ليناسب الوقت نفسه وينتهي بانخفاض في الصوت يشبه الأنين. وكان همس الرَّبَابَة يسير مع هذا كله.. غريب وحزين وجميل في طريقته. كان جميع الناس الصامتين يجلسون في حلقة**

ينظرون إليَّ، غير مرتبين، نصف عراة وقد انسدلت كوفياتهم على وجوههم، لم يكن فيهم أي شيء حي سوى عيونهم، وعبر نار من روث الجمل، تشتعل ببطء، كنت أرى المغني منحنياً فوق الرَّبَابَة أو ناظراً إليَّ بينما كان يطلق السطر النائح من أغنيته في الظلام. كان في بعض الأحيان يأتي شخص ما إلى الخيمة المكشوفة (مقدمة الخيمة لا تغلق أبداً) ويقف عند طرف الحلقة ويُحيي الشيخ بـ (يا محمد!) ويده ترتفع إلى جبهته والمجموعة (السلام عليكم)، فأجبنا جميعاً (وعليكم السلام).

وبعدها تتسع الحلقة قليلاً كي تفسح مجالاً للقادم الجديد. وأخيراً وقفت وودعت، ولم أسر بضع خطوات حتى أخبرني الجندي أنني اقترفت مخالفة مخيفة للعادات. لقد ذبحوا خروفاً لي وكانوا يحضرون عشاء، كان يجب أن أشارك فيه، وقال علي أيضاً: (محمد هو الشيخ الكبير وكان عليك أن تعطيه هدية).

عدت إلى خيمتي منزعجة قليلاً ماذا بإمكاني أن أهدي؟ وأخيراً بعد بعض التفكير والتأمل أرسلت واحداً من الجنود ومعه مسدس علي ملفوفاً في منديل جيب (ليس بإمكانك أن تهدي الأعرابي أي شيء سوى السلاح أو الخيل)، مع رسالة أقول فيها إنني لم أكن أعرف أنه يود تكريمي بهذا الشكل، وطلبت منه أن يقبل هذه الهدية (قيمتها الصحيحة جنيهان). رد الجواب شاكراً وأنه لم يكن يفعل سوى واجبه، وهَلَّا شرفتهم؟ لذلك عدت مع اثوس وبرثوس وهذا الذي لا أتذكر اسمه (إشارة إلى الفرسان الثلاثة) وجلسنا جميعاً من جديد على الوسائد والسجاد وانتظرنا... انتظرنا حتى الساعة التاسعة والنصف. لم أَمَلّ (بالرغم من أنني جائعة!). هؤلاء الأعراب استمروا في المجيء واحداً بعد الآخر حتى امتدت الحلقة إلى ما حول الخيمة الكبيرة. على فترات كان الحديث يتنقل.. سياسة الصحراء: من باع خيولاً، من امتلك جِمَالاً، ومن قتل في حملة، وكم

Scanned with CamScanner

ستكون الدِّية، واين ستكون المعركة في المرة القادمة. كان من الصعب جداً أن أفهم، لكني تتبعت إلى حد ما.

إلى جانب القهوة المُرَّة السوداء، أعطونا فناجين مما أسموها (القهوة البيضاء): ماء حار مُحلًى كثيراً ومُنكَّه باللوز. وأخيراً جاء عبد أسود وفي يده جَرَّة ماء ذات بزباز (إبريق فخاري)، إليَّ أولاً ثم إلى كل الحاضرين. مددنا أيدينا وصب قليلاً من الماء عليها. وأخيراً العشاء!! أربعة أو خمسة رجال يحملون طبقاً ضخماً مفعماً بالأرز ولحم خروف كامل. وضع الصحن على الأرض أمامي، وجلست ومعي ما يقرب من عشرة آخرين وأكلنا بأصابعنا، وكان عبد أسود يقف خلفنا ومعه كأس كان يملؤه بالماء عندما يسأله الضيف. كان الطعام سيئاً نوع ما، من دون ملح وصعب المضغ؛ لكن كانت الساعة التاسعة والنصف. أكلوا قليلاً جداً، وكنت لا أزال جائعة عندما نهضت المجموعة الأولى لتعطي مكانها للثانية. مزيد من غسل الأيدي، بالصابون هذه المرة، وعندئذ حييت الموجودين مودعة بالانحناء ولجأت إلى البسكويت والفراش. وكان عشاء غالياً نوعاً ما، لكن التجربة كانت تستحق المسدس. اهـ.

مشكلة هؤلاء الأجانب أنهم يقيسون الأشياء مادياً!! بينما هذه القاعدة لا تنطبق على الهدية فهي معنوية أكثر منها مادية، وماذا تقدم هذه الإنكليزية لشيخ كبير بحجم ابن مِلْحِم؟! زعامة وائلية عمرها أكثر من ٦٠٠ سنة، فهو ليس بحاجتها، كيف وقد ذكرت ما يملكه من مال منقول وغير منقول؟! وابن مِلْحِم قد أكرمها وهو لا يعرف من تكون، ولم يخطر في باله أنها سوف ترسل له هذا المسدس الذي تُقَدِّر (هي) قيمته بجنيهين، وكأنها تتقالّها، أو هي في نظرها لا شيء!! فهو قد قام بالواجب المعتاد عند العرب وأبناء البادية خاصة. ولو تجرأت الآنسة بيل وقالت: هذا قيمة ما أكلناه!! لكان هناك شأن آخر.. أقلّها أن يرد

Scanned with CamScanner

هذه الهدية. فإن من الثابت عند أبناء عنزة أنهم لا يأخذون شيئاً مقابل ما يقدمونه كضيافة للناس.

وقيام الشيخ محمد بن مِلْحِم لأمه عن مكانه هذه صورة حية نقلتها لنا الآنسة بيل عن احترامه لوالدته حتى لو وصل إلى الزعامة فهي تبقى أمه التي حقوقها تبقى دائماً حيّة في وجدانه، وهذا الذي فعله الشيخ محمد محل تقدير الناس واحترامهم، وهو مثال يحتذى كزعامة وائلية عريقة. وقدوم الشيخة والدة محمد لأن الضيف امرأة نبيلة فأرادت أن تراها وتكرمها.

وفي سياق كلامها نستشف التواضع من الشيخ محمد بن مِلْحِم حيث يناديه الناس: يا محمد مجرداً من المشيخة. وهذا من ثقته بنفسه حيث لم يعاتب أحداً على ذلك، بينما بعض الناس لو جردته من بعض الألقاب الدنيوية التي حصل عليها لحدثت المشكلة وقد يبغضك بسبب ذلك.

ونستشف - أيضاً - الألفة بين الشيخ محمد بن مِلْحِم وبين قبيلته وزواره، حيث لا حواجز فالناس تتحدث في مجلسه في شؤون حياتهم بكل أريحية.

وفي يوم الأحد ١٣١٨/١/٢٨هـ الموافق ١٩٠٠/٥/٢٧م وصفت رحيل الشيخ محمد بن مِلْحِم مع عدد قليل من قبيلة الحْسَنَة (الَاحْسَنَة) فقالت في ص١١٩: **كانت مشاهدة قبيلة الحْسَنَة تتحرك هذا الصباح أمراً ماتعاً. لم يكن مع الشيخ محمد إلا عشرين أو ثلاثين خيمة من الـ٥٠٠ خيمة، ومع ذلك فقد ملأت الجِمال السهل مثل فرقة من الجيش، كل عائلة تسير مع مجموعة مع جِمَالها**.. اهـ.

Scanned with CamScanner

رحلتي إلى بلاد الرافدين
وعراق العرب
١٣١٩-١٣٢٠هـ
١٩٠١-١٩٠٢م



ترجمة: ثائر صالح.

الناشر: كتب، بيروت، ٢٠٠٤م.

عدد الصفحات: ١٣٣ صفحة.

نبذة عن الرحَّالة[١]:

هو ميهاي (ميخائيل) فضل الله الحدَّاد، ولد في دمشق بسوريا سنة ١٢٥٧هـ/ ١٨٤١م.

ذهب ميهاي فضل الله الحدَّاد إلى المجر مع بعثة رودولف برودرمان عام ١٢٧٣هـ/ ١٨٥٧م. ويُقال إنه تعلَّق بحصان باعه أبوه للبعثة ولم يشأ مفارقته. وسرعان ما حظي بمحبة الجنود والضباط في الجيش النمسوي المجري.

دخل فضل الله المدرسة العسكرية بتشجيع ودعم من برودرمان، وتخرج منها، وتعلم اللغة المجرية بامتياز.

---

(١) منقول من كلام المترجم، بتصرف.

ابتدأ فضل الله في الخدمة العسكرية عام ١٢٧٣هـ/ ١٨٥٧م وتقاعد برتبة لواء عام ١٣٣١هـ/ ١٩١٣م، بعد أن خدم قرابة ٥٦ سنة في الجيش النمسوي المجري.

أصبح فضل الله مَعْلَمَاً من معالم تربية الخيول في المجر، ويعود له الفضل في تحول بابولنا إلى واحدة من أهم مراكز تكثير الخيول العربية الهجينة والأصيلة في أوروبا.

توفي فضل الله في بابولنا عام ١٣٤٢هـ/ ١٩٢٤م.

ملخص الرحلة:

يقول فضل الله ملخصاً رحلته: **يجد القارئ في هذا الكتاب تفاصيل رحلتي إلى الشرق في بعثة لشراء الخيول في خريف عام ١٣١٩هـ/ ١٩٠١م.** اهـ.

فقد تجوَّل في لبنان وسوريا والعراق في البادية والحاضرة يبحث عن الخيول العربية الأصيلة. وبما أن قبيلة عنزة ممن اشتهروا وعرفوا باقتناء السلالات الأصيلة من الخيل فقد مر بهم وتناولهم في حديثه.

Scanned with CamScanner

قبيلة عنزة
في رحلة فضل الله



يقول فضل الله في ص١٦: اقتنت مؤسسات تربية الخيول قبل استلامها من قبل الحكومة المجرية، ومنذ ذلك الحين خيولاً عربية لتحسين الأنساب.

في عام ١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م وعقب عزل السلطان[1] اشترينا بوساطة الكونت فرنس زيتشي السفير في القسطنطينية ١٠ خيول عربية، وقد بُعث كاتب هذه السطور إلى هناك لاستلامها.

كما ابتُعثت أنا - أيضاً - في عام ١٣٠٢هـ/ ١٨٨٥م مع لوتسنباخر سكرتير وزارة الشؤون الزراعية والصناعية والتجارية آنئذ، إلى سوريا، حيث جرى شراء ٤ ذكور أصيلة و ٥ إناث أصيلة، وهي بالتحديد: الفحل الأدهم عُبَيَّان من تل الكلخ من قبيلة دنجيك!!، وهذا الحصان لا يزال إلى اليوم مؤسساً لسلالة في بابولنا، حيث توصلنا إلى نجاحات ممتازة في الحفاظ على مميزات العِرْق.

واقتني الفحل كُحَيْلان من الصالحية (السلامية) في الصحراء إلى

(١) السلطان العثماني عبد العزيز (١٢٤٦-١٢٩٣هـ/ ١٨٣٠-١٨٧٦م).

الجنوب من حماة، من قبيلة السَّبَعَة من عنزة. تواجد هذا الحصان لفترة قصيرة في المزرعة، غير أن هجيناً من نسله حاز على جائزة Grand Champion في معرض باريس لعام ١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م.

وتم شراء الفحل صَقْلاوي القِدْرَان من رِيْف حمص من قبيلة السَّبَعَة من عنزة. الفحل بيز كان هدية من قبيلة الدنجيك في تل الكلخ. المُهرة كُحَيْلَة اقتنيت من حمص من الدنجيك. وأخيراً المُهرة حليوة وقد اشتريتها في بيروت.

عدا ذلك، جرى شراء خيول عربية نقية من مختلف مراكز تربية الخيول.

وفي عام ١٣١٥هـ/ ١٨٩٧م حصلنا على ٧ جياد عربية أصيلة من بلاد العرب، كان بينها الحصان الأشهب حمدان السامري الذي جاء من قبيلة وُلْد علي من عنزة البدوية، وهَدْبَان الأَشْهَب كذلك، من السَّبَعَة من عنزة، ويستخدم في بابولنا كأصل سلالة إلى اليوم. اهـ.

وفي ص٣٦ تحدث فضل الله عن لقائهم ببعض أفراد قبيلة الرُّوَلَة فوصف هذا اللقاء قائلاً: يمتد من القريتين طريق صحراوي أطول. اكتريت ثمانية جِمَال حملت الأواني المليئة بالماء. وفي اليوم التالي انطلقنا.

توغلنا شيئاً فشيئاً داخل الصحراء الرملية لمدة طويلة. في هذه المنطقة الرتيبة المنظر الشاسعة لا يوجد حتى العشب، وتقع العين في أحيان نادرة على غزالة تتقافز. جلت ببصري من خلال المنظار لأستكشف المنطقة فوقعت على قبيلة من البدو يستريحون. أرسلت أحد الجنود الأتراك إليهم ليسألهم هل نستطيع زيارتهم أم لا؟

Scanned with CamScanner

استقبلنا البدو بمنتهى المودة. ضربت خمسة من أفخاذ الرُّوَلَة من عنزة مرابعها هنا، نحو ٧٠-٨٠ خيمة. ترجَّلنا عن الخيل وذهبنا لتحيتهم. التقانا شيخ القبيلة بترحاب واحترام. أحنى جسده وهو يضع يده اليمنى على قلبه ثم جبينه وفمه تعبيراً عن مشاعره الصادقة نحونا من قلبه وعقله وفمه. تلا ذلك احتساء القهوة السوداء التقليدية التي لا تنقص أبداً والتي شربنا منها مراراً خلال طريقنا. لكن أتمنى أن لا يحسدنا أحد على هذه البهجة. فعادة ما يوجد فنجان واحد فقط، يمررونه على القادمين، ويصبون القهوة سوية مع رواسبها، وإذا تجمع كثير من رواسب القهوة في قعر الفنجان يقوم من يصب القهوة بتنظيفها بسبباته، أو - وهو نوع من أصناف الترف - يمسحها بإسفنجة سوداء قذرة، وهو مشهد يرتعد له الأوروبي المذواق. لكن يجب التعود على كل ذلك والتصرف بينهم بمودة ومن دون إظهار التحسس لأن ذلك يعتبر خَرْقَاً لأصول الضيافة. سررت كثيراً لأنني صادفت قبيلة الرُّوَلَة من عنزة، فهذه القبيلة البدوية شهيرة بتربية الخيول منذ القدم. لكنهم وللأسف لم يعرضوا علي سوى عشرين من الأفراس التي كانت جميلة حقاً لكنها كانت في نفس الوقت ضئيلة الحجم وطاعنة في السن. فقد أخذوا أفضل خيولهم إلى الحرب ضد قبائل شَمَّر. لكن متى يعود أعضاء القبيلة المحاربون، هذا ما لا يعلمه أحد.

في ذلك الوقت كانت الصحافة العالمية تتحدث عن أخبار الحرب بين البور والإنكليز[١]، لكن من قرأ عن الصدام بين قبيلتين من البدو في ما بين الفُرَات ودِجْلَة؟ لا تعلم أوروبا عن ذلك أبداً. فالقبيلتان في صراع دائم

(١) هي الحرب التي قامت في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين بين الإنكليز وبين البور Boer وهم مستوطنو جنوب أفريقيا من أصول هولندية، وتعني الكلمة الراعي أو الفلاح.

تقريباً والحكومة التركيَّة لا تغض الطرف عن ذلك فحسب؛ بل يأتي ذلك الخصام الذي يضعف الطرفين في صالحها.

وترعى قبيلة عنزة قطعانها في المنطقة السهلية الممتدة بين حلب والبصرة، أما قبائل شَمَّر فتقطن بين الفُرَات ودِجْلَة. وأي قبيلة تعبر الفُرَات، وهو خط الحدود الفاصل بينهما، فهذا يعني إعلان الحرب، ويجب الانتقام من الخصم الذي يتوغل في أراضيك. وبما أن خرق الحدود أمر يحدث كثيراً، أصبحت حياة هاتين القبيلتين البدويتين عبارة عن حرب مستمرة تقريباً.

استرحنا ساعة ونصف الساعة تقريباً عند قبيلة الرُّوَلَة من عنزة الشُّجَاعَة. ومشهد مضارب البدو أمر مثير. اهـ.

ويضيف في نفس السياق: تنصب الخيام بموازاة بعضها بعضاً، فتتكون شوارع حقيقية بين صفوف الخيام تفصل بينها ٣٠٠-٥٠٠ متر. والأرض هي القفر اللا محدود، وليس هناك من سبب يدعو إلى الاقتصاد في الأرض. والخيول والإبل موجودة بين الخيام. وتعقل قوائم الخيل الأمامية بقيد حديدي ويغطون ظهورها بغطاء من الوبر. الخيمة الأولى هي خيمة الشيخ، وهي أكبر من مثيلاتها وتخدم كمكان للتجمع. اهـ.

هذا الترتيب دفاعي بحت، بحيث لو حصلت عليهم غارة من أحد الأعداء لاستطاعوا ردها. ووجود بيت الشيخ في المقدمة له هدف نبيل، وهو استقبال الضيوف، مع كونه كما قال: مكان لتجمع أبناء القبيلة.

إلى أن قال: ويعتبر العرب أنفسهم أمة واحدة، ويقولون إنهم أحفاد إسماعيل. والعرب، كخيلهم، عِرْقٌ نبيل بالتأكيد. هم أبناء الطبيعة الجامحة الودودون، والعيش بينهم ليس متعة، غير أن مراقبة عاداتهم عن بعد أمر جذاب كأسطورة ساحرة خلابة. فهم لبقون في تعاملهم يتميزون بالإباء

Scanned with CamScanner

والعزة وحسن التصرف. لكن عندما يصل الأمر إلى السوق، يتبين أنهم كذابون - أيضاً - حتى يحصلوا على منفعة أكبر في البيع والشراء. وهم يلتزمون بكلمتهم عند حصول الاتفاق. ويحترم الطفل منهم والديه أيّما احترام. ويُضيِّفون الغريب بسخاء، لكنهم كثيراً ما يسلبون من يبتعد عنهم أيضاً.

لنودع قبيلة الرُّوَلَة من عنزة ولنواصل مسيرنا في رمال الصحراء.. اهـ.

في هذا المقطع أثنى على الجنس العربي، وشطح في بعض حديثه!! مثل قوله: كذابون. ولعله لم يفهم طريقة الأخذ والعطاء في عملية البيع والشراء!! فهو بسبب الحوار الطويل في عملية المبايعة ينعتهم بالكذب؛ بينما لو كانوا كذابين لما التزموا بكلمتهم عند الاتفاق والتي ذكرها بنفسه حيث قال: **وهم يلتزمون بكلمتهم عند حصول الاتفاق**. فالذي ليس صادقاً لن يلتزم بكلمته، وهذا معروف في الطبع البشري. لكن أبناء البادية وأبناء قبيلة عنزة على وجه الخصوص كانوا يقفون عند كلامهم؛ خوفاً من الله؛ وحياء من أن يؤثر عنهم أنهم غير صادقين، وهي أكبر معيبة عند أبناء وائل، إضافة إلى ذلك فهم يُعظِّمون اليمين ولا يحلفون إلا وهم صادقين؛ بل إن بعضهم لا يحلف حتى لو كان صادقاً، وقبول كلامه من عدمه يتوقف على المتلقي؛ لكنه لا يحلف أبداً تعظيماً وإجلالاً لله عز وجل.

وقوله: **ويحترم الطفل منهم والديه أيّما احترام**. وقد أشار إلى ذلك كثير من الرحَّالة، حيث قال أحدهم: إنه لم يرَ من يحترم والديه مثل أبناء البدو.

أما قوله: **ويُضيِّفون الغريب بسخاء، لكنهم كثيراً ما يسلبون من يبتعد عنهم أيضاً**. هذا الكلام لا يوجد في أخلاق قبيلة عنزة ولا ينطبق عليها ولله الحمد والمنَّة. بل نحن من سَنَّ قانون (المِلْحَة) وهي حقوق الضيافة. فإن

Scanned with CamScanner

من طَعِمَ معنا أو شَرِبَ فهو في حمايتنا ثلاثة أيام ونصف. سواء سار في أراضي عنزة أم في غيرها، حيث من يتعرَّض لضيوفنا فإنَّ ذلك بمثابة إعلان للحرب علينا وسوف يلقى جزاءه. هذا الذي علمناه وحفظناه من تاريخنا. وقد تحدثت عن ذلك فيما سبق.

وفي ص٤٣ تحدث عن ابن مُهَيْد وعن قبيلة الفِدْعَان لكن مترجم الرحلة لم يحسن نقل كلام الرحَّالة كما يجب؛ نظراً لعدم معرفته بأسماء القبائل والناس. وهذا ما قاله فضل الله بعد التصحيح: **في اليوم التالي وجدنا جِمالاً ترعى قرب واحة صغيرة. استفسرنا من البدو الذي كانوا مع الإبل؟ إنهم من قبيلة ابن مُهَيْد من عنزة، وأن القبيلة وشيخها هبّوا لحرب شَمَّر على رأس ٣٠٠ مقاتل. وبما أن الجزء المتبقي من القبيلة موجود في منطقة بعيدة عن طرق القوافل خرجت عن الطريق كي أذهب للقاء بهم. لم أجد سوى الشيوخ والنساء والأطفال لأن كل بدوي يحمل السلاح ذهب إلى ضفة الفُرَات، ويمكنني اللقاء بهم بعد شهرين قرب كَرْبَلاء كما قال الشيوخ. هذا شيء حسن!**

نقع كَرْبَلاء على طريقي الذي خططت له. ودَّعت قبيلة ابن مُهَيْد من عنزة وتوجهت إلى دير الزور من دون ماء. مررنا في طريقنا على قبور قديمة. غطت القبور جميعاً شواهد من الخزف المزجج بالأخضر يرقد تحتها المؤمنون العرب منذ زمن لا أحد يعرف قدره. قطعنا من الطريق بمرارة ٢٧ ساعة دون ماء. اهـ.

وفي ص٨٨ تحدث فضل الله عن الخيول الأصيلة وأنها قليلة حتى عند البادية فقال: **وليست كل خيول البدو نقية الدم، ويسلط الضوء على ذلك بشكل واضح ما شهدته عند قبائل شَمَّر التي هي الأقل تأثراً بتناقص عدد الخيول، فمن بين ٤٠٠ حصان عاينتها كان هناك ٥٢ فقط من الخيول نقية النسب.**

Scanned with CamScanner

وكانت قبيلتا الرُّوَلَة ووُلْد علي من عنزة شهيرتين بخيولها الجيدة في السابق، غير أن الحروب واستنزاف الخيول تسببت في تضاءل عددها. ثم جاء تصدير الخيول بمستويات كبيرة فهم يصدرون من بغداد نحو ٣٥٠٠ - ٤٠٠٠ حصاناً سنوياً إلى الهند عن طريق البصرة. غير أن القليل من الخيول التي تصدر إلى الهند معروفة النسب. ويسهل عملية التصدير رخص كلفة النقل لدرجة كبيرة، فكلفة شحن الحصان الواحد من البصرة إلى بومباي لا تزيد على ٢٢ روبية (الروبية الواحدة تعادل كورونا و ٨٠ فِلّير). ولا يعتبر تصريح النقل (الجمارك) المفروض عالياً، وتحصل الهند على حاجتها الماسة من الخيول من بغداد، لذلك يصح اعتبار بغداد السوق الأساس لتصدير الخيول من العراق. اهـ.

ومن اسطبل حازم باشا في بغداد اشترى فضل الله بعض الخيول التي مصدرها قبيلة عنزة وهي: صَقْلاوي بغدادي من الرُّوَلَة من عنزة، ودَلَيْلَة من السَّبَعَة من عنزة. هكذا جاء في ترجمة الرحلة، ولا أعلم عن صحة التسمية!! فالصَّقْلاوي معروف كسلالة أصيلة، وتقييده أو تمييزه بالبغدادي هذا لا أعلم عنه شيئاً. أما (دَلَيْلَة) فلم أسمع بها كسلالة أصيلة، أو أن هذا اسم الفَرَس والله أعلم.

Scanned with CamScanner

البحث عن الحصان العربي
مأمورية إلى الشرق
تركيا. سورية. العراق. فلسطين
١٣٢٣هـ/١٩٠٥م

ترجمه من الإسبانية وعلّق عليه: د. عبدالله بن ابراهيم العمير.

الناشر: دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ١٤٢٨هـ.

عدد الصفحات: ٣٥٩ صفحة.

الرحّالة والرحلة:

الرحّالة هو ل. اثبيتيا دي مورس، ضابط في الجيش الإسباني، أرسل من ضمن وفد إلى بلاد الشام، من قبل حكومة إسبانيا؛ لجلب الحصان العربي الأصيل؛ لتحسين السلالات الموجودة عندهم هناك.

بدأت الرحلة من مدريد في ٩/ ٣/ ١٣٢٣هـ الموافق ١٣/ ٥/ ١٩٠٥م، وفي اليوم التالي وصلوا إلى ميناء مرسيليا بفرنسا، ومنه أبحروا إلى عاصمة الدولة العثمانية استنبول، وقبل إن يصلوا إليها نزلوا في ميناء بيريو في اليونان، ومنه أكملوا الطريق، فوصلوا استنبول في ٢٤/ ٣/ ١٣٢٣هـ الموافق ٢٨/ ٥/ ١٩٠٥م.

وفي ١٨/ ٤/ ١٣٢٣هـ الموافق ٢٠/ ٦/ ١٩٠٥م وعلى متن باخرة نمساوية غادروا استنبول متجهين إلى ميناء الإسكندرونة، وفي أثناء

Scanned with CamScanner

الطريق نزلوا في جزيرة رودس، ومنها إلى ميناء الإسكندرونة، فاستقبلهم القنصل الإسباني بها، فأخذهم إلى حلب مقرّ القنصلية.

وفي حلب عُرضت عليهم أنواع جيدة من الخيل الأصيلة، إلا أنهم قد وضعوا شروطاً دقيقة في الأنواع التي يبحثون عنها، فنُصِحوا بأن هذه المواصفات التي يبحثون عنها توجد عند قبيلة عنزة. ومن حلب استعدوا للبدء في رحلة بريّة للبحث عن قبيلة عنزة، وبعد عدة أيام من التجوال بين البوادي والقرى وجدوا قبيلة عنزة، فالتقوا بقبيلتي السَّبَعَة والفِدْعَان، فقامت قبيلة عنزة بإكرام هذه اللجنة. وكان نصيبهم من السَّبَعَة الفرس التي سمّوها (عنزة).

عَرَّج بعدها مورس على فلسطين فزار بيت المقدس، ومنها إلى بلدة عَمَّان عاصمة الأردن في هذا الوقت، ومنها عبر القطار إلى دمشق.

هذا وقد كانت نتيجة هذه الرحلة أو المأموريّة هي ١٠ أحصنة و١٣ فرساً، شحنوها عن طريق ميناء بيروت.

Scanned with CamScanner

قبيلة عنزة
في رحلة مورس



في ص١٠١ تحدّث مورس عن الخيل، وعن أول من استأنسها. وتحدّث عن أصولها، وعن أفضلها، وأن العرب يعتبرون مالكي أفضل السلالات الأصيلة.

وفي ص١٣٥ وبعد بحث مُتعب عن المقصود وهو الخيل الأصيلة في المدن والقرى قال مورس: **قرر القائد مستعيناً بالنصائح والمعلومات التي جمعناها أن نخرج الآن لنبحث عن قبائل عنزة البدوية التي تقترب خلال فصل الصيف من الساحل، وتضرب أطنابها في الضفاف المقفرة لنهري دِجْلَة أو الفُرَات**. اهـ.

وفي ص١٥٧ ذكر مورس عشيرة الطوقان وأنها من عنزة!! وهذا غير صحيح.

وفي ص١٦٠ قال مورس: **في هذه المهمة أمضينا وقتاً طويلاً يتراوح بين ثماني ساعات وتسع، حتى أعمل فينا الحَرّ عمله في الحادية عشرة صباحاً، عندها وصلنا إلى مضارب السَّبَعَة الواقعة في منخفض ضيِّق من الأرض - وإن كان ممتداً في طوله - ويُسمى خطأ بالوادي وهو المعروف بمنخفض العويسية Ahuayes، وهو واد لا أودُّ حتى مجرد تذكّر اسمه. اهـ.**

Scanned with CamScanner

ويضيف في نفس السياق: في ذلك المنخفض أقامت أسر هذه القبيلة العظيمة ما يقرب من أربعة آلاف خيمة (بيت)، شاغلة مساحة تصل إلى مد البصر في هذه المضارب الكثيرة السكان. وحين أصبحنا داخل هذه المنطقة تابعت قافلتنا مسيرتها في طابور عبر الدروب التي تكونت بين تلك الخيام التي نسجت من وبر الجمل وشَعْر الماعز القاتم دون أن نلحظ أي استغراب أو فضول من جانب السكان لحظة مرورنا بهم.

لا الرجال ولا النساء، ولا حتى الأطفال الذين مررنا بهم في طريقنا أبدوا أدنى اهتمام بوجودنا، متابعين طريقهم أو عملهم دونما اكتراث بنا. لا شيء من تلك النظرات العدوانية ولا الاستطلاعية؛ إن تعبيرات وجوههم كانت أشبه بتلك التي تبدو عليهم حين يمر بهم أحد جيرانهم.

استمر بنا المسير عبر دروب تلك المضارب ذات الخيام القاتمة السوداء ما يقرب من ثلاثة أرباع الساعة حتى وصلنا إلى خيمة كبير القوم التي كانت منصوبة في أحد أطراف المخيم.

كان شيخ القبيلة عجوزاً في الخامسة والستين من عمره، يسير بصعوبة، ومع ذلك، فإنه خرج في لطف لاستقبالنا بمجرد أن وطئت أقدامنا التراب وأخذ خوسيه يقدمنا إليه، فصافحنا مباشرة، فسلَّم على القائد، ثم عليَّ وعلى ضابط الإدارة العسكرية والطبيب البيطري، وذلك على غرار ما يمكن أن يفعله الحاجب الأكبر لبلاط ملكي عظيم.

بعد ذلك جلسنا على يمين الشيخ تحت ظل خيمته المفروشة بالسجاد والوسائد، في الوقت الذي بدأ رجال القبيلة يتوافدون علينا متجهين إلى زعيمهم للسلام عليه بإعزاز وإكبار قبل أن يفترشوا الأرض، في حين أخذ عبدٌ أسود يُمعن الدق بطريقة تنم عن مهارة فائقة بيد المِهْرَاس (النِّجْر) الذي يُطحن فيه القهوة التي سيقدمها لنا. ولقد ذكر لنا خوسيه أن هذه الدقَّات

Scanned with CamScanner

تطلق على شرف كبار الزوار من الضيوف. ولأنني سبق أن تكلمت مراراً عن هذه القهوة بشيء من الازدراء والجفاء، فلنشاهد كيف يعدها ويقدمها هؤلاء البدو لضيوفهم.

فعلى مقربة من الخيمة وأمام ناظرينا أخذ العبد حفنة من حبوب البُنّ التي ما إن وضعها في مِحْمَاس من الحديد، حتى بدأت تنبعث منها رائحة ذكية، لولا أن الدخان المنتن الصادر من ذلك الوقود الوحيد في الصحراء يعمل على تعكير تلك الرائحة. ففي هذه الصحراء يصبح بعر الجمل الأكثر صلابة من روث الجواد، البديل الوحيد للخشب أو الفحم اللذين يغيبان عن الساحة تماماً.

وما إن تنتهي عملية حَمْس البُنّ حتى يُنقل إلى المِهْرَاس (النِّجْر) حيث يُظهر هنا العبد مهاراته في إطلاق دقات يد المِهْرَاس (النِّجْر) ذات الإيقاع الموسيقي المتعدد، وذلك حسب الدرجة التي يتمتع بها الزوار من الضيوف.

وبعد ذلك يوضع البُنّ في مِرْجَل نُحاسي (دَلَّة) فيه ماء يغلي، ويترك على هذه الحالة مدة عشر دقائق، ثم يقدم بعدها للحاضرين. ولا يضاف السكر إلى القهوة إطلاقاً، بل يوضع بدلاً منه قليل من حبات بذرة مُرَّة ولاذعة يسمونها الهيل، أو قليل من الزعفران وذلك لجعل مذاقها أكثر قبولاً. ومما يلحظ أن هذا المشروب المرّ يعجب الأتراك والعرب على حدٍ سواء، وفي الوقت نفسه فإنهم يجهلون الشاي ويحتقرونه، وفي المقابل فإن المغاربة الذين يطلق عليهم الكثير خطأ العرب[1] يشربون الشاي بشكل كبير.

---

(١) العربية هي اللسان وكل من تكلم العربية وأصبحت لسانه فهو عربي بصرف النظر عن عِرْقِهِ أو نسبه.

ولقد تناولنا أربعة فناجين أو خمسة كانت نصيبنا خلال تلك الدورات الكثيرة التي مَرَّ بها العبد بيننا حتى يفرغ محتوى الدَّلَّة. وتجدر الإشارة إلى أن أول من كانت تقدم له القهوة هو رئيس الخيمة وذلك حتى يبرهن للجميع أنها لا تحتوي على السُّم.

وعلى مدى هذا الاستقبال الطويل الذي يحضره كل أشراف القبيلة دارت محادثات أعربوا فيها عن سعادتهم باستقبالنا، وعن حكمة الرسول صلى الله عليه وسلم وعلمه، وعن أن السلام الإلهي يكون مع الملائكة، ونحو ذلك. وعلى أية حال فقد دار الحديث عن الكثير من الأمور عدا ما جئنا نبحث عنه. ومترجمنا حاذق يعرف جيداً هذه العادات، ولن يقبل أي شيء في الدنيا مقابل كسر هذا النظام العُرْفي.

هؤلاء الناس الذين يبدو عليهم عدم التحضر لا يعدمون تفاصيل المجاملة. فحين أدرك زعيم القبيلة أن القوم ينصبون خيامنا في مكان ناءٍ أصدر أوامره على الفور بأن تزال خيام البدو التي كانت تحيط بخيمته كي تنصب خيامنا بجواره، ولم يسمح لنا بالخروج من خيمته إلا بعد أن قدموا لنا الطعام.

هذا الوقت الطويل أمضيته أسجل انطباعاتي في دفتر الذكريات. الأمر الذي جعلهم يعتقدون - وفقا لما قاله خوسيه - أن زيارتنا كانت تهدف إلى الكتابة عن عاداتهم، وهو أمر لا يروقهم. وهكذا فليس أمامي من حيلة إلا أن أحفظ دفتري وأنتظر.

- ها هو ذا الطعام جاهز يا سادة.

أحضر أربعة من البدو صينيتين نحاسيتين كبيرتين يمسكون بكلتيهما من مقابضهما، وتبدو الاثنتان غير عميقتين، ولكن قطرهما يصل إلى المتر. فوق كل واحدة من الصينيتين وضعت كمية من الأرز المطبوخ وخروف

Scanned with CamScanner

مشوي قطع إلى أوصال صغيرة. زعيم القبيلة وابنه - ولي عهده - واثنان أو ثلاثة من عِلْيَـة القبيلة جلسوا معنا متحلقين حول إحدى الصينيتين. كما كانت الصينية الأخرى تلوح لنا وسط ندمائها. ليس هناك من خوف على المائدة من الحركة، لأنه لا أحد ينتظر أن تقوم زلازل. بعد ذلك ألقى الرئيس العجوز نظرة على الحضور كي يتأكد من أن الجميع كانوا في أماكنهم، فمد يده اليُمنى وتناول بها قبضة من الأرز الدَّسِم فكبسها، وأخذ يحركها حتى أصبحت على هيئة كُرة ثم رفعها إلى فمه وابتلعها كاملة كما لو كان ديكا رومياً. وبعده شرع بقية البدو يقلدونه فيما يفعل، ويواصلون ابتلاع الكريات بسهولة وسرعة مذهلتين. كان خادمنا أراكيل Arakil قد تنبه أن يحضر لنا معه بعض الملاعق، فأخذنا نتناول بها الأرز المطبوخ بالماء المبتل بمرق الخروف. أما قطع اللحم المشوية التي تخرج مدسوسة في الأرز فكان لها طعم طيّب ويمكن أكلها، ولكن الأمر المنفِّر هو أن يعمد البدو إلى إخراج العظم نصف المقروض من أفواههم ثم يلقون به مرة أخرى فوق الصينية حيث تختلط هذه العظام المنهوشة بالبقية التي لم تمس بعد.

بقايا هذه الوليمة سوف تكون بمثابة المائدة الثانية التي تقدم للنساء والأطفال والخدم من أهل عِلْيَة القوم الذين سيجدونها مأدبة شهية.

وما إن تنتهي الوليمة حتى يحضر أحد العبيد جفنة، وصابوناً، ومنشفة وقِدْرَاً فيه ماء يصبه على أيدي الضيوف، فيغسلونها جميعاً بكل عناية ودقة، هذا بالإضافة إلى غسل الفم والأسنان التي يهتمون بها أيما اهتمام.

بعض الحاضرين من البدو تبدو على ملامحهم العظمة والوجاهة. كما تبدو فيها وفي شخصيتهم الخطوط الصحيحة للسلالة القوقازية النبيلة التي هي أصل الأوربيين المنتمين إلى هذا العِرْق. وهؤلاء يبدون طوال القامة، وجهاء، يمشون مشية هادئة، ولكنها سهلة، أساريرهم تحرقها الشمس،

Scanned with CamScanner

ولكن جلودهم صافية، لا تجعدات فيها. لحاهم الحريرية السوداء أو الكستنائية، وأنوفهم الحادة، وشفاههم الرقيقة، وعيونهم السوداء أو المائلة إلى الخضرة، كلها تكمل المجموع الظريف لهؤلاء البدو الرُّحَّل الذين يفدون في تواضع وأدب إلى الزيارة دون أن يكون هناك مجال يظهرون فيه ما بهم من غرائز لخيانة همجية هم على استعداد لها في كل لحظة. هنا نحن أولاء نتعرفهم تباعاً بناء على أعمالهم حتى نُكوِّن انطباعاً يكاد يكون قريباً من تحديدنا لذكائهم وأخلاقياتهم.

ذاك المساء أعاد الزيارة إلينا زعيم القبيلة فَرْحَان باشا، يصحبه ابنه الأكبر الذي سوف يخلفه في قيادة القبيلة. هذا الوريث الذي كان في السادسة والعشرين من عمره، وذا قامة قصيرة، وبنية جسمانية ضعيفة، سبق أن أمضى وقتاً في القسطنطينية بدعوة من السلطان الذي أجزل له العطاء والمكافأة، وخلع عليه اسم قائد الجيوش السلطانية، كما خلع على أبيه لقب الباشا، وهي منح شرفية عادة ما كان يمنحها السلطان عبدالحميد لرؤساء قبائل البدو حتى يجعلهم مؤيدين له، ويدخل عليهم السعادة والغبطة.

حينما دلف الشاب الوريث إلينا وعرف منصبي نادى مترجمنا حتى يخبرني بأننا زملاء له، فقد كان هو الآخر يشغل منصب القائد. وهنا قبلت مرحباً بهذا الأمر من قبل هذا الزميل غير المعصوم، مُذكِّراً إياي بأنه لا يصدر بين الأصدقاء أي نوع من المضايقة حتى ولو في الجحيم، وتعمدت أن أظهر مزيداً من الاهتمام به فجلست إلى جواره.

وشيئاً فشيئاً توافد علينا عِلْيَة القوم، فجلسوا القرفصاء حول الميدان الذي تكوَّن منه مخيمنا، ثم بدأ عرض أفراس هؤلاء الحضور بنظام وهدوء.

Scanned with CamScanner

لا أدري كم كان عدد الجِياد التي عايناها، لقد كانت كثيرة، ومعظمها رديء بكل صراحة، ولكن بعضها كان يستحق أن يفحص بدقة وعناية أكثر. ولكنهم بلا شك لحظوا أن اللجنة لم تظهر ذلك الاهتمام الذي ينشدونه، فانصرفوا بالجِياد مباشرة بمجرد أن أنتهينا من مشاهدتها.

وهكذا انتهى العرض عند غروب الشمس، وحينما تمكنت من الاستمتاع برؤية ذلك المنظر العظيم الذي رسمته الطبيعة في عمق أفق الصحراء.

إن أذواد الجِمَال الكثيرة، والقَدْر الغفير من قطعان الأغنام والماعز قد بدأت تعود إلى المخيم من مراعيها البعيدة، تلفها سحابة من الغبار، وتلونها أشعة الشمس الملونة عند غروبها. وشيئاً فشيئاً بدأ الضجيج يتزايد جَرَّاء حركة كل هذه القطعان، فجعلنا نميز الأصوات الموزعة والملحنة التي كان الرعاة يحدون مواشيهم. كما كنا نلحظ ظلال الإبل التي كانت ترتسم بالآلاف في صفاء الشفق الغائب؛ وفي ذلك الوقت كان الرعاة يطلقون بين الحين والآخر طلقات نارية وهمية كي يُفزعوا الضباع وبنات آوى التي تختبئ بين المواشي.

تلك الموجة الحيَّة التي تتقدم عبر بحر من الرمال كانت مهمة في تأمل تلك اللوحة الجميلة التي رسمها ظلام الليل. وحين بدأت أسرح بأفكاري، لا أدري شيئاً عن الزمان أو المكان الذي كنت فيه آنذاك، ظننت للحظة أنني حلَّقتُ في الأزمنة السحيقة ليعقوب، وانتهى بي الأمر إلى التمتمة ببعض الأدعية.

لقد قرأت ذات مرة لكاتب فرنسي على اطلاع على هذه المواقع قوله: إن الذي لا يضع أملاً في العناية الإلهية عليه أن يمضي ليلة في الصحراء.

Scanned with CamScanner

عندما وصلت قطعان من آلاف الإبل وأسراب لا تحصى من الماعز والخِراف إلى المخيَّم توزعت كقطعة أرض لمجلس البلدية، هنا وهناك حول خيام أصحابها بحيث تستقبلها النساء أو الأولاد الذين يداعبونها ثم يبركونها على الأرض، وهو عمل ينفذونه بكل وداعة وألفة لا تصدق. في حين يربطون واحداً أو اثنين أو ثلاثة من الجِياد قرب باب الخيمة، وعدداً مماثلاً من الرماح الطويلة المغروسة في الأرض دليلاً على استعداد المحاربين من أبناء الأسرة للدفاع عن ممتلكاتها.

وقد وعدنا الباشا (زعيم) القبيلة بأنه سوف يرسل لنا مبعوثين إلى مضارب أخرى موالية له حتى نتمكن من رؤية ما لديهم من جِياد. ولكن بدأت بين أعضاء اللجنة حالة من الشك (لم أكن مشاركاً فيها) في أنهم يخفون عنَّا السلالات الجيدة. وحتى نخرج من حالة الشك هذه اقترحت أن يقولوا لزميلي البدوي: إنني أرغب في القيام بجولة على ظهر الحصان عبر خيام قبيلته القوية، ولم يمانعنا ابن زعيم القبيلة هذا المطلب، وعرض أن نترافق في الصباح الباكر من اليوم التالي، والذي سوف نتجول فيه وبصحبتنا المترجم والطبيب البيطري عبر كل مكان.

وحين عزمنا على الانصراف طلباً للراحة في خيامنا، تقدم إلى خوسيه ثمانية من محاربي القبيلة مدججين بالسلاح، وهم يحملون سيوفاً طويلة ومحدبة، أنصالها لامعة وتتدلى من أحزمة علقت على أكتافهم اليُمنى؛ وتنبئ هذه السيوف بكل وضوح عن القرون الكثيرة التي مضت عليها منذ صنعها إلى اليوم. وهناك كذلك خنجران أو ثلاثة كنا نرى مقابضها فوق الزِّنَار الذي يشدون به أوساطهم، وفوقها الكنانات الطويلة المعترضة على صدورهم وتعج بخراطيش الطلقات الخاصة بالسلاح الناري الذي كان يحمله هؤلاء المحاربون المدافعون عنا. كانوا يُمثلون الحرس الليلي الذي بعثه باشا القبيلة للمحافظة على أمننا. وعندما قدموا لنا أنفسهم

Scanned with CamScanner

توجهوا إلى أماكن حراستهم منقسمين إلى أربعة أزواج بحيث أحاطوا بخيامنا. ولقد جلسوا على الطريقة العربية قابعين على الأرض بحيث تكاد تصل ركبة كل منهم إلى مستوى لحيته.

إن هذه الضيافة التي يستقبلنا بها هؤلاء البدو تعد أسطورية، فهم يُقدِّسون ضيوفهم (حسب قولهم). أما أنا فقد شعرت هنا بالأمان أكثر مما لو كنت في بيتي، وكنت على استعداد لأن أنام في هدوء (أمر كان ينقصني بحق)، في الوقت نفسه الذي بدأ فيه زوج الحرس القريب من الخيمة التي أشغلها أنا والقائد تعلو أصواتهما قليلاً بالغناء. وبشكل متواصل، بدأ رجال الحراسة القريبة منها بالغناء الذي يشبه الأناشيد الأندلسية بطريقة تحمّلتها على مضض، وهذا اضطرني لتأجيل ما انتويت غناءه لمورفيو Morfeo لوقت آخر.

وها هو ذا الظريف خوسيه الذي يسهر على راحتنا يأمرهما بالصمت، وأخذ يترجم لنا المعاني التي انطوت عليها تلك الأغاني التي تقول: اليقظة أيها الرفاق، اعتنوا براحتهم! السلام من عند الله وعباده يحفظونه... إلخ.

وقبل أن يطلع النهار استيقظنا حتى لا نجعل رفيق الصحراء ينتظر كثيراً. ولقد كان خادمنا يواكين Yoaquin (الأرمني الأصل مثل أراكيب) يظهر لي دائماً عاطفة فريدة، وذلك دون شك نوع من الامتنان لما قدمته في حلب من إكرامية يسيرة إلى والده العجوز. إذ أعدَّ لي في ذلك الصباح - مكافأة من عنده - قدحاً لذيذاً من حليب الناقة. وحين لحظ حيرتي وارتباكي ألح في إطرائه لطعم الحليب الذي - في الواقع - أعجبني كثيراً، إنه أكثر سيولة وأحلى من لبن البقر، وأكثر كثافة من لبن الأتان. وربما يكون لبن الفرس الذي ذقته في العام التالي في روسيا هو أكثر

Scanned with CamScanner

أنواع الحليب شبهاً في الكثافة والطعم بلبن الناقة، الذي بات مقبولاً من قبل جميع أعضاء اللجنة منذ ذلك اليوم.

وقبل طلوع الشمس كنا نمتطي الجِياد مع ولي العهد صاحب القلب الجريء، والطبيب البيطري بيدما والمترجم خوسيه.

أمضينا حوالي خمس ساعات نجوب الطرقات التي تكوِّنها خيام القبيلة، كانت دروباً متقاطعة ومتشابكة، وكنا نتوقف حينما نشاهد أحد الجِياد المميزة هنا أو هناك. فقد كانت الأمهار والأفراس لا تذهب إلى المراعي مع بقية قطعان الماشية، بل تبقى ليل نهار مربوطة أمام أبواب الخيام حيث تأكل علف الشعير والتبن أو الحشائش، يلقونه إليها في بطانية أو على الأرض. إنه لمن المحزن والمثير للعاطفة أن يرى الإنسان هذا الحيوان النبيل مكبلاً بالحديد ومربوطاً في عمود حديدي كما لو كانت قيوداً ثقيلة، مادّةً أعناقها وثانية سيقانها في أوضاع متوازنة حتى تتمكن من الوصول إلى موضع العلف الذي تلوكه. وإذا ما كان ذلك أمراً يسيراً، فإنها تربط من إحدى أرجلها إلى وتد من الخشب أو الحديد مغروس في الأرض. أما ذلك المُهر الرضيع الذي لا ينفصل عن أمه فإنه يظل حُرّاً طليقاً، ولكنه حين ينهي أمد الفطام فإنه سيلاقي هو الآخر هذا الأسر القاسي الذي تعانيه أمه. وهنا تبدو بشكل واضح وغير غريب عيوب التكوين التي نلحظها دائماً في الجِياد البالغة، التي تبدو على كثير منها ملامح النبل من أصل أرستقراطي عريق؛ ولكننا أصبحنا مقتنعين بأن هذا لا يكفي. فعند رؤية أيسر العيوب في أطراف تلك الجِياد كانت تُرفض بشكل قاطع من قبل لجنتنا، يا للحسرة!

إن مؤلفاً عريق التخصص في هذا المجال مثل كونت كومينخس يذكر في كتابه خيل الركوب الحكمة الآتية: إذا كنت تبحث عن حصان دون

Scanned with CamScanner

عيوب، وعن امرأة تتصف بالجَمَال، فإنك لن تمتلك لا حصاناً مفيداً في إصطبلاتك، ولا ملاكاً في سرير نومك[١].

وباختصار، فخلال هذه الجولة لم نعثر سوى على ثمانية أفراس أو تسعة يمكن عرضها هذا المساء أمام القائد للمعاينة بعد أن تأكدنا واقتنعنا بأنهم لا يخفون عنا شيئاً أفضل مما رأيناه.

وينبغي أن ألفت الانتباه إلى أنني لا أتحدث عن الأحصنة في هذا المحيط، إذ إن القبائل البدوية يفضّلون الاحتفاظ بها. فقد جرت عادة هؤلاء القوم على بيع الأمهار الصغيرة بعد فطامها مباشرة، أو بعد عامين من ولادتها على أكثر تقدير نظراً لعصبية الأحصنة وحرارة دمائها، بالإضافة إلى أنها تظل معزولة عن أمثالها من الذكور منذ ولادتها، وفي الوقت نفسه محاطة بالأفراس، وهي أمور تجعل من الحصان حيواناً ذا خطر متسماً بسرعة الغضب، وقد يصبح يُخاف منه كما يُخاف من السبع حين تقترب من أحد أبناء جنسه. ولهذا السبب، فإن البدو لا يحتفظون بالذكور من الجِياد، ويأخذون إناث خيولهم ليلقحها أحد الفحول المميزة الموجودة بحوزة القبيلة أو تلك التي يجدونها خلال تجولاتهم المستمرة.

وفي مسيرنا ذاك توقفنا للحظات عند اثنتين أو ثلاث من خيام علية القوم الذين دعونا للنزول إليهم ليقدموا لنا القهوة. وأنا يا من أصبحت فاقداً للحياء تعودت أن أطلب دائماً ذلك الحليب الذي يطفئ العطش ويرطب حرارة الجسد.

في إحدى الخيام التي توقفنا عندها رأيت صقراً مدرباً على صيد الغزلان، وكان أول طائر عظيم أقف أمامه بإعجاب. وها هو ذا صاحبه

---

(١) أورد المؤلف هذه الحكمة الفرنسية بلغتها الأصلية [المحقق].

Scanned with CamScanner

يتركه فوق سبابة يدي اليُمنى ويدعوني لرحلة قنص إذا ما كنا سنبقى لبعض الأيام. إن الفكرة لا يمكن لها أن تكون أكثر جاذبية لمن لديه مثلي هواية عارمة للصيد؛ لينقذني الإله من هذه الهواية المغوية! فقد أودت بحياة بعض المستكشفين الذين خرجوا وحدهم مُعرِّضين أنفسهم لأخطار ذوي السطوة الطامعين. إن الرغبة في حيازة ما يحمله المرء من أسلحة، والرغبة الطامعة في أيٍّ مما يمتلكه من أغراض، كلها أسباب تحث على الجريمة دون أدنى تردد.

إنه لا مجال للدهشة هنا حينما تلافيت عمداً عدم تقديم وصف في مذكراتي عن انضباط البدو.

وعندما انتهت الجولة التي قمنا بها بين أرجاء مضارب القبيلة، لم يكن ابن الزعيم مسروراً من نتائجها، مبدياً امتعاضه لما عايناه من عدد قليل من أفراس القبيلة.

وهنا قال للمترجم: إذا ما كانت المجموعة التي اخترناها تبدو لنا رديئة، فهناك فرس أبيه التي كان يمتطيها في تلك الجولة، وتحمّلت ذلك المسير الذي استغرق ١٢ ساعة منذ طلوع الشمس حتى غروبها، وكانت تتحمّل العدو دون طعام أو شراب. وهنا وجدت نفسي مضطراً لإطراء كل ما رأيناه؛ ولكن الشاب قد صعدت الذبابة إلى أذنيه، وما كانت هناك من وسيلة لإخراجها منها، ولا لإخراج فرسه مما هي فيه.

كانت الساعة حينذاك العاشرة صباحاً، وحينها تعرضنا لشمس شديدة حارقة، ولقد حاولت مرتين أو ثلاث مرات همز حصاني الصغير كي يسير على نغمة أو عَدْوٍ مُعين لمتابعة ما إذا كان سيتبعني؛ ولكنه لم يعبأ بما فعلت. ومرة أخرى حاولت أن أتباعد شيئاً فشيئاً بهدف أن أخرج هارباً صوب خيامنا في أول عاصفة تلفني، ولكن الأمير الأنوف، رابط الجأش

Scanned with CamScanner

قد فهم الأمر، فقال لخوسيه: إن النقيب يصنع ما نصنعه نفسه نحن البدو، كنا نخرج مجتمعين حينما نتجه إلى صفقة ما، ثم يعود كل منا بمفرده إذا كانت النتائج سيئة. وهنا ناداني خوسيه في الحال، وكان عليَّ أن أتحمل مدة الساعة تحت حرارة الشمس الحارقة التي بلغت ٤٨ درجة مئوية.

وبينما كنت أنا والطبيب البيطري نتابع معاينة المواشي، حضرت مجموعة كبيرة من البدو إلى خيمة القائد ليتفحص ما بهم من مرض، فهم يعتقدون بحسن نية أن كل الأوربيين يعرفون فن المداواة جيداً.

وهكذا فإن القائد الخامس وضابط الإدارة السيد فرنانديث توافد إليه جمع كبير من القوم للمعالجة حيث أخذ يصدر لهم وصفات كثيرة لما رأوه صعب التداوي. كذلك حضر زعيم القبيلة لاستشارة القائد عَلَّهُ يجد وسيلة لعلاج آلامه وعرجه الذي يعاني منه في رجله اليسرى. وقد عَنَّ للقائد أن يخبره بأنني سوف أصف له علاجاً شافياً حيث إنني متخصص في هذا المرض وعلاجه. وحين وصلت ناداني بلقب الطبيب الخصوصي، وأن عليَّ أن أذهب لكي أرى وأتفحص المريض القدير. وعندما أراني العجوز الطيب ساقه التي تؤلمه، وتفحصتها جيداً وبكل دقة كما لو كنت طبيباً ماهراً. كان الرجل المسكين يعاني من ورم في الركبة وتصلب في المفاصل، كما أن رجله توشك على الجفاف وحين عاينت المرض وقرر نوعية العلاج أمرت بإحضار ماء ساخن، وطلبت قطعاً من القماش النظيف غسلته بكل عناية، ثم دهنت ركبته بمرهم مسامي للدكتور ويندر Dr.Winder، كنا نحمله معنا في صيدليتنا الخاصة. ثم طلبت منه أن يستريح بضعة أيام، ولعله لم يكن بمقدور أشهر أطباء البلاط الملكي أن يفعل شيئاً أكثر مما فعلته، مع الفارق الذي يشهد لي بالأفضلية، وهو أنني لم أطلب منه مقابلاً لذلك. ولقد بات مريضي في غاية السعادة، ونحن دون ذلك المرهم المسامي الذي يمكننا أن نستخدمه في مناسبة أكثر ملاءمة.

Scanned with CamScanner

تجدر الإشارة إلى أن الكاتب بلجريف W.G.Palgrave الذي سوف أتحدث عنه فيما بعد، قد ألمح إلى أن الذكاء الذي يتمتع به البدو أقل بكثير من ذلك الذي يتمتع به أي طفل في أوروبا.

إن حياة هؤلاء الناس لا بد أن تكون قصيرة جداً، وذلك بالنظر إلى عدد الأفراد المسنين القلائل بين هؤلاء القوم. ويعد مرض الدَّرَن أبرز الأمراض التي تحل بهؤلاء الناس وأخطرها، وذلك لعدم وجود العلاج المناسب بصفة مطلقة.

إن مشاغلهم المعتادة تكاد تنحصر في الترحال والتنقل أو الحروب بين النبلاء الأثرياء. وكما يحدث في كل تكتلات الشعوب، توجد في هذه القبائل درجات اجتماعية مختلفة، أدناها تلك التي تقوم بعمليات الرعي، بوصفهم خَدَمَاً بالأجرة أو عبيداً لأولئك المقتدرين من هذه القبائل. هؤلاء يجتمعون خلال النهار تحت سقف إحدى خيامهم ممضين وقتهم في الجدال والحكايات التي تدور حول القصص والأساطير التي تتعرض لبطولاتهم ومآثرهم في الحروب والمعارك.

ومما يلحظ هنا أن النساء البدويات يرتدين عباءة زرقاء قاتمة للغاية، ويشددن محازم على أوساطهن، كما يضعن منديلاً من اللون نفسه معصوباً على الجبهة ويتدلى حتى الكتفين والظهر، على غرار ما تفعله المصريات، وتبدو النساء ذوات قوام ممشوق، ويرى من بينهن بعض الفتيات الشابات الجميلات، ولكن شفاههن السفلية تظهر موشومة بلون أزرق بحيث يعطي انطباعاً محزناً لنا، فنحن نفضل تلك الشفاة الناعمة الحمراء في النساء الجميلات.

أما فيما يتعلق بنسوة زعيم القبيلة وعِلْيَة القوم من البدو فما كُنَّ يظهرن لأحد، ويَقَرْن دائماً في خيام كبيرة على مقربة من خيمة وليهن. ومعظم

Scanned with CamScanner

النساء يعملن بغزل الصوف أو الكتان الذي يصنعن منه الأنسجة الخاصة بالملابس والخيام.

في الثانية ظهراً - أي في الوقت الذي كان رفقائي ينامون فيه القيلولة - كان هناك أمر أود فعله أنا، ما كان بإمكاني معرفة طعم النوم لأنني أكاد أتصبب عرقاً، وأسلّي نفسي بكتابة هذه الملحوظات والانطباعات وتسجيلها، وأرقب هؤلاء القوم عبر فتحة صغيرة في خيمتي.

إنهم يسقون مواشيهم ويحلبون شياههم وماعزهم، وهي المهام التي يبدي فيها الرعاة تمرسهم الجيد في مهنتهم، الأمر الذي لا يحلم أحد منا بأن يقوم به على الإطلاق.

وعلى مرمى بصري أشاهد أمامي قطيعاً من النعاج يصل عدده إلى ٣٠٠ رأس ينتظر دوره للسقي. وهناك أربع نسوة يَمْتَحن الماء من بئر قريبة ثم يسكبنها في حوضين من النحاس الأبيض، فيشرب منهما ما يقرب من ثمانية رؤوس أو عشرة، بعد ذلك تُنهر هذه وتُبعد عن الأحواض بمجرد ضربها سطحياً على رقابها، ثم يُستبدل بها مباشرة أطراف أخرى من الأغنام تُعَدُّ كي تأخذ دورها في السقي، وهكذا تتكرر العملية بشكل منتظم.

وبعد أن تنتهي جميع المواشي من السقي تنتظم في طابور مكوّن من صفين متقابلين، فتبدو بينها شيئاً من الاتحاد والالتحام، فتخرج كل نعجة رأسها من بين أعناق ما يجاورها من نعاج بالطريقة نفسها التي تتشابك فيها أصابع أيدينا. وبعد أن تصبح المواشي في هذا الترتيب يبادر اثنان من الرعاة في كل جانب بحلب الأغنام في قدح من الخشب. ولا أحد - في واقع الأمر - يستطيع أن يتخيل الوداعة التي يحرزها العرب من حيواناتهم الأليفة.

إن المواشي التي تتصف بكثرة صوفها ويملكها البدو هنا هي من أصل

خاص لم أرَه حتى اللحظة التي وصلت فيها إلى سوريا. إن ما فيها من صوف يبدو ناعماً وغزيراً جداً، ولكن ما يميز هذه النعاج حقاً هي تلك الأذناب التي تُعَدُّ مستودعاً للدهن، ويزداد حجمها ووزنها بشكل فائق، خصوصاً عندما تتوافر المراعي المغذية المناسبة. أما حين تقلّ المراعي فإن هذه الحيوانات تتغذى على الدهن المتراكم في أجسادها. أما الماعز فتبدو في شكل صغير، وجميعها ذات لون أسود، وتتميز بشعرها الطويل الزاهي الحريري، كما تتميز بطول آذانها المتدلية.

ويتبين مما ذكر أن العرب البدو هم في الأصل من مربي المواشي، إذ يقفون حياتهم دائماً لتربيتها والاتجار بها، ويبيعون من أنواعها الثلاثة: الجِمَال والخِرَاف والماعز؛ أصوافها ولحومها في أزمنة وأسواق قائمة منذ مُدَد بعيدة. أما فيما يتعلق بالخيول أحصنة كانت أو أفراساً فإنهم يربونها ويقدرونها وكأنها شيء ضروري، ولا غنى لهم عنه في حياتهم المتنقلة والرعوية، ولكنهم لا يتخذونها بتاتاً مصدراً للثراء ولا سبباً للمضاربة، وفي مساء هذا اليوم بالذات أصبح بمقدورنا أن ندرك حقيقة هذا الأمر الواقع.

كانت الساعة تقترب من الثالثة عصراً حين كنا نجلس تحت ظل خيمتنا الكبرى برفقة زعيم القبيلة وبعض أعيانها نتفقد الأفراس التي رأيناها صباح اليوم. وحول الساحة التي نوجد فيها جلست - حسب العادة - مجموعة من خمسين بدوياً لمتابعة عملياتنا.

وفجأة بدأت تتعالى فوق تلّ قريب منا أصوات مجموعة من الشباب دفعة واحدة، متكررة وبصورة إيقاعية، ظهر اثرها في أذني بهذه الصورة: أهو - أه .. أهو - أه .. أهو - أه ..!! ولم ينته بعد آخر المقطع حتى تكررت أصوات أخرى بعيدة بالعبارات نفسها، وهكذا أيضاً ترددت الأصوات من

Scanned with CamScanner

جانب إلى آخر في المخيَّم، وأصبحت الأصوات تتردد كما لو كانت رجع صدى في كل الوادي.

لا زعيم القبيلة ولا الذين كانوا معنا بدرت منهم أدنى إشارة تدل على استغرابهم للموقف، وظلوا جميعاً في أماكنهم غير مكترثين لما يحدث، ولكن الذين أبدوا تطفلاً في الموقف بدؤوا يختفون من الساحة دونما عجلة تذكر بحيث خرجوا واحداً تلو الآخر. وقد أشار صاحب تلك الفرس التي كنا نتفحصها بحركة من يده إلى أنه سوف ينصرف؛ ولكن صوتاً صدر عن زعيم القبيلة أوقفه مكانه مع أنه لم يُبْد رضاه لهذا الأمر.

وأمامنا مر كالبرق فارس يحمل رمحه في صدر درعه، وخلفه ثان ثم ثالث، يظهر عليهم الحماس والتصميم نفسه. وفي ثوان قليلة، وزعوا المحاربين برماحهم الطويلة حول المخيم كاشعة أطلقت في الاتجاه نفسه. وقد أدركنا أن أمراً ذا خطر قد وقع فبدأنا نسأل زعيم القبيلة عما يحدث؟ فأجابنا: «إنه العدو على مرمى البصر». وعقب ذلك، وخَرْقَاً لكل تقليد نهضت من مقامي متجهاً إلى البدوي الذي كان أمامنا فأمسكت بلجام فرسه ورأسها وأشرت إليه بيدي أن يقفز على متنها ويتوجه صوب ساحة الوغى؛ فَعَلَت ضحكاته وابتساماته وأخذ يضرب بيديه على صدره علامة على الشكر، ثم اختفى.

ومنذ تلك اللحظة تركنا مقاعدنا جميعاً دون أن نتوصل بعد إلى تقدير الموقف، أنظل متفرجين؟ أم مشاركين - أيضاً - في المشهد الذي يجري أمامنا؟!

يا لها من لحظة جميلة! يا لها من لوحة عجيبة! أو كما نقول الآن: يا له من فلم مشوق! ساد المخيَّم كله صمت مطبق. النساء والأولاد والرجال

Scanned with CamScanner

العُزَّل ظلوا صامتين هادئين، ينظرون إلى المحاربين وهم ينطلقون كالسهام إلى مكان الخطر.

في دقيقتين فقط سرى ما يقرب من أربع مئة محارب في الاتجاه نفسه دون أن ينتظر أحدهم الآخر، متفرقين ومجتمعين صوب الهدف نفسه. إن خيال أي فنان لا يحلم بأن يرسم مثل هذه اللوحة وهذا العرض الكبير. ولقد كانت هناك لحظة شعرت فيها بأنني قد انتعشت بالحماس الذي أدخله هؤلاء الفرسان في نفسي، الذين خرجوا تلفهم سحابة بيضاء من الغبار كما لو كانوا طلقات بنادق. واسفت أنني لم أكن أحمل رمحاً كي أشهره على شاكلة أولئك الفرسان.

ومن فوق ربوة عالية كنت أرقب بناظور الرحلة التحركات التي تجري دون أن أبلغ مدى ما يحدث بعيداً عنا حيث تباعد الجميع تباعاً عن المدار الذي بلغته السحابات البيضاء التي بدأت تتلاشى بعيداً. ولقد تجمع حولي ما يقرب من عشرين رجلاً أبدوا دهشتهم وفضولهم حينما رأوني أوجه المنظار صوب الأفق البعيد، ومن خلفي أرادوا أن يدخلوا رؤوسهم كي يتمكنوا من الاستكشاف كذلك.

ومشفقاً على هؤلاء بما أرى لديهم من فضول وجهل ضعفت أمامهم فسلمته لمن هم أقرب إليَّ. ما كنت سأفعله قط! ومثلما تتقاتل الوحوش على الفريسة فقد سقطت على الجهاز عشرون يداً في وقت واحد، متعاصرين ومتزاحمين لو لم أتدخل وسط هذا الزحام موزعاً لكمات ودفعات بكل ما أوتيت من قوة حتى تمكنت من استعادته. هؤلاء العشرون فرداً الهائجون، الذين بمقدور أضعف رجل فيهم أن يحطمني ظلوا ذليلين وخاضعين لما قمت به كما تجري السباع الضارية أمام سياط الإنسان.

وحين لم يعد يُرى شيء في الأفق سحبت نفسي من ذلك المكان

Scanned with CamScanner

ففتحت لنفسي طريقاً بين مجموعة المتطفلين الذين تعجلوا بتركي حُرّاً وحيداً.

ولحسن حظ أبناء عشيرة السَّبَعَة، فقد ارتد أعداؤهم من قبيلة شَمَّر عن المكان حين علموا باكتشاف أمرهم. وسرعان ما تطاير الخبر بين القوم فهنأنا زعيم القبيلة على هؤلاء المحاربين الشجعان الذين يتزعمهم، فَرَدَّ بقوله: «إن النساء لا يقبلن مضاجعة من لايكون متمتعاً بهذه الصفة من أزواجهن».

وقبل الغروب عاد الفرسان كلهم مجتمعين، يلحنون أغاني النصر التي أخذوا يكررونها بصوت واحد في صورة ترتيلية عالية. وهكذا وقعت الغنيمة التي بلغت ٨٠,٠٠٠ بعير في أيديهم دونما نقصان!!

ها هو ذا السبب والهدف الذي يحافظ من أجله عرب الصحراء على خيولهم.

وحين تحدثنا مع باشا القبيلة عن أصول إناث الجِياد التي رأيناها، أخذ يبين أسماءها التي منها: صَقْلاوي، وحَمْدَاني، وكُحَيْلان، وعُبَيَّان، وغيرها. كما أضاف إلى هذه الأسماء من الأصول المعروفة أسماء أخرى أظنها من أملاك أحد أصحاب بعض الأفراس التي أعطت شهرة في هذا الأقليم أو ذاك لهذا العدد الكبير من الجِياد. وهو تقليد ينبغي ألّا يصيبنا بالدهشة، فنحن في حديثنا عن الحصان الأندلسي نسميه باسم صاحبه أو مربيه، فهناك على سبيل المثال: كورباتشوس، روميروس، ثاباتاس، ميوراس، غريبروس، ونحوها، وذلك نسبة إلى اشخاص يحملون هذه الأسماء ممن يربون الخيول.

وفيما يتعلق بعراقة الدم فليست كل الجِياد تتمتع بهذا الشرف، وذلك طبقاً لأقوال البدوي العجوز. فحين تبلغ المُهرة سن الثانية فإنها تُدرَّب على

الجري ساعات كثيرة متتالية، حتى إذا ما أصابها الإعياء وتمرغت في الرمال، فإنه يُدني منها الشعير، فإذا ما اكلته في الحال، فهذا يعني أنها عريقة الأصل. أما إذا حدث عكس ذلك، فلن يكون بمقدورها إخراج صاحبها من مأزقه حين يهم بركوبها. هذه الحكم الرفيعة لدى العرب التي تأتي مزدانة بخيال لغتهم قد ملأت الغرب ونقلها إليه المستكشفون العلميون الذين خلقوا كل هذه الهالة التي هي نوع من الأكاليل المقدَّسة التي يحاط بها الجواد العربي. اهـ.

وفي ص١٨٢ وفي نفس السياق السابق قال مورس: إن التشدد الذي اتبعته اللجنة في البحث عن جِياد ذات مواصفات معينة قد أسفر عن نتيجة مفادها أنه من بين ما يزيد على مئة فرس عايناها، ليس هناك سوى واحدة فقط هي التي تستحق السؤال عن ثمنها. وهذه الفرس بالذات هي نفسها التي كنا نتأملها في ذلك الوقت الذي حدث فيه الإنذار بالخطر بسبب هجوم أولئك الأعداء.

إن مالكها، وهو أحد أعيان القبيلة رفض أن يبيعنا إياها، ولكن زعيم القبيلة قد أجبره على ذلك. وما إن اتفقنا على ثمنها حتى دفع الضابط المكلف من بين أعضاء اللجنة الجنيهات الذهبية التركية لمالكها في كف يده، واحداً بعد آخر، وبدأ المترجم - أيضاً - في عدها بالطريقة نفسها. وقد قبل البدوي المال دون أن ينظر إليه، وفجأة أعاد يده، فأوقع كل ما فيها من مال على الأرض، وانصرف على مهل من ذلك المكان.

ولقد أكَّد الزعيم الذي تناول طعام العشاء معنا للقائد أن الفرس سوف تكون من نصيبنا على الرغم من معارضة مالكها. ولكن هذه المعارضة وبعض الكلمات الغامضة التي أدهشناهم بها حين رأوا الوزن الذي كانت حقيبة الضابط تزنه إذ كانت مليئة بالجنيهات الذهبية، كل هذا قد وَلَّد لدى

Scanned with CamScanner

اللجنة الشك وعدم الثقة بأن هؤلاء الغاضبين يعدون لنا واحدة من هجماتهم الشرسة.

هذا الشك وعدم الثقة شارك فيها - أيضاً - العريف المسؤول عن تموينننا، وذلك من خلال بعض المؤثرات التي لحظها، ما جعله يضاعف انتباهه.

بسبب هذه الأحوال، اتُفق على أنه في منتصف الليل سوف نطوي خيامنا وسنغادر القبيلة دون أن نوضح ذلك لأي فرد كان. اهـ.

قراءة لما قاله مورس عن قبيلة السَّبَعَة:

١- الشيخ المذكور هو الشيخ فَرْحَان باشا بن هُدَيْب من كبار مشايخ السَّبَعَة من عنزة. وابنه الأكبر هو بَرْجَس الذي تخرج من مدرسة العشائر في استنبول، وخدم بالجيش العثماني برتبة نقيب (كابتن)، حيث كانت الدولة العثمانية تريد أن تكسب ولاء القبائل؛ وذلك بتدريب أبناء الشيوخ الكبار، ومنحهم أعلى الرتب العسكرية والمدنية، إضافة إلى النياشين والمسميات التي تدل على الزعامة مثل: باشا، بيك، وغيرها. والشيخ بَرْجَس تولى المشيخة بعد وفاة والده عام ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م، إلا أنه لم يمهل له، وتولى المشيخة بعده أخوه صالح بن فرحان بن هُدَيْب.

٢- خيال هذا الرحَّالة واسع جداً!! عندما ذكر أن الغنائم التي عادوا بها السَّبَعَة من غزو شَمَّر ٨٠،٠٠٠ ألف جمل. والغزو عادة يأتي من أجل المكاسب فإذا وجد حراسة أو مقاومة شديدة فإنه يطلب النجاة مثل ما فعل غزو شَمَّر عندما هبَّ وفي دقيقتين ٤٠٠ فارس من السَّبَعَة لملاقاتهم.

٣- شجاعة قبيلة السَّبَعَة إذ في دقيقتين نزلوا إلى الميدان لملاقاة العدو.

Scanned with CamScanner

٤- يستغرب المرء كيف يصدر الكاتب هذه الأحكام الجائرة بحق أناس استضافوه وأكرموه، فشرب من قهوتهم وأكل من ولائمهم؛ بل وقدّموا له يد المساعدة والإرشاد في أكثر من مناسبة. وعلى النقيض من ذلك نجد أن السيدة آن بلنت (١٢٩٥هـ/١٨٧٨م) وفي أحوال أصعب من الأحوال التي مر بها الكاتب، تُنوّه في أكثر من مناسبة بأخلاق هؤلاء القوم وحسن معاملتهم. انظر: قبائل بدو الفرات عام ١٨٧٨م، ص ١٤٢-١٤٥، ٣٥١. وغيرها[١].

٥- ينسب الكاتب إلى نفسه قدرات هائلة، ويصور نفسه بأنه البطل الذي لا يقهر، كما يدّعي أن الآخرين يهابونه بمجرد معرفتهم أنه أوروبي[٢].

٦- خوفهم من غدر السَّبَعَة ليس له مبرر أبداً. لأن من طَعِمَ معنا أو شرب فهو في حمايتنا ثلاثة أيام ونصف.

٧- أما قول مورس: **ولكن الأمر المنفِّر هو أن يعمد البدو إلى إخراج العظم نصف المقروض من أفواههم ثم يلقون به مرة أخرى فوق الصينية حيث تختلط هذه العظام المنهوشة بالبقية التي لم تمس بعد.** اهـ. فهذا الكلام غير صحيح أبداً وهو كذب صريح كما هو معلوم، وهذا ليس من عادات الناس عموماً وليس من عادات قبيلة عنزة بشكل خاص. وآداب الطعام عند قبيلة عنزة ما يلي:

- أن يجلس الضيف على الطعام مرتاحاً دون مضايقة. ولا يجلس مع الضيف إلا الذين يتميزون بالفهم من كبار السن وغيرهم ليؤنسوا

---

(١) من كلام محقق الرحلة: د. عبدالله العمير، ص١٦٥.

(٢) من كلام محقق الرحلة: د. عبدالله العمير، ص١٧٩.

Scanned with CamScanner

الضيف. وقديماً كانوا أحياناً يجلسون الضيف لوحده، ويطفئون السِّرَاج؛ حتى لا يستحي الضيف عند الأكل.

- أن تأكل مما يليك فقط. وعندما تكون الوليمة رسمية فإنه من العيب أن تأخذ العظم وتأكله أمام الحضور، ومن العيب الشديد أن ترد بقايا ما أكلت في نفس الصحن، بل قد تعاقب عقاباً شديداً إن فعلت ذلك في المناسبات الرسمية، ولا يفعل ذلك إنسان عاقل.

غادروا قبيلة السَّبَعَة من عنزة، وبعد عدة أيام من التجوال وصلوا إلى قبيلة الفِدْعَان من عنزة، وفي أثناء قدومهم إليهم وجدوا جباة الضرائب الذين كلفتهم الدولة العثمانية بذلك عندهم. وفي ذلك وفي ص٢١٦ يقول مورس: **بعد ساعة من الوقت شاهدنا القبيلة تسير على بعد ثلاثة كيلات في الاتجاه الموازي لاتجاهنا، مكونة طابوراً طوله عدة كيلات، ولم نتمكن من رؤية مبتدئة ولا حتى منتهاه.**

وقبل منتصف اليوم وصلنا إلى حيث بدأ البدو الأوائل ينثبون خيامهم. وبينما كانت تنصب خيامنا لجأنا إلى أكواخ متواضعة معدة من أغصان وخِرَق قماش، شيدتها أسر شبه مُترحِّلة كانت تجمع محصولها الزهيد من بعض حقولها.

في تلك الأحوال لم تغب القهوة المعروفة واللبن الحامض الذي يقدمه بكل عفوية هؤلاء الناس ضيافة للمسافرين، ولقد علمنا أن شيخ الفِدْعَان من عنزة الكبير الذي يسمونه الحاكم كان غائباً، ويتولى إدارة شؤون القبيلة بالنيابة عنه اثنان من أبناء إخوته.

لا أعرف كيف تصل الأخبار في الصحراء؛ لكن الذي لا شك فيه أن ابني الأخ هذين كانا يعلمان أننا كنا عند عشيرة السَّبَعَة، وأننا لم نشتر منهم أي شيء. وقد أتى هؤلاء القوم لتحيتنا يرافقهم موكب من رجال أعيانهم، الشاب الأكبر

Scanned with CamScanner

عمره حوال ٢٦ عاماً، أما الآخر فحوالي ١٧ عاماً. ولم يأت هذا ولا ذاك إلينا عن طيب خاطر، فقد حضرا متعجرفين ومعقودي الحواجب حيث دخلا والقيا السلام على مضض، ثم جلسا محتلين صدر الحلقة، فجلس الأكبر منهما متكئاً باسترخاء على شِدَاد جمل مصنوع من الجلد وُضع إلى جانبه. كلاهما قد خلع حذاءه الخشن الذي يعد من أحذية الترف، ووضعوها بالقرب منهما لنتأمل شكل جلدها الأصفر اللامع والأهداب الزرقاء التي تزينها. واصلا برودهما وجفاءهما دون أدنى رغبة في مجاملتنا.

مر بخاطر أكبرهما أن يسألني: أي نوع من المسدسات نحمل معنا؟ فأراه القائد مسدسه ماركة برونينج شارحاً له آلية استخدامه، والمدى الذي يصل إليه؛ فرد عليه قائلاً: «لم أكن أعرفه من قبل، لكن مسدسي يعجبني أكثر». وخلال ذلك يدخل يده في وسطه ليخرج مسدساً جميلاً ماركة موزر ويعبئة ويفرغة بخفة مذهلة، ليظهر لنا بأنه يعرف كيفية استعماله. وذكر بأنه قد اشتراه من بغداد وكلفه ١٦ جنيهاً تركياً (٣٦٨ فرنكاً).

وأمام ابتهاجه بما قد أظهره أمامنا، يبدو أنه بدا يكون أكثر وداً، ولم يقبل أن نعود إلى خيامنا دون أن نأكل معه لحم الخروف الذي أمر بذبحه.

وفي المساء عاينا بعض الأفراس؛ واحدة وأخرى وكثيرات تبدو بكل صراحة رديئة، وفي المقابل فإن إحداها تستحق الاهتمام، في حين ان اثنتين تبدوان مقبولتين.

طبع هذه القبيلة يبدو أكثر بداوة وبعداً عن الحضارة من قبيلة السَّبَعَة. فالرئيس أسود، شرس ومتسلط، فقد وجَّه لكمات أمام أعيننا لأحد سكان تلك الأكواخ قَدَّم إليه شكوى يريد جواباً عنها.

كان أولئك الشباب الذين يتولون قيادة القبيلة بالإنابة ثقيلي الظل ومتعجرفين.

Scanned with CamScanner

وعلى سبيل المجاملة قال مُترجمنا خوسيه للأصغر ما يأتي:

- لماذا لا تذهب إلى استنبول وتصبح نقيباً؟
- فأجاب بطريقة متغطرسة: أنا هنا سلطان.
- ألا يعجبك أن ترى المدينة؟
- فأجاب بمزاج عكر: لا توجد مدينة أكبر من الصحراء.

لقد لحظت أن أذرع الرجال والأولاد الصغار تحتوي على ندبات دائرية بحجم نصف بيزتا يطلقون عليها دمل حلب، وتساءلت عما إذا كان يعاني منها البدو كذلك.

وقد قال لي أحدهم: إن هذه الندبات يعملها الأطفال بوضع جمرة على الذراع ويتركونها حتى يكتوون بحرّها، ويتراهنون فيما بينهم بعمل حرقات متتالية. وسيتمكن الفائز من قتل غزالة بحجر يقذفها بقوة ذلك الذراع.

في تلك الليلة تناول العشاء معنا الملازم المكلف تحصيل الضرائب في هذه الناحية، وقد أفادنا بأن الرئيس الأساس للقبيلة غائب؛ لأنه خرج ليتباحث مع قبيلة الرُّوَلَة التي سلبت منهم أربعة آلاف جمل قبل بضعة أيام. ولقد أدّى هذا الأمر إلى جانب تحصيل الضرائب منهم إلى جعلهم هائجين بشكل ظاهر، ولأنهم قوم غير متحضرين فإنهم لا يعرفون كيف يخفون مزاجهم المتعكر.

وعلى كل حال فإن الطبع البدوي متسلط ومتغطرس عندما يعتقد أنه الأقوى، لكنه ذليل جداً عندما يعرف قوة الآخرين[1].

---

(١) بعكس ذلك تقول السيدة آن بلنت: إن البدوي لا يقبل الذل والخضوع ويقبل التحدي مهما كانت قوة الخصم، كما ذكرت أن البدو أحرار في حالة السلم والحرب. انظر: قبائل بدو الفُرات، ص٣٨١. [المحقق].

Scanned with CamScanner

ففي الصحراء يعتقد البدوي أنه إله، وتصل عجرفته إلى حد تحقير المتحضرين بتجاهل واضح، ولكن عند وصوله إلى المدن يصبح وضيعاً مطيعاً، ليس خجلاً ولا إعجاباً بما يدور حوله؛ بل لأنه عندما يجد نفسه وحيداً فإنه يخاف من ضعفه، ظاناً أن الغالبية التي تحكمه تحس تجاهه بإحساس الغرائز المشوبة نفسها التي يحسها.

وتعد قبيلة الفِدْعَان هذه أكثر عدداً من قبيلة السَّبَعَة، كما أنها الأقوى بين كل عشائر قبيلة عنزة؛ لأن فروعها تمتد حتى نَجْد واليمن في وسط الجزيرة العربية وتخومها. اهـ.

لا شك في كثرة قبيلة الفِدْعَان وشجاعتهم، وصيحتهم في الحرب: (الرُّوْم)، لكن لا تصل في انتشارها وتنقلاتها إلى اليمن، ومواطن الفِدْعَان القديمة هي نفسها مواطن قبيلة عنزة، وهجرتهم إلى الشمال كانت من نَجْد في وسط الجزيرة العربية.

وفي ص٢٢٣ وفي أثناء إقامتهم عند الفِدْعَان قال مورس: ..بعد ذلك واصلنا مشاهدة ما أحضر إلى مخيمنا من الأفراس الكثيرة، بالإضافة إلى حصانين أو ثلاثة. كم هي؟ لا أدري!! ربما مئة أو مئتان، الرقم لا يهم، لكن نعم تهمنا مواصفاتها ونوعها وسلالتها.

الغالبية العظمى منها لا يتسم بالصفات ولا حتى بالملامح الأصيلة للسلالة النبيلة، إذ تبدو رؤوسها طويلة وعيونها صغيرة، وأردافها قصيرة مائلة، كما أن الوضع الرأسي الرديء لأطرافها يعطي تصوراً واضحا للسلالة المحلية التي تنتسب إليها. ويبقى متنها الجيد مميزاً وظهرها الجميل مع صدرٍ عالٍ وعميق. ومن السلالات النبيلة ثمة نماذج قليلة جداً، وإن كانت في معظمها مليئة بالعيوب، وهو ما يجعلها غير مقبولة؛ لكن بقيت هناك أخرى قليلة لا تؤثر تلك العيوب الطفيفة في ترتيب أجزاء

Scanned with CamScanner

بعضها في إنقاص قيمة الجميع. ويعزز هذا التحري كون معيار وفدنا - كما كنت أكرر دائماً - هو رفض أي نقص أو عيب صحي أو بنيوي مهما كانت المميزات الأخرى للحصان. اهـ.

وفي ص٢٢٤ قال مورس: إن هذا الحصان الذي نبحث عنه يبدو أنه لا يوجد في أي مكان، والسؤال الذي يطرح نفسه هو: هل اختفت هذه السلالة؟ هل عندما نقلت هذه الخيل الشهيرة إلى أوروبا لم تترك لها نظائر هنا؟ هل انقرض جيلها نهائياً؟ وهل تَدَخَّل في هذه السلالة الخيلية منذ ذلك الوقت وحتى الآن أي دم غريب عليها فحدث هذا الخلل؟ أم أنَّ البدو وغير البدو والعرب عامة غيّروا معاييرهم فيما يختص بالعناية بالخيل وتربيتها؟

لا يا أصدقائي، إن كل ما يتعلق بالإنسان والخيل على حد سواء بشكل مطلق ما زال بالضبط في الأحوال والأوضاع نفسها كما كان في قرون وأعوام سالفة.

السلالة موجودة وباقية. لم تختلط دماؤها بعنصر غريب عن دمها، ولو اختلاطاً قليلاً. ما زال العرب مستمرين بالضبط على قواعد تربية الخيل ونظمها وترويضها نفسها، كما كانوا يفعلون في عصور عتيقة، مع صعوبة ملاحظة أقل تغيير في نمط حياتهم وعاداتهم. اهـ.

وفي ص٢٢٧ قال مورس: نواصل مع قبيلة الفِدْعَان وبخلاف كونهم أكثر خشونة في أنماطهم الاجتماعية من قبيلة السَّبَعَة إلا أنهم لا يختلفون عن السَّبَعَة فيما يختص بالملابس والهيئة والعادات. كلهم يلبسون جلابيب طويلة مع حزام وعباءة أو معطف من الصوف الثقيل ذي ألوان تشبه الوان بطاطين الذخيرة التي يستخدمها جيشنا، ما عدا الرؤساء فإنهم يلبسون معاطف سوداء فوق جلابيب بيضاء ذات حاشية صغيرة مطرزة بالذهب.

Scanned with CamScanner

هؤلاء يُسلِّمون على بعضهم كأنداد بوضع أيديهم على أكتاف أصدقائهم في الوقت الذي يؤدون فيه قبلة متبادلة على كلا الخدين بصورة مماثلة لطقوس كهنتنا في الاحتفالات الدينية.

ويُعد الوشم الفاخر ظاهرة عامة عند النساء والرجال على حد سواء، فالرجال يظهرونه في الأيدي والأذرع، في حين تضعه النساء على الوجه والرجلين على شكل نجوم أو مثلثات أو أسورة.

أحد التفصيلات غير المهمة التي نسيت أن أدوّنها ولا تخلو من طرافة، هو ذلك الإيماء المختلف الذي يستخدم في الشرق لتأكيد أي طلب أو رفضه. يتم الرمز أو الإيماءة التأكيدية بطريقتنا نفسها، أي بتحريك الرأس من أعلى إلى أسفل في اتجاه رأسي؛ لكن الإيماءة السلبية يعبرون عنها بمنطقية أكثر، أي بعكس إيماءة التأكيد، وذلك بحركة سريعة للرأس من أسفل إلى أعلى، وليس من الشمال لليمين كما تعودنا نحن.

بعد مضي منتصف الليل من اليوم الرابع والعشرين فككنا خيامنا لنغادر فجراً مكاننا هذا، لأن قبيلة الفِدْعَان ليس لديها أكثر مما قد رأينا، كما ازدادت فظاظة رؤسائها وجلافتهم.

بعد تحركنا بمدة قصيرة لاحظنا جزءاً كبيراً من قبيلة الفِدْعَان بدأ يسير في الاتجاه نفسه الذي نسير فيه نحن؛ لكن يجب ألا نخشى هذا الأمر، لأنهم يتحركون برفقة نسائهم وماشيتهم. ولقد عرفنا من شرطة حرسنا أن أولئك السائرين كانوا ساخطين وغير راضين من مقدار الإتاوة التي فرضت عليهم، فانفصلوا عن الرئاسة لعدم دفعهم تلك المبالغ.

يُكلِّف السلطان كل قبيلة دفع مبلغ مرتفع حسب عدد رؤوس ماشيتهم. تاركاً للرؤساء الحرية التامة فيما يتعلق بتقسيم هذه الأموال بين أفراد القبيلة

Scanned with CamScanner

بالطريقة التي يرونها مناسبة. وقد كان هذا الأمر يترك مجالاً لشيوخ القبائل لإلقاء عبء الحصة على خصومهم. الشيء نفسه الذي كان يفعله محافظو مدننا الصغيرة. وهذه الصراعات الداخلية تكون دافعاً لكي تنقسم القبائل إلى أفرع صغيرة كما يحدث في الحالة التي أمام أعيننا.

ويبدو أن المُتبرِّمين جَرَّاء ذلك التصرف أناس كثيرون، إذ إنه خلال الساعات الخمس أو الست من سيرنا الحثيث بالخيل لم يبتعدوا عن أنظارنا كثيراً. ونستطيع أن نقدر بأنهم كانوا يُكوِّنون طابوراً بطول ١٧ كيلو متراً.

كانت كل أسرة تحمل ممتلكاتها وأمتعتها على الجِمال التي تركب عليها أيضاً النساء والأطفال الصغار، يتبعهم الرعاة بماشيتهم المكونة من الخراف، والإبل والأفراس التي يمتطيها فرسان تلك الأسرة، في حين يمتطي الصبيان الذين تتراوح أعمارهم بين ١٠ و ١٢ عاماً تلك المهرات الصغيرات التي لم تتجاوز أعمارها سنة واحدة. بهذا التشكيل المُنظَّم يجوبون الصحاري منذ آلاف السنين دون أن تجعلهم حياة الترحال ذات الخطر يرغبون في رفاهية الحضارة. اهـ.

وعن أفضلية خيل قبيلة عنزة روى لنا مورس كلام الطبيب الخاص لإبراهيم باشا حاكم كُردستان في عام ١٣٢٣هـ/١٩٠٥م حيث قال في ص٢٤٦: **وعمّا لدى القبائل البرية أشار الطبيب إلى أن قبيلتي شَمَّر وعنزة هم الذين يملكون أفضل الخيول، وإن كانت قبيلة عنزة تحتفظ بالسلالات التي هي أكثر تميزاً.** اهـ.

وفي ص٢٥٨ ساق لنا مورس نص الشهادة التي كُتبت للمهرة التي سمّوها (عنزة) فقال: **بعد هذا الاستطراد، قد يلزم أن أذكر أنه عندما كنا في حلب حصل قنصلنا السيد ماركوبولي من قبيلة السَّبَعَة العنزية على مهرة كنا**

Scanned with CamScanner

نود شراءها، كما أنهينا إجراءات شراء حصان واحة حانوتة؛ تلك المُهرة عُمِّدت باسم (عنزة)، في حين كان الحصان باسم (أب).

كذلك اشتُري مُهر عمره عامان، أصيب من سلسلة نسب جيدة، وله ملامح عريضة، وقد جُلب حديثاً من بغداد، وأعطي اسم (حلب).

Scanned with CamScanner

شهادة أصل المُهْرَة عنزة:

بسم الله الرحمن الرحيم

والخيل العربية هي التي تنطلق إلى الهجوم صاهلةً، وتجري بسرعة عجيبة، لذا فإن حوافرها في الليل وعلى الأرض الحجرية تحدث شرراً من نار. وعندما يقودها فرسانها، فإنها تكرُّ على العدو منذ بزوغ فجر اليوم حتى تدوس عليه ويغطيه الغبار. ويؤكد المولى ذلك في محكم كتابه وهو الحقيقة الصادقة التي لا تتخطاها أي حقيقة؛ والنبي ﷺ يقول: «الخيل معقود في نواصيها الخير»[1]. وقال كذلك: «إن الله قد زيّن وجه الفرس، ظهرها عز وبطنها كنز»[2]. بهذا نشهد بأن المُهرة الشهباء اللون الصَّقْلاوِيَّة - القِدْرَانيَّة التي عمرها ثماني سنوات من خيول ابن جْبَيْنَة من قبيلة المُوَايْقَة من السَّبَعَة، وأمها من الخيول الصَّقْلاوِيَّة، وهي كذلك من نسائم الريح وقد تغذَّت على العُشب؛ لذلك فإننا نشهد على ما نعلم والله أعلم.

حرر في اليوم الخامس من جمادى الثاني ١٣٢٣هـ

زابينا:

(هذه الشهادة ممهورة بالأختام الستة للشهود الستة وهم: حاج محمد بن بكري، حاج علي عجال، محمد بكري، محمد عبده، باشيد عبيد).

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) لم أجد أحداً من أئمة الحديث قد أخرجه فيما بحثت فيه والله أعلم. وهو قول مأثور عن السلف رحمهم الله.

إن ما ينتج عن شهادة المنشأ السابقة وفيما يخص الأختام التي يختمها الشهود في الوثائق العامة سألفت الانتباه إلى أن البدو الأعيان وعامة الأكراد والأتراك الذين لا يعرفون الكتابة يمهرون أو يختمون بالأختام المكتوبة عليها أسماؤهم، وعندما لا يملكون هذا الختم فإنهم يبللون أنملة إصبع إبهام اليد اليمنى بالحبر ويبصمون على الوثيقة.

من هنا نستنتج أن المعلومات الخاصة بالبصمات التي نشرتها المعاهد المختلفة بدراسة قياس الجسم البشري على أنها تقدم لعلم إثبات الشخصية كانت معروفة وممارسة عند العرب ربما قبل أن تصل إلى أوروبا بقرون عدة. اهـ.

حصلت بعثة مورس على عدد لا بأس به من الخيل الأصيلة، وقاموا بشحنها عن طريق موانئ لبنان.

Scanned with CamScanner

الصحراء والمعمورة

١٣٢٥هـ/١٩٠٧م



ترجمة: عادل زكار.

الناشر: مكتبة العبيكان، الرياض، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

عدد الصفحات: ٤٤٠ صفحة.

الرحَّالة والرحلة:

الرحَّالة هي جيرتروود بيل، وقد تقدمت ترجمتها عند استعراض رسائلها عن بلاد الشام وشمال الجزيرة العربية. وهذا الكتاب (الصحراء والمعمورة) يأتي في هذا الإطار إلا أنها قد كتبته بطريقة اليوميات، وقسّمته إلى (١٤) فصلاً.

Scanned with CamScanner

قبيلة عنزة
في رحلة بيل



تحدثت بيل في ص٤٦ عن القبائل الشامية حيث قالت: **وتتنازع قوتان السيطرة على الصحراء السورية، وهما قبيلة بني صَخْر وقبيلة عنزة. وهناك صداقة تقليدية بينهما وبين عرب البَلْقَاء ولكن هذه الصداقة تفسدها أحياناً بعض الحوادث المؤسفة. ولعل هذا هو السبب في أنني سمعت في هذه المناطق أن عنزة هي الأكثر عدداً، ولكن رجالها أقل شجاعة من الصُخُوْر**. اهـ.

نعم، تربطنا - أيضاً - بقبيلة بني صَخْر رابطة المحبة والأخوة والمصاهرة ولا شك في عراقة هذه القبيلة العربية الأصيلة.. لكن هنا سؤال يطرح نفسه: من هو الذي شقّ طريقه بحد السيف من الحجاز ونَجْد حتى ثبت أطناب بيته في أفضل المناطق في بلاد الشام؟ أليست هي قبيلة عنزة؟! بل إن من فعل ذلك بعض قبيلة عنزة، ولو أتت كل قبيلة عنزة لأكلت الأخضر واليابس، ولما وقف في وجهها أحد، والتاريخ بيننا وبين من يخالفنا.

أليست قبيلة الرُوَلَة - والتي هي إحدى قبائل عنزة - إذا قدمت من نَجْد والجوف في مسيرة طولها أكثر من ألف كيل وعلمت بها القبائل

Scanned with CamScanner

الشامية تفرقت وابتعدت عن طريقها؟! كل ذلك خوفاً من قبيلة واحدة من قبائل عنزة فما بالك إذا أتت كل عنزة؟!! ولعل هذا من رحمة الله بالناس أن عنزة لا تتفق في كثير من هجراتها وتنقلاتها.

وبعد كل هذا من هو الشجاع. هل هو الذي لا يبرح مكانه منذ عدة قرون أم من يطوف الصحاري والقفار لا يرده أو يعترض طريقه أحد؟! طبعاً بصرف النظر عن قبيلة بني صَخْر أو غيرها، أنا فقط أضع هذه الاسئلة لأرد على كل من تسوّل له نفسه أن ينعت قبيلة عنزة بصفة لا تليق بها ولا بتاريخها الناصع والمشرق ولله الحمد والمنة.

وفي ص٤٧ تحدثت بيل عن مكانة قبيلة الرُّوَلَة فقالت: **أنا لا أعرف عنزة لأن تجمعهم في الشتاء قرب الفُرَات، ولكن مع الأخذ بالاعتبار اختلافهم مع الصُّخُوْر، فأنا أتصور إنهم يمثلون القبائل الأكثر نَبَالَة في الصحراء، ويحظى شيوخهم بنو الشّعْلان بالجاه الأكبر بين شيوخ العشائر، وخيولهم هي أفضل الخيول في الجزيرة العربية، وحتى قبيلة شَمَّر أتباع ابن رشيد يأتون بعدهم محاولين منافستهم بكرم المحتد.** اهـ.

لم يأت نبل وفضل قبيلة الرُّوَلَة من فراغ، بل هو نتيجة تمسكهم - ولله الحمد - بمكارم الأخلاق التي جاء الإسلام بتكميلها وتأكيدها حيث قال الرسول ﷺ: «**إنَّما بُعثت لأتمم مَكَارِم الأخلاق**». من كرم ونخوة وشهامة ومروءة. وهذا لا يقلل من شأن قبيلة شَمَّر العريقة فهم مع الرُّوَلَة كفرسي رهان لا يمكن أن تحكم لأحدهما بالتقدم على الآخر.

وفي ص١٥٣ قالت بيل: **وتجتاح الصَّفَا في الصيف جحافل الغزاة. فتجوس خلاله قبيلة ضخمة مثل عنزة لتسدد ضربة إلى بعض أعدائها في الشمال أو الجنوب جارفين الغِيَاث في طريقهم. وحيث لا يوجد الماء إلا في أماكن قليلة جداً في هذا القفر الصخري المتفاوت بدرجات الحرارة بين**

Scanned with CamScanner

الليل والنهار فإن الغزاة شأنهم شأن الغِيَاث المتبقين في السهل ليس لديهم خيار إلا أن يرتادوا في الظلام بِرَك الماء الموحلة نفسها. ويقضي الغِيَاث أيامهم ليل نهار مطاردين مذعورين حتى تخرج القبيلة الكبيرة من الصَّفَا متجهة مرة أخرى نحو الشرق إلى الحَمَاد. اهـ.

قبيلة عنزة التي تذكرها الآنسة بيل هي قبيلة الرُّوَلَة، فهي التي تتواجد في الصيف في بلاد الشام، وعند دخول الشتاء تبدأ في الرحيل إلى الحَمَاد، ومن ثم إلى الجوف لقضاء فصل الشتاء هناك. وهذه هي عادتهم في كل سنة، رحلة في الشتاء ورحلة في الصيف.

Scanned with CamScanner

في الصحراء العربية
رحلات ومغامرات في شمال جزيرة العرب
١٣٢٦ - ١٣٣٣هـ
١٩٠٨ - ١٩١٥م



تحرير: كاثرين مكغيفرت رايت.

ترجمة: عبد الإله الملّاح.

مراجعة وتعليق: د. أحمد إيبش.

الناشر: هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

عدد الصفحات: ٣٦٤ صفحة.

نبذة عن الرحّالة[١]:

هو الرحّالة التشيكي ألويس موسيل، ولد في عام ١٢٨٥هـ/ ١٨٦٨م في قرية ريختَرزدورف Richtersdorf وبالتشيكية ريختاروف لأسرة نمساوية من المزارعين الفقراء.

تخصص في علم اللاهوت والعهد القديم، وأجاد اللغتين العربية والعِبْرِيَّة. وفي عام ١٣١٣هـ/ ١٨٩٥م حصل على شهادة الدكتوراة. عمل في التدريس الجامعي من عام ١٣٢٠هـ/ ١٩٠٢م إلى عام

(١) من مقدمة الدكتور أحمد إيبش على الكتاب باختصار.

Scanned with CamScanner

١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م. تخلل ذلك مشاركته في تأسيس معهد الاستشراق في أكاديمية العلوم في براغ.

توفي موسيل عام ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م بتأثير مرض الكلية.

نبذة مختصرة من أعمال موسيل ورحلاته:

يعود الفضل في كثير من النجاح الذي حققه موسيل بعد الله - عز وجل - إلى الأمير النُّوْرِي بن هَزَّاع الشِّعْلان - رحمه الله - حيث حصل موسيل على ثقة هذا الأمير العربي النبيل الذي شمله بحمايته وعطفه. ومنها نشأت علاقة متينة بينه وبين الأمير النُّوْرِي الذي جعله يتجول بكامل حريته في شمال الجزيرة العربية وبادية الشام، قضى منها فترة طويلة مع قبيلة الرُّوَلَة التي ألَّف عنها كتابه الشهير: عوائد عرب الرُّوَلَة وشمائلهم أو أخلاق الرُّوَلَة وعاداتهم.

ومع أن علاقة موسيل مع الأمير النُّوْرِي قوية لكنه لم يستطع أن يقنعه في الوقوف مع الدولة العثمانية وألمانيا ضد بريطانيا وحلفائها في الحرب العامة الأولى، فقد أرسلوه في عام ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م إلى الأمير النُّوْرِي في هذه المهمة لكنه لم يُفلح في ذلك. وما إن هَبَّت رياح الثورة العربية ضد الدولة العثمانية حتى وقف الأمير النُّوْرِي مع الشريف حسين بن علي بكامل قوته، وما كان لهذه الثورة أن تنتصر لولا وقوف الأمير النُّوْرِي هذه الوقفة الشجاعة وتجنيده حوالي ٥٠٠٠ آلاف محارب من قبيلة الرُّوَلَة كان لهم الفضل في هذا النصر؛ بل في حفظ الأمن والنظام في دمشق عاصمة البلاد الشامية في ذلك الوقت عندما جَلَتْ الدولة العثمانية عنها ودخلتها القوات العربية.

تجوَّل موسيل في بلاد الشام والعراق وشمال الجزيرة العربية، وزار الجوف وحائل والقَصِيْم والعُلا وشمال غرب الجزيرة العربية. وكان نتيجة

Scanned with CamScanner

هذا التجوال أن ترك موسيل نتاجاً علمياً كبيراً من المقالات والكتب والرحلات، الذي جعل الحكومة النمساوية أن تكرِّمه بعدة أوسمة.

وهذا الكتاب الذي نستعرض ما جاء فيه عن قبيلة عنزة ليس من وضع موسيل في صورته الحالية؛ بل حررته الكاتبة الأمريكية كاثرين مكغيفرت رايت مُلخصاً من كتابيه الشهيرين: الصحراء العربية، وعوائد عرب الرُّوَلَة وشمائلهم، وصدر في نيويورك عن دار هوراس ليفرايت في عام ١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م أسوة ببقية كتب موسيل التي صدرت في نيويورك ما بين عامي ١٣٤٦ - ١٣٤٧هـ/ ١٩٢٧ - ١٩٢٨م[(١)].

ومن الكتب التي ألفها موسيل:

١- العراق وسوريا (١٣٣٣هـ/ ١٩١٥م).

٢- الجزيرة العربية (١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م).

٣- شمالي الحجاز (١٣٤٥هـ/ ١٩٢٦م).

٤- شمالي نَجْد (١٣٤٧هـ/ ١٩٢٨م).

٥- مملكة تَدْمُر (١٣٤٧هـ/ ١٩٢٨م).

٦- عوائد عرب الرُّوَلَة وشمائلهم (١٣٤٧هـ/ ١٩٢٨م).

(١) انظر: مقدمة الدكتور أحمد إيبش على الكتاب، ص٧.

Scanned with CamScanner

قبيلة عنزة
في رحلات موسيل



قال موسيل في ص١٩: قال نُوْرِي الشّعْلان شيخ أو أمير عشيرة الرُّوَلَة في زيارتي الأولى لبيت الشَّعْر الخاص به عام ١٩٠٨م (١٣٢٦هـ): «لن يقف في وجهك شيء يا موسى ويمنعك من التجوال في البادية الواسعة وأنت في حمايتي».

أشاعت كلماته في نفسي من الثقة ما جعلني في نهاية سبتمبر من عام ١٩٠٨م (شعبان ١٣٢٦هـ) أنتقل ورفاقي وحمولتنا إلى مضارب عشيرته التي كانت منصوبة في ناحية ضْمَيْر على بعد قرابة الثلاثين ميلاً شمال شرق دمشق.

حين عزمت على القيام بمسح طبوغرافي مفصَّل قدر المستطاع لجزيرة العرب، والتعمُّق في إسهامات السَّاميين في حضارتنا، وبلوغ فهم أفضل للسكان والبلاد على العموم، بدا لي أنه ليس ثمَّة سبيل أفضل من مشاركة البدو الرُّحَّل عيشهم، وأزياءهم ومأكلهم ومشربهم، والتجوال معهم في ترحالهم، فيتوفر لي على هذا النحو ما يتيسر من المعلومات عن عاداتهم وتقاليدهم وتراثهم.

ساعدني في هذا الأمر كثيراً معرفتي بلهجاتهم والحماية التي شملني

Scanned with CamScanner

بها شيوخ العشائر القوية الذين كسبتُ صداقاتهم بعد مرارة العناء. ويعود الفضل على وجه الخصوص في ما توافر لهذه الحملات من نجاح، إلى صداقة الأمير النُّوْرِي، إذ فتح نفوذه أمامي الطريق لأسلك دروباً كثيرة ما كانت لتُفتح لولاه. وكانت حمايته نعمة حقيقية، إذ كان البدو معروفين بالشقاوة.

صحبني أوروبي اسمه رودولف توماسبرغر Rudolf Thomasberger في الرحلة، سمَّيناه اختصاراً: تومان، ليساعدني في رسم الخرائط والعناية بأدواتي العلمية. أما المهمة الأكثر أهمية والتي أنيطت برفاقي من أهل البلاد فقد وقعت على ناصر، وهي حراسة الجِمال والمؤن. وكان معنا اثنان آخران، هما: محمد وبُلَيْهَان، يرافقانني في جولاتي العلمية حين أبتعد عن مضارب النُّوْرِي، وكان محمد يعمل لدينا طاهياً وبُلَيْهَان حارساً يرد عنا رفاقه من رجال العشيرة. وكان هناك بعدُ حَرَّان الذي يساعدنا في تحميل المؤن ورعي جِمالنا السبعة عشر.

وكان لدي خيمتان: الكبرى ذات شكل مستطيل شبيهة بالخيام التي يستخدمها العُقَيْلي (تاجر الجِمال) وفيها كنا نُخَزِّن مؤننا ويعيش رفاقي. وفي الخيمة الأخرى المستديرة كنت أنام وأعمل. وكنت أنصبهما حيثما انتقلت العشيرة، إلى جوار خيام الأمير النُّوْرِي، فيشير موقعهما إلى أني جاره وفي حمايته مسافر تحت أنظاره وجاهه.

في منتصف شهر نوفمبر أخبرني بأن علينا أن ننتقل إلى جنوب غرب تَدْمُر، قائلاً: سوف نحول مضاربنا إلى جنوب غرب تَدْمُر وننتظر هناك حتى تأتي ملائكة الله لنا بالغيوم الممطرة وتسقي العطاش.

أثار فضولي أنني كنت أرى النُّوْرِي يثقل نفسه بالسلاح. حيث يتمنطق بخنجر ومسدس قاسر Gasser ببكرته ذات الثمان طلقات والجنادات

(المِجْنَد) حول كتفيه فيها ذخيرة من ثمان وأربعين خرطوشة وقرابة مئة وعشرين طلقة مانليخَر Mannlicher وبندقية لا تفارق يده أبداً، فسألته: لمَ كل هذا السلاح وأنت في مضاربك؟!

فأجابني: هذه يا أخي موسى، عادتنا. فنحن في حرب مع عدد كبير من العشائر، وأنا شيخ الرُّوَلَة وعقيد حرب وُلْد علي والشَّرَارَات، وعليَّ أن أكون متأهباً دائماً لرد العدوان. ينبغي أن أكون شديد الحذر واليقظة، إذ لا ادري متى يفاجئني من يسعى إلى الانتقام مني. اهـ.

وفي ص٢٢ تحدث موسيل عن رحيل قبيلة الرُّوَلَة فقال: كانت قمم التلال العالية إلى الشمال منا والغرب والجنوب تبرق بجمال أخَّاذ أشاعه الثلج المتساقط. ولقد جعلني الشعور بهذا الجَمال أرغب في التجوال سيراً على الأقدام، لولا أن الأمير (النُّوْرِي) أقنعني بأن الكرامة تفرض بأن أخرج ممتطياً الجواد. وقال لي: «لقد أصبحت يا موسى، أخاً لي ولنَوَّاف، فأنت بالتالي من شيوخ عشيرتنا، والشيخ لا يخرج إلى ديار أخرى ماشياً؛ بل يجب عليه أن يتوجه إليها على رأس عشيرته راكباً».

. .وجدنا عند رأس عشيرتنا الشيخ رشيد بن سْمَيْر، وكان عمره قرابة الثلاثين سنة، وعلى وجهه الممتلئ ملامح البِشْر. وأخبرنا عندئذ أنه قد أقنع النُّوْرِي بالمضي جنوب تل دكوة، وهو بركان خامد. وهذا الطرف الجنوبي من ديرة التلول لم يسبق أن قصدته الجِمال من قبل. فعلقت بأن النزول في أرض الأعداء والرعي في أفضل مراعيهم سيكون امتحاناً شديداً لشجاعة كلا الزعيمين.

وأثنى النُّوْرِي على كلامي بقوله: «والله صدق موسى. فالعشائر والقبائل التي تسكن منطقة تلول الصَّفا ليسوا أعداء من أهل الشهامة؛ بل هم لصوص غدَّارون، تراهم يتسللون من مكامنهم ثم يفرون بسرقاتهم حالما

Scanned with CamScanner

تقع أبصارهم علينا. فليست لهم شجاعة أو قوة لمواجهتنا بل تجدهم يتخلَّون عما نهبوه ليعودوا إلى جحورهم».

«هل طاردتهم من قبل أو بحثت عنهم في الجبال حيث يقيمون؟».

«قد فعلتها مرتين؛ لكننا خسرنا الكثير من الجِياد في هاتين المطاردتين؛ لأن الخيول لم تعتد أرض الصَّفا، فكانت خسائرنا تزيد أضعافاً عما كنا سنربحه باستعادة ما نهب».

وأضاف رشيد: «ما من بدوي يحارب في أرض حَرَّة. أرض الصحراء الفسيحة وحدها توفر إمكانية خوض معركة جيدة».

وببطء نفذنا إلى أرض يكاد يتعذَّر السير فيها. فقد كانت مغطاة كلها بمساحات من صخور بركانية متناثرة دونما انتظام ورمال يبرز فيها الكثير من الصخور السُّوْد المسننة التي يبلغ ارتفاعها عشرة ياردات وتمتد على مسافة تتفاوت ما بين المئة والثلاث مئة ياردة، معظمها مشطورة من أعلاها إلى أسفلها، وفجأة تعثرت حوافر مطيتي وتهاوت على الأرض، وأوقعتني معها.

صاح النُّوْرِي: «لولا لطف الله لكانت عنقك قد دُقَّتْ». وظلت الناقة التي كنت أمتطيها ترتجف حيث كانت على الأرض، لفترة من الزمن، وأنا لا أقوى على حملها على النهوض.

في عشية ذلك اليوم مضى الأمير (النُّوْرِي) يتقدمنا باحثاً عن مكان مناسب لننصب فيه خيامنا، وفجأة أشار لنا بكمي قميصه الأبيض وعصاه التي يهمز بها الجمل إلى بقعة. وهنا كان عليَّ أن أنيخ ناقتي وأنصب خيمتي. لم يكن قد نزل إلى الأرض من فوق ظهر جمله حين وجد نفسه مُطَوَّقاً بالعُرْبَان من حوله، وجميعهم يبحثون عن أفضل مكان لنصب خيامهم. اهـ.

Scanned with CamScanner

غزوة الدُّرُوْز على الرُّوَلَة وَوُلْد علي:

قال موسيل في ص٢٧ : كان الجو شديد البرودة؛ ولكني تمكَّنتُ من النوم طوال الليل، فجعلتني هذه الراحة أستعيد قوتي. ثم طرق سمعي قبيل ظهر اليوم التالي، وأنا في خيمتي أحاول أن أعمل، صرخة مروعة: «هيَّا هبُّوا! غزاة يداهموننا!»..

خرجت مسرعاً لأستطلع النبأ فرأيت النساء والصبايا يُهْرَعْنَ إلى الخيل ويضعن السروج عليها، ويَقُدْنَها إلى أزواجهن وإخوانهن الذين يطرحون فرواتهم الثقيلة من جلد الغنم ويضعون على أكتافهم جنادات (مَجَانِد) الرصاص ثم يحملون بنادقهم.

وبأقل من دقيقتين، خرج المقاتلون على ظهور الخيل بسرعة نحو الجنوب لردِّ عدو مجهول، وسمعت من بينهم فتى يمر بخيمتي مُنشداً:

يــا رب يــا رب الــرّحــوم   تــرمــي الــحَـيَـا بــديــارنــا
نــرمــي الـعـشـا لـلـي يـحـوم   لــعــيــون جِــلّ ابــكــارنــا

وكانت مثل هذه الأهازيج تعلو من الجوانب كافَّة، يستمد منها المقاتلون الشجاعة لخوض المعركة المنتظرة. فأي منهم يعود بعدها إلى أهله؟

حافظ كل من كان في المضارب على الهدوء ورباطة الجأش فلا امرأة تنوح، ولا شيخ يعرض نصيحة. وكان الجميع قد برزوا لمطاردة المغيرين، إلا قلة مكثوا للدفاع عن الحمى، فصعدوا إلى صخرة في جنوب الموقع ومعهم بنادقهم، وكنت أتعثر في مسيري أثناء لحاقي بهم لعلي أستطيع متابعة المعركة بالمنظار. ورأيت عندئذ مقاتلينا ينقسمون إلى مجموعتين: إحداهما وهي الأقوى مع الأمير في المقدمة، تتجه

Scanned with CamScanner

نحو الجنوب الغربي من المضارب. ثم سرعان ما توارت الجماعتان عن الأنظار خلف عائق عال من الصخور، ولم يعد بوسعنا متابعة ما يجري هناك.

في عصر ذلك اليوم ورد إلينا ثلاثة فرسان (فأخبرونا) بأن جماعة من الدُّرُوْز ظهروا في الصباح إلى الجنوب من خيامنا ومعهم أتباعهم من مُرَبيّ الماعز والغنم، فهاجموا قطعان ابن مِجْوَل. وقاد الغزاة قطيعاً يربو تعداده على السبعين جملاً؛ ولكن حين أوصل الحُرَّاس الخبر إلى منازل العشيرة وهُرِع مسلحو الأمير لملاقاتهم، تركوا الغنائم وولوا الأدبار.

ولقي سعود بن النُّوْرِي توبيخاً لأنه لم يُبد يقظة أشد في الحراسة.

وكان جوابه على هذا التقريع من والده: «ولكنني حسبتُ، يا أبي، أن شدة البرد ستمنع الدُّرُوْز من ترك منازلهم الدافئة، وأن أبناء العشائر الأخرى سوف يلازمون ديانهم».

ولكن النُّوْرِي قطع عليه استرساله في التبرير، وقال له مُنتهراً: «اسكت ولا تُسَوِّد وجهي. البدوي لا يعتمد على برد أو حَرّ، ولا يثق بعدوه، وإنما يثق بنفسه وسلاحه وحسب». اهـ.

وفي ص٣٠ قال موسيل: وبعد حديث استغرق منا بعض الوقت راح نَوّاف يتباهى ويطنب في مآثر جده هَزَّاع. ومضى في حديثه، فقال: «ولكن ابن أخيه سَطَّام زاد عليه. فقد تزوج بتُرْكِيَّة من آل مُهَيْد، بعد أن وقع في غرامها. وكان آل مُهَيْد في خصومة شديدة مع الرُّوَلَة، ومن آل مُهَيْد هؤلاء ينحدر شيخ الفِدْعَان الآن. وقد صادف أن خرج سَطَّام ذات مرة على رأس مقاتلينا لغزو الفِدْعَان، وتمكَّن من رجالهم حتى رَدَّهم إلى خيامهم، وهناك رأى لأول مرة تُرْكِيَّة ذات البشرة البيضاء، وهي تستثير حمية أبناء قبيلتها، عارية الصدر محلولة الشعر، ليبدي هؤلاء كل ما لديهم من مقاومة. وكان

Scanned with CamScanner

النصر حليف سَطَّام ذلك اليوم، إذ رَدَّ رجال الفِدْعَان إلى ما وراء مضاربهم؛ ولكنه نهى جماعته، مع ذلك، عن هدم بيوت الشَّعْر أو النَّهب.

واكتفى بأن قال لها: أخبري أباك والمحاربين، يا تُرْكِيَّة، أن سَطَّام يرد إليكم بيوتكم. ثم غادر منازل العشيرة.

ولقد أعجبت تُرْكِيَّة بتلك الشهامة، حتى أنها أعرضت عن الزواج من أي شخص آخر سوى سَطَّام، ثم أقنعت أباها بالقبول به زوجاً لها. ولقد عرفتها وعرفت ولديها خالداً وممدوحاً». اهـ.

وعن تسلسل الزعامة في قبيلة الرُّوَلَة قال موسيل في ص٣١ نقلاً عن الأمير نَوَّاف بن النُّوري بن هَزَّاع الشَّعْلان قال: **«وبعد هَزَّاع تولى سَطَّام الزعامة وصار الآمر على كل عشائر ضَنَا مُسْلِم [من عنزة]، واستمر أمره فيهم خمساً وعشرين سنة. وكان يعتمد على زوجته تُرْكِيَّة اعتماداً كبيراً، ويُقَدِّرُهَا ويحرص على بقائها دائماً بقربه. وتعتبرُ الرُّوَلَة فَهْدَاً خليفة لسَطَّام، وإن لم تُبق على ولائها له طويلاً بسبب جشعه وسوء طويته. ولقد أنزل الله به ما يستحق، وهكذا غدا النُّورِي، والد أخيك نَوَّاف الذي يروي لك ما تسمعه، شيخ الرُّوَلَة جميعاً»**. اهـ.

بعد مقتل الأمير فيصل بن نايف الشعلان عام ١٢٨٠هـ/ ١٨٦٤م رحمه الله، على يد أبناء عمه المشهور، تولى الإمارة الأمير حُمُوْد بن حسين المشهور الشِّعْلان، وبمساعدة العَمَارَات (الاعْمَارَات) من عنزة وخصوصاً شيخ السَّلْقَا من عنزة الشيخ الفارس سَاجِر الرَّفِدِي عاد النَّايف إلى الإمارة والحكم، وذلك من خلال الأمير هَزَّاع بن نايف الشِّعْلان، فتولى الإمارة قرابة ١٢ سنة، وبعد وفاته - رحمه الله - تولى الإمارة ابن أخيه الأمير سَطَّام بن حَمَد الشِّعْلان، وبعد وفاته عام ١٣١٧هـ/ ١٨٩٩م رحمه الله، تولى الإمارة ابنه الأمير مشعل، فحصل خلاف بينه وبين أخويه

Scanned with CamScanner

لأمه فَهْد والنُّوْرِي أبناء الأمير هَزَّاع الشِّعْلان نتج عنه مقتل الأمير مشعل بعد توليه الإمارة بستة اشهر رحمه الله، فتقدم الشيخ خالد بن سَطَّام الشِّعْلان كوريث شرعي للإمارة، فقامت الدولة العثمانية باستفتاء لمعرفة من تريد قبيلة الرُّوَلَة أميراً عليها، فاختاروا فَهْد والنُّوْرِي أبناء الأمير هَزَّاع، فتولى الحكم الأكبر منهما، وهو الأمير فَهْد، وهذا - أيضاً - لم يمهل له فقد قُتل عن طريق الخطأ بعد ثلاث سنوات تقريباً من إمارته، واتهم به أخوه النُّوْرِي وأنه هو من دبر مقتله والله أعلم. اثر ذلك قام الأمير النوري بتولي الإمارة، فانشق عنه ابن أخيه الشيخ فارس بن فَهْد الشِّعْلان، مطالباً بالإمارة، وبدم والده الأمير فَهْد، إلا أن عمه الأمير النُّوْرِي أحكم سيطرته على الإمارة، وثبَّت دعائم حكمه على مدى أربعين سنة تقريباً، وأورثها لحفيده الأمير فَوَّاز بن نَوَّاف بن النُّوْرِي الشِّعْلان، وفيما بعد تم الصلح بين الأمير النُّوْرِي وابن أخيه فارس وعادت الأمور كما كانت ولله الحمد. رحمهم الله جميعاً[١].

والأمير سَطَّام باشا بن حمد الشِّعْلان إمارته كانت على الرُّوَلَة (الجِلاس) من عنزة ومن يتبعهم فقط. أما الأمير النُّوْرِي فقد ترأس على ضَنَا مُسْلِم من عنزة ومن بعده حفيده الأمير فَوَّاز.

وفي ص٣٦ تحدث موسيل عن زيارته لأحد موالي الأمير نَوَّاف بن النُّوْرِي الشِّعْلان ويُدعى دَامَان فقال: **في عصر هذا اليوم طلب مني نَوَّاف أن أصطحبه لزيارة عبده الأبيض دَامَان، وكان ينتمي إلى أسرة تعاقب أفرادها منذ القدم على خدمة أسلاف الأمير. وكان دَامَان وأهله من ذوي البشرة البيضاء في العشيرة كلها، إذ لم يكن من الممكن في القرن الأخير شراء رقيق أبيض. أما الأرِقَّاء السُّوْد فقد ظل التجار**

(١) انظر تفصيلات تاريخ إمارة ابن شِعْلان في كتابي: قبيلة الرُّوَلَة في التاريخ.

يشترونهم من مكة والمدينة بأسعار تتفاوت بين الستين والمئة مجيدي (أي ما يعادل ٥٤ و ٩٠ دولاراً).

كان دَامَان قد أصيب قبل سنتين بطلق ناري استقرَّ في عضلات ساقه اليمنى. واخترقت الرصاصة اللحم وخلَّف جرحاً على طول الساق، ومع أن الجرح اندمل، إلا أن الساق تورمت بعد عام واشتدَّ الألم، ولم يُجدِ في ذلك حتى الكيّ الذي عمله أهله للعلاج. وفي النهاية قاموا بفتح موقع الورم فسال منه الدم وتلاشى الورم والتأم الجرح بعدئذ وتعافى دَامَان من جديد. ولكن التوُّرم عاد ثانية، قبل عشرين يوماً من استدعائي لمعالجته، وصار المسكين لا يستطيع الحراك.

. وجدتُ دامان مُستلقياً في خيمة مكشوفة، لا يستر بدنه سوى قميص، وفتحتي أنفه محشوتين بما يقيه من التلوث بأنفاس الزائرين وروائحهم. وهناك أخذتْ زوجته تُلح علي بالرجاء أن أعمل على شفائه، ووعدت بتنفيذ أوامري بدقة. فقدمتُ لها الأدوية اللازمة وشرحت لها طرق استعمالها. اهـ.

الارتحال إلى تخوم الفُرَات: قبيل الرحلة:

قال موسيل في ص٣٩: مساء يوم الثلاثاء ٣ ديسمبر (١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م) تبددت الغيوم وصار الجو صحواً، والقمر ساطعاً، وما من شيء في الجو يُنبئ بالمطر الذي طال احتباسه. وكنت قد عزمت على القيام بجولة في البادية حتى نهر الفُرَات. فأشار عليَّ بُلَيْهَان عندئذ بأن نبدأ رحلتنا في الحال قبل موسم الأمطار.

ولقد وعد الأمير بأن يزودني بكتاب توصية إلى الشيخ فَهْد وابنه مِتْعِب من آل الهَذَّال شيوخ عشيرة العْمَارَات (الاعْمَارَات).

قلتُ مندهشاً: «ولكنكم في عداوة، فكيف توصيهما بنا؟».

Scanned with CamScanner

فَرَدَّ (النُّوْرِي) قائلاً: «صحيح يا موسى! إننا كشيوخ عشائر أعداء؛ ولكننا كرجال من خير الأصدقاء. وقسماً بحياتك يا موسى[1]، إنني أُكِنُّ لمِتْعِب من الحب ما أكنه لأولادي؛ لأنه رجل شهم ونبيل ومخلص، والله يشهد عليَّ أنني صادق فيما أقول».

(موسى): «ومع ذلك فإنك لن تتورع عن مهاجمته، وربما قتله؟!».

(النُّوْرِي): «إنني حين أكون على رأس محاربيَّ لا أوفر أحداً». والتفت عندئذ إلى كاتبه وأوعز إليه بكتابة رسالتين في التو إلى فَهْد ومِتْعِب. وكنت أود المغادرة في ذلك اليوم، لولا معارضة الأمير الذي أشار إلى ضرورة توافر دليل يرشدني إلى مسالك تلك الديار، ورغب في تعيين الدليل من عنده، وسَمَّى لي العبد عَنْبَر الذي كان مولده في عشيرة العْمَارَات (الاعْمَارَات).

قال لي نَوَّاف ناصحاً: «لا تصحب عَنْبَرَاً معك، يا موسى. فهو مغرور وسيكون عبؤه أشد من فائدته. توكَّل على الله وابدأ رحلتك مع بشائر الخير».

مضى بُلَيْهَان بأحد الجِمال إلى تَلَّة بركانية غير بعيدة من مكاننا لجلب الماء حيث توجد عدة شقوق صخرية تمتلئ بمياه الأمطار، أما الرجال فقد راحوا يُعدون لنا الزاد للطريق.

قَدَّرتُ يومئذ أن الرحلة ستستغرق منا ما لا يقل عن خمسة عشر يوماً أو عشرين في أقصى الحدود؛ ولكن نَوَّافاً ألَحَّ عليَّ، حين حضر، بأن أحمل مؤونة لخمسة وعشرين أو حتى ثلاثين يوماً. ولكن ذلك كان يشقُّ علينا، خشية أن نرهق الجِمال بالأحمال. اهـ.

---

(١) لا يجوز الحلف بغير الله عز وجل. غفر الله لنا ولهم.

وفي أثناء الطريق إلى العْمَارَات (الاعْمَارَات) تعرَّض موسيل ورفاقه لغزو مشترك من الفِدْعَان والسَّبَعَة إلا أنهم عندما علموا بأنه صديق للشيخ بَرْجَس بن هُدَيْب ردوا لهم ما سلبوا منهم.

وتعرَّض - أيضاً - موسيل ورفاقه لغزو من الفْرِجَة (الافْرِجَة) من الرُّوَلَة وعندما علموا أنه في حماية الأمير النُّوْرِي الشَّعْلان ردوا لهم ما سلبوا منهم.

وفي ص٦١ ذكر أنهم وصلوا مضارب الشيخ مِتْعِب بن فَهْد بن هَذَّال فقال: **كانت الأرض الواطئة التي مررنا بها تتوهج في ضوء أشعة الشمس الذهبية، حين ظهر أمامنا فجأة فارس توقف أمامنا وبندقيته بيده، وراح يتفحصنا وإذ تبيَّن له أننا مسافرون مسالمون وجَّه جواده نحونا ورد علينا التحية، ثم بلمسة من كعبيه على جانبي المُهر الأبيض دار حولنا خبباً. وأخبرنا عندئذ أن مِتْعِباً بن هَذَّال يقيم مضاربه إلى الجنوب من بئر قريطة، ثم مضى يسألنا عن مواقع مختلف القبائل والعشائر، وإذ انتهى حديثه غادرنا على عجل ليخبر مِتْعِب بزيارتنا المعتزمة. وصادفنا بعدئذ عدداً غفيراً من الرعاة ما انقطعوا يدفعون بقطعانهم من حولنا، يميناً ويساراً.**

كانت العتمة قد أرخت سدولها حين بلغنا أول بيت، فترجَّلنا أمام مضافة أقامها مِتْعِب لضيوفه. وكان لمِتْعِب بيتان، أحدهما منصوب على خمسة أعمدة ويقيم فيه مع أهله، والآخر يستقبل فيه ضيوفه. وبطرف هذا البيت نصبنا خيمتنا المستديرة، وأخذت أتحيَّن الدخول عليه للتحية بعد أن أرسلت من يعلمه بوصولي، وكان هو يجلس في المضافة إلى النار المتقدة وسط جمع كبير من الحضور. وما هي إلا دقائق حتى جاءنا أحد أقاربه للترحيب بي راجياً باسم الشيخ زيارة خيمته، فلم أكد أقطع خمس خطوات حتى وجدت مِتْعِباً يخرج للقائي. واستقبلني مُرحباً ثم قادني إلى بيته، فقام الحاضرون بإشارة منه وظلوا وقوفاً حتى جلست.

Scanned with CamScanner

جلس مِتْعِب عن يميني، وملت بيدي اليسرى على شِدَاد الجمل، وإلى اليسار كان ثَمَّة شيخ أكبر سناً يجلس متكئاً. وأمامي كان هناك حفرة مربعة الشكل ضخمة تتقد فيها نار عظيمة. وخلف تلك النار، إلى اليسار، جلس عبد أسود وأمامه انتصبت أربع دلال للقهوة، إحداها ضخمة. وخلف العبد الأسود تحلق البدو حول الموقد يدفئون أقدمهم الحافية. ثم جاء عبد آخر ببعض الوقود ووضعه على النار من فوق رؤوس الجمع.

بعد أن ألقيت التحية على الحضور أخذ كل شيخ يرحب بي، ويسأل عن أحوالي. وهنا انتصب العبد الذي كان يتولى إعداد القهوة فجأة ومسح عن أحد الفناجين آثار القهوة بخِرْقَة متسخة والتقطه بيده اليسرى وباليمنى أمسك بالدَّلَّة الصغيرة [المصب] وأخذ يصب القهوة فتنزل خيطاً رفيعاً من ارتفاع لا بأس به. فلما امتلأ خُمس الفنجان قدمه لي وأخذ ينتظر فراغي منه. فلما تذوقت القهوة تلمَّظتُ وتناولت رشفة طويلة وأنا أنظر إلى الآخرين، وبعد ثلاث رشفات طويلة متأنيَّة أعدت الفنجان الفارغ إلى العبد، فأعاد الصب مرة ثانية. فلما انتهى طقس الترحيب هذا صار لي أن أتصرف على هواي.

ولما غادر مِتْعِب المضافة رجعت إلى خيمتي حيث أخذت مع تومان بتثبيت الخيمة. وما كدنا ننتهي حتى دخل علينا مِتْعِب ودعاني إلى العشاء. ووجدت إلى جانب مكاني طبقاً واسعاً مسطحاً من النحاس مليئاً بقطع من الخبز الفطير وكومة من لحم الجمل. فصب أحد العبيد بضعة قطرات من الماء على ثلاثة من أصابع يدي اليمنى، فجثوت عندئذ على ركبتي اليسرى على طرف الصحن وذكرت اسم الله ثلاث مرات وأخذت بعدها بالأكل وشرعت ألتقط بيدي قطعاً صغيرة من كُتل اللحم التي وضعها أمامي مِتْعِب الذي كان يجلس بجانبي ثم أدفع بها إلى فمي. وحالما انتهيت من الطعام نهضت ومعي رفاقي الذين كانوا يشاركونني في الأكل، ثم دفع

بالصحن إلى أشخاص آخرين. وهنا صب أحد العبيد قليلاً من الماء على يدي؛ بل وقدَّم لي أحد الحاضرين منشفة صغيرة لتجفيفهما من أثر الماء، بينما مسح الآخرون أفواههم وأيديهم بأثوابهم وأطراف الخيمة.

وبعد العشاء جلس مِتْعِب بجانبي ثم انغمس شيئاً فشيئاً في الحديث معي هَمْسَاً حول موضوعات شتى على نحو يوحي بأن ليس لذلك الحديث من نهاية. ولما أسررت لمِتْعِب باعتزامي الرحيل في الصباح الباكر رد علي برجاء أن أبقى في ضيافته يوماً آخر على الأقل لتتوطد معرفتنا ببعضنا بعضاً وتتوثق عُرى الصداقة بيننا. وحين رجعت إلى خيمتي كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل.

. وفي الصباح أرسل إلينا مِتْعِب طعام الفطور، وكان من خبيص التمر المغمور بالسمن الحار وخبز الفطير، ثم دخل علينا بعد فترة وسألني عما إذا ارتحت في النوم في حمى قبيلة العْمَارَات (الاعْمَارَات). كان مِتْعِب في نحو الخامسة والعشرين من العمر، بملامح شبيهة بملامح النمط السَّامي من الآشوريين القدماء، أسنانه بيضاء لامعة، عدا سن في فكّه الأعلى فكان بارزاً بسواده. وكان يتحدث بأناة شديدة، ويغلب عليه التفكير والهدوء، مع شيء من تلف النطق.

قدمت له مسدساً مطلياً بالنيكل من طراز غاسَر Gasser مع مئة طلقة فسُرَّ بذلك أشد السرور. ولما كنت سألته عن الوديان والآبار والآثار في منطقة واحة شِثَاثَا، ولحظت أنه يذكر الاتجاه والمسافات بشكل صحيح فقد قررت عندئذ البقاء برفقته حتى صباح اليوم التالي.

ولم يُقيّض لي رؤيته في ذلك اليوم حتى قرابة المساء حين وجه محمداً ليكتب كتاباً باسمه يأمر فيه كافة قادة جماعات الإغارة والسلب من العْمَارَات (الاعْمَارَات) والدَّهَامِشَة ألا يعترضوا طريقي، أو ينهبوا مالي؛

Scanned with CamScanner

لأنني صديق له. ثم قام بمهر الرسالة بخاتمه لجهله بالكتابة. فشكرته طبعاً، وإن كنت أدرك أن قطعة الورق تلك لن يكون لها إلا الأثر القليل، نظراً لأن زعماء جماعات الغزو من العْمَارَات (الاعْمَارَات) لا يعرفون القراءة، كما أنه ليس من يستطيع إقناعهم على الأخذ برسالة يقرأها عليهم غريب ويأمرهم بترك غنيمة يطلبونها. اهـ.

وفي ص٨٦ وبعد تجوال في البادية قال موسيل: في عصر يوم الثلاثاء، ٢٩ ديسمبر (١٣٢٦هـ/١٩٠٨م)، بلغنا خيمة رشيد بن سْمَيْر، شيخ وُلْد علي، وكنت أود سؤاله عن نوايا النُّوْرِي وأستشيره في اختيار دليل يعتمد عليه. فخرج إلينا الشيخ رشيد مرحباً مهللاً.

«الحمد لله إذ وجدتك، يا شيخ موسى، حَيّاً وفي حال طيبة! فقد بلغ النُّوْرِي منذ قليل أنك تعرضت للهجوم والسرقة والقتل، وبعضهم اتهم العْمَارَات (الاعْمَارَات) بارتكاب هذا، بينما ذهب آخرون إلى اتهام العُقَيْدَات أو الدَّلَيْم. ولكن الحمد لله أن الخبر لم يكن صحيحاً».

أخبرني الشيخ عند عودته من دمشق قبل اثني عشر يوماً، أن النُّوْرِي توجه بعد يومين من ذلك إلى واحة الجوف، بناء على مشورة من نَوَّاف. وبالتالي فقد كان النُّوْرِي يبعد عنا مسيرة خمسة أيام على الأقل. فسألته أي طريق نسلك للحاق به؟ فأجاب ابن سْمَيْر مواسياً: «العلم عند الله؛ ولكن ثق بأنه سيقودك إليه».

استدعى محمداً واستحلفه أن يخبره صادقاً عما يلزمنا من المؤن. فلما وجد أننا نفتقر للطحين أمر بالإتيان بكيسنا وملأه لنا بيديه.

ثم قال لي مؤنباً: «دعك من الحياء يا شيخ وأخبرني إن كان ما يزال ينقصك شيء ما؟ فمالي هو مالك أيضاً».

فأجبته: قد غمرتني بأفضالك يا شيخ رشيد، وأنا ممتن لك كل

Scanned with CamScanner

الامتنان وهو راسخ في قلبي. وكيف أتردد في قبول شيء من الشيخ رشيد وكرمه مشهود له في الغرب والشرق، ويعرفه الحضر والبدو في الصحراء الواسعة.

وفد هز الحاضرون في الخيمة رؤوسهم موافقين على قولي، ومضى كل ضيف يمسك بصدر قميصه بإصبعين ويقول مغمغماً: صدقت.. صدقت.

وفي وقت متأخر من الليل ورد على رشيد أربعة فرسان من عشيرة الأشَاجِعَة، وكانوا قد أغاروا على الفِدْعَان، ووجدوا عند عودتهم أن أسرهم قد رحلت جنوباً بصحبة النُّوْرِي، وهم يستعجلون اللحاق بهم. وأخبروا الشيخ رشيد عندئذ أنهم إنما توقفوا بحثاً عن آخرين قد يكونون مثلهم متوجهين جنوباً. فقال لهم رشيد فوراً إن بوسعهم السفر معنا؛ نظراً لأننا نريد اللحاق بالنُّوْرِي ونبحث عن دليل أو مرافقين. اهـ.

وفي ص٨٩ قال موسيل: تحدثت ورشيد لفترة طويلة من الزمن. وكان الرجل شديد الاهتمام بأمور السياسة، وأدهشني منه معرفته الواسعة بالشؤون الأوروبية والتركية، فضلاً عن متانة معرفته بتاريخ جزيرة العرب. ثم كان وداعاً حميماً غادرت بعده المضارب، عند مغيب شمس ٣٠ ديسمبر، متخذاً ورفاقي الاتجاه إلى الشرق - جنوب شرق في الصحراء التي أخذت تتزايد العتمة فيها. اهـ.

وفي ١٢/١٢/١٣٢٦هـ الموافق ٤/١/١٩٠٩م وصل موسيل ورفاقه إلى آبار قَرَاقِر (اقْرَاقِر) في أعالي وادي السِّرْحَان ومن ثم واصل المسير إلى مُخَيَّم الرُّوَلَة الذي كان لا يبعد كثيراً عن هذه الآبار فقال في ص٩٧: وإذ بلغنا أولى الخيام علمنا أن خيمة الأمير النُّوْرِي تقع عند الطرف الجنوبي الغربي فتحولنا نحوه، وكنا نستقبل في طريقنا بالتحية والترحيب. فأسرعنا

Scanned with CamScanner

نحو الموقد الكبير الذي كنت أعلم أنه يتَّقِد في خيمة الأمير. وأخيراً شاهدت سقف خيمتي. وكان قد مضى على غيابي ٣١ يوماً. ووجدتني للتو محاطاً من القوم، وقد أقبلوا عليَّ مرحبين بين عناق وتقبيل. فشكر الأمير الله على رعايته والسلامة، وصافحني نَوَّاف وهو يشد على يدي، ثم سألني عن سبب طول غيابي، كذلك أقبل عليَّ سُعُوْد ومِقْحِم وعُذُوْب ومِنْدِيْل وحمار، والصحب جميعاً كبيرهم وصغيرهم مصافحين. وأخبرني أنه بلغهم عن أهل ثقة أني صرعت بالقرب من نهر الفُرَات في معركة مع جماعة من الدَّلَيْم.

شكرت للجميع هذا الترحيب والعطف وانسحبت إلى خيمة الأمير للتحية والشكر لعنايته بأصدقائي ومتاعي أثناء غيابي. وجاء الضيوف جميعهم للقائي واحداً تلو الآخر، مرحبين بالشيخ موسى. وكان الأمير يعتزم النجعة في اليوم التالي أمَّا وقد عدت فإنه أعلن أننا باقون يوماً آخر «ليستريح الشيخ موسى».

وبعد رجوعي إلى خيمتي عملت على مساعدة تومان في حساب خط العرض. وأخبرني ناصر أن الأمير ونَوَّافاً دأبا على المجيء إلى الخيمة مرتين أو ثلاث مرات كل ليلة لحثه على الانتباه. وكانت يخصَّانه بجملين كلما ارتحلا إلى موقع جديد، وأمرا العبد حماراً بمساعدته في التحميل وإنزال الحمولات. ولكنه كان يحمل لي - أيضاً - أخباراً سيئة. وذلك أن أفضل ناقة لدينا والتي كنت قد دفعت تسعين مجيدياً (٨١ دولاراً) ثمناً لها أصيبت بالمرض وماتت، وأخبرني أن المرض شَلَّ أعصابها، ولم تعد تقوى في اليوم الثاني على الوقوف، ثم نفقت بعد أربعة أيام. وأكَّدَ لي النُّوْرِي بأنه استدعى كل البياطرة لعلاجها، ولم يوفروا وسيلة لإنقاذها، دون جدوى.

وفي الصباح الباكر جاءني نَوَّاف. فأرسلت في طلب حمار العبد الأسود العجوز، وكان أفضل خبير بتضاريس الأرض في جزيرة العرب،

Scanned with CamScanner

وله معرفة جيدة بشمال نَجْد. ولم يكن الظهر قد حان حتى كنت بين حشد من الزائرين.

أمَّا النُّوْرِي فقد أمضى معظم فترة العصر معي مستمعاً لكل شاردة وواردة من رحلتي. فلما بلغت جانب وادي السِّرْحَان من روايتي، سألته أن يخط على الرمال كافة المواقع والآبار والجبال والوديان شرق هذا الوادي وغرباً، وقد استجاب لطلبي بطيب خاطر. اهـ.

سُعُوْد: سُعُوْد بن النُّوْرِي الشِّعْلان.

مِقْحِم: من الشِّعْلان.

عُذُوْب: أعتقد أنه عَضُّوْب المِجْوَل الشِّعْلان.

مِنْدِيْل: مِنْدِيْل القِطْعِي من المُرْعِض من الرُّوَلَة.

وفي اليوم التالي غادروا مكانهم هذا. قال موسيل في ص٩٩: ودعاني الأمير إلى مصاحبته في هذه الرحلة. وقادني إلى موقد صغير على مسافة من الخيمة، وكان العبد لديه يهيئ قهوة محلاة في دَلَّة القهوة لدي، وناقته باركة وراء النار، وحمل ناقتي البروك أيضاً، وكان بجانب الموقد حامل خشبي يبلغ ارتفاعه ١٢ بوصة، مغروس في الرمال، وانتصب عليه صقر على رأسه برقع حمراء. ولما فرغ العبيد من نقل كافة المؤن وخيمة الأمير جاء الكاتب بمُهر وربط رسنه بشداد الجمل، بينما أخذ النُّوْرِي الحامل والصقر ووضع الطائر خلف شِدَاد الجمل وأدخل الحامل في الخرج.

ومضينا مسرعين باتجاه الجنوب شرق. وسرعان ما كنا نتجاوز الجِمال المحمَّلة وصرنا على رأس القبيلة، يرافقنا أربعة من العبيد، والكاتب في مؤخرة الرَّكب. وإنه لمن تدابير الله - عز وجل - العجيبة أن يركب أمير بدوي وبجانبه رجل تشيكي في وادي السِّرْحَان على رأس

Scanned with CamScanner

قبيلة كبيرة. ولما ذكرت هذا للأمير أجاب: «هكذا شاء الله عز وجل. ولم يكن يخطر ببالي قط أن أصادق رجلاً من غير عشيرتي. فلا تنسني يا موسى حين تكون على رأس عشيرتك!!».

وفيما كنا على الطريق بلغنا بقايا رابية كلسية. ولقد رغبت في التقاط صورة لهذا الشاهد على فعل النحت والتعرية فسألت الأمير أن نتوقف ههنا فأجابني إلى طلبي برحابة صدر.

كان نَوَّاف وصحبه قد أدركونا في تلك الأثناء فنزلنا هناك برهة. ولم نكد نركب مطايانا ونستوي فوقها ثانية حتى ظهر من دغل قريب أرنب، وللتو انطلق كلب الأمير في اثره، وقام الأمير فوراً بنزع برقع رأس الصقر وحلَّ قيده من السير الجلدي وأرسل الطير في الفضاء. فدار الصقر دورة وأبصر السلوقي والأرنب فانقض عليه ونقره بمنسره وارتفع في السماء ثم انقض عليه ثانية فوقعت الطريدة دون حراك. فأسرع الأمير على ظهر جمله إلى الأرنب وطرد الكلب عنه وذبحه، ثم لوَّح بيده في الهواء محاولاً استعادة الصقر. ولكن الصقر تابع التحليق برهة، ثم عاد إلى الأمير وحط على يده، منتظراً منه تقييده ووضع القلنسوة على رأسه. وبعد برهة كان صقر نَوَّاف قد اقتنص بدوره أرنباً فقدَّمه إليَّ ولكنني رددت الهدية وسألته أن يأمر بطهيه لأتناوله ضيفاً عليه في العشاء. وكنت قد تلقيت من طراد بن سَطَّام طيراً من الحبارى، فكان لدي بالتالي الكثير من اللحم الطازج.

بعيد الظهر كنا قد بلغنا ينابيع عيون العدوانات، حيث أقمنا مخيمنا على تلة رملية تبرز من سبخة. وفي المساء جاءني نَوَّاف ليصطحبني إلى خيمة الأمير لنتناول الأرنبين على العشاء. فجلس الأمير بجانبي على كعب قدمه اليسرى وأخذ يرمي إليَّ بقطع اللحم. ولما رجوته ألا ينسى نفسه من الطعام لأن عليه أن يظل قوياً، وهو مقدمنا؛ ليُعنى بنا جميعاً، رد بأن جُلَّ همِّه

مُنْصَبٌّ على العناية بأفضل قاطع طريق لديه، وهو يقصد أخاه موسى. وكان يُسمي رحلاتي العلمية: غارات. اهـ.

وفي ص١٠٣ قال موسيل: **تشتري الرُّوَلَة الصقور من الحضر في الشيخ مسكين والرَّحَيْبَة. وتعتقد الرُّوَلَة أن أفضل الصقور المستخدمة في الصيد هي ذات الريش البني اللون المائل إلى الحُمْرَة والذيل الموشَّى بالكثير من البقع البيضاء، وإن كان كانت تلك الصقور ذات اللون البني الغامق والأسود [أَدْبَس] تصلح هي أيضاً للقنص.** اهـ.

ويضيف في ص١٠٥ قائلاً: **والصقر المدرب جيداً يصطاد عدداً من الحباري قد يبلغ العشرة ومن الأرانب البرية عشرين في يوم واحد، إن توفرت الطرائد. ولا تمكث الصقور مع الرُّوَلَة أكثر من نصف عام. وليس معنى ذلك أنها تنفُق؛ ولكنها تنطلق ولا تعود. والصقر يغدو في الشتاء، وخاصة إذا كان بارداً، شديد الضيق شرساً لا ينصاع. وأشد ذكور هذا الطائر طواعية ينشز حين يلتقي بأنثى من البراري. وإناث الصقور المُدجَّنَة أشد إخلاصاً، ولكن حتى هذه تنشز عن دربها وتهرب حين تصادف صقراً صيَّاداً برياً.** اهـ.

الأمير نَوَّاف بن النُّوْرِي الشَّعْلان يريد تأسيس مملكة في شمال الجزيرة العربية قوامها القوة والحكمة والكرم والاستقرار، وهذه الأصول الأربعة هي في الحقيقة أساس الحكم والمُلك. فقال في ص١٠٧ مخاطباً موسيل: **يا موسى، لِمَ لا أستطيع، بعون الله، تأسيس مُلك مثلما لابن رشيد؟ إنني أستطيع أن أستقر، إن ملكت واحة الجوف، ومعي جمع مختار، فأخضع في وقت قصير بالكلام المحكم والسلاح والذهب كل شمال جزيرة العرب.** اهـ.

وفي ص١٠٩ قال موسيل: **كنت أتداول مؤخراً والأمير في رغبتي**

Scanned with CamScanner

بزيارة منطقة واحة تَيْمَاء، فلم يرحب بالفكرة. ولما كنت أدرك أنني لا أملك انتظاره، على كل حال، وما زال لدي الوقت لاستكشاف المنطقة شرق موقعنا، والسطوة فيها لقبيلتي العْمَارَات (الاعْمَارَات) والدَّهَامِشَة، أمر الأمير بأن يرافقنا العبد الأسود فريح الذي لم يمض على انضمامه إليه من نَجْد سوى سنتين، وقد زار تَيْمَاء عدة مرات يوم كان في خدمة ابن رشيد.

في اليوم التالي استأنفنا المسير. وكنت بادئ الأمر برفقة جماعة من المقاتلين الشبَّان؛ ولكن الأمير دعاني فيما بعد لمرافقته. فتداولنا في موضوع احتلال الجوف والتعقيدات المحتملة لما قد ينشأ عن هذا العمل. وقد حثثت الأمير على أن يعرض السلم على قبيلتي العْمَارَات (الاعْمَارَات) والدَّهَامِشَة ويتحالف معهما في وجه عدوه اللدود ابن رشيد.

فقلت له: عليكم أنتم عنزة الهجوم على ابن رشيد من الشمال والشرق ويتولى ابن قبيلتكم ابن سُعُود الضغط عليه من الجنوب وأمامه عندئذ أحد أمرين، فإما أن يعترف لكم بالسيادة أو يرحل إلى الحجاز. وأنا واثق من أن عشائر شَمَّر الذين ينزلون على امتداد الحدود الجنوبية من منطقتكم سوف ينضمون إليك ويعينونك عليه، ولن يستطيع سكان واحة الجوف أعوان ابن رشيد مقاومتكم.

فردَّ الأمير النُّوْرِي قائلاً: مشورتك يا أخي جيدة، ولسوف أعمل ما بوسعي لاتِّباعها. فإنني مستعد لمسالمة العْمَارَات (الاعْمَارَات) والدَّهَامِشَة الآن؛ لولا أن جماعتي غاضبون منهم، ..فهم يفرون بالغنائم عبر الفُرات ليكونوا في حمى الحكومة التركية. وأنا وابن سُعُود تجمعنا صداقة، وهو يراسلني وأنا أراسله. إنه وضع غريب. فابن سُعُود يلتمس أيَّة ذريعة ليتابع الحرب مع ابن رشيد الذي أسرته منقسمة على نفسها بفعل المناورات التي يتولاها عنه الوزير ابن سَبْهَان. وقد لجأ فيصل وآخرون من أسرة ابن رشيد إلى عدوهم التقليدي ابن سُعُود، بعد أن طردهم الوزير ابن سَبْهَان،

Scanned with CamScanner

ويحضّونه الآن على قتال الوزير الذي يتمتع بالنفوذ عوضاً عن الأمير القاصر ابن رشيد. وابن سُعُود تحدُّ من حركته الحاميات التركية في منطقة الأحساء على الساحل، فضلاً عن عدم قدرته على بلوغ البحر.

قلتُ: أليس هناك من سلطة في واحة الجوف؟

قال الأمير النُّوْرِي: لا، ذلك أنه لما طرد فيصل آخر نائب لابن رشيد، أو بالأحرى هرب خشية القتل، أرسل ابن سَبْهَان حاكماً آخر يحل محله في المنطقة. وما زال أتباع فيصل مخلصين لسيدهم القديم، وقد دعوني لاحتلال الواحة، لإعراضهم عن الخضوع لحاكم جديد. وهذا ما سوف أفعله، لأستعيد لأهلي وعشيرتي مُلْكاً اغتصبه منا ابن رشيد قبل ستين عاماً؛ ولكن دماً كثيراً سوف يُسفح في سبيل هذا. وقد لجأ أتباع ابن سَبْهَان والأمير ابن رشيد القاصر من جهة أخرى إلى قلعة مَارِد، وليس لدينا السلاح اللازم للاستيلاء عليها وطرد الحامية منها. إنَّ قَارَا والطُّوَيْر سوف تتبعنا، ولكن أكثر من نصف أهالي سُكَاكَا سيقاوموننا. ولسوف تنشب معارك بين الأهالي وسيكون السكان أشد قسوة منا. وصدقني يا أخي إني أخشى حمل المسؤولية لئلا يجازيني الله على ما سوف يُسفك من دماء. ولذلك تراني عاجزاً عن اتخاذ قرار كما أنني أعارض نوَّاف لهذا السبب.

قلت: أعلم يالنُّوْرِي بما يراودك من مخاوف، ولكن إذا اقتتل أهل الجوف فيما بينهم فلن يتوقف القتال حتى يأتي من هو أقوى منهم ويفرض عليهم السلام. فراقب وانتظر. وإذا لم يرسل ابن رشيد جيشاً قوياً إلى الجوف لفرض السلم، فعليك أنت القيام بهذه المهمة. ولسوف تنقذ عندئذ أرواحاً كثيرة وتحفظ مُلكاً واسعاً، وتعيد لقبيلتك ما كان لقرون طويلة مُلكاً لها. وإذا تدخلت فعليك أن تزجَّ عندئذ بكل ما لديك. ولسوف يعينك الله على هذا الأمر. اهـ.

Scanned with CamScanner

من خلال هذا الحوار الذي جرى بين الأمير النُّوْرِي الشّعْلان والرحَّالة موسيل يتبين لنا ورع الأمير النُّوْرِي وخوفه من الله من أن تسفك دماء المسلمين بسببه أو بسبب الحصول على الحكم والأرض. ومعرفة الأمير النُّوْرِي بما يحصل في العالم المحيط به، خاصة الأحداث السياسية التي لها ارتباط وثيق بإمارته وقبيلته.

تجوَّل موسيل ورفاقه في منطقة تَيْمَاء ثم عادوا. وفي أثناء الطريق قابل موسيل بعض رعاة الرُّوَلَة الذين عرف منهم أن الأمير نوَّاف الشّعْلان قد سيطر على الجوف قبل يومين، وأعلن نفسه أميراً على المنطقة باسم أبيه الأمير النُّوْرِي. قال في ص١٣٢: **وفي النهاية شاهدنا، قرابة مساء ٤ فبراير (١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م) أمامنا حوضاً عميقاً في سهل مليء بالحجارة وداخل ذلك الحوض قمم أشجار النخيل الخضراء الداكنة. وكانت تلك واحة دُوْمَة الجَنْدَل (الجوف) تستقبلنا. فنزلنا عن مطايانا ومضينا نحو القرية، فاعترضنا عندئذ أحد الحراس ثم اصطحبنا إلى بوابة؛ ولكن ما إن جعلنا جِمالنا تبرك على الأرض حتى وجدنا أنفسنا مطوقين بالعبيد ومحاربي الرُّوَلَة المألوفين ولقينا من هؤلاء استقبالاً حسناً.**

كان البناء الواسع الذي يسكنه نَوَّاف ذا شكل مربع يحيط به سور عال ومدعَّم ببرج مستطيل الشكل منخفض عند الزاوية الجنوبية الشرقية، وبرج آخر أعلى منه بكثير في الزاوية الشمالية الغربية. وكان إلى الشرق من البرج الأعلى باب، هو المدخل الوحيد الذي يفضي إلى ساحة واسعة. وعلى الطرفين الشرقي والغربي من الساحة بالقرب من الأسوار المحصَّنة كان ثَمَّة غرف أصغر مساحة..

جاء نَوَّاف للقائي وقادني إلى الغرفة الأرضية حيث كان هناك، خلف العمود، نار عظيمة مُتَّقِدة. فجلسنا خلف هذا العمود لنكون بعيدين عن

Scanned with CamScanner

الباب ومن يطل منه. وروى لي نَوّاف أنه قدم إلى الجوف ومعه ٣٥ محارباً، معظمهم من الزنوج الشباب ومعهم بنادقهم المُذخَّرة.

وفي المساء جاء إلى نَوّاف قرابة الخمسين مسلحاً من الجوف مع زعمائهم. فاتخذ هؤلاء الزعماء أماكنهم عند النار مقابلنا بينما ظل مرافقوهم في الساحة. وإلى يسارنا، بيننا وبين المدخل رابط خمسون زنجياً وبنادقهم مُذخَّرة. إذ لم يكن نَوّاف يثق بهؤلاء الزعماء، ولم يشأ أن يؤخذ بغتة من هؤلاء، فآثر أن يجلس وإياي على نحو يجعل العمود بيننا وبين الباب، وبذلك نكون قد وقينا أنفسنا شر طلقة تطلق نحونا من الساحة أو البرج الجنوبي الغربي.

وكان على رأس أولئك المتزعمين زَبْن بن قُعَيِّد، وهو رجل في الأربعين من العمر، ذو ملامح ذكرتني جداً بأشكال البابليين القدماء. وقد أصبح اليوم كبير الجوف، ولذلك وجدناه يحمل نفسه ليدعو الأمير النُّوْرِي لأخذ زمام الحكم بيديه في الواحة وما جاورها.

كانت واحة الجوف، بسبب موقعها على التخوم الجنوبية لشمال شبه الجزيرة العربية، مضطرة لأن، تكون على علاقات طيبة مع العشيرة التي تهيمن على تلك المنطقة، إن شاء سكانها ألا يكونوا تحت رحمة كل جماعة من المغيرين أو عصابة من اللصوص. وإذن فما دامت هيمنة ابن رشيد قوية والرُّوَلَة تراعي هذه السلطة ظلت حامية ابن رشيد قادرة على الإمساك بالجوف. ولكن عندما فقدت سيدها بدأ سكان الجوف يقتتلون فيما بينهم. فاتحد ابن قُعَيِّد ونَوّاف وهاجم ابن نعمة وأتباعه الذين لجؤوا إلى مَارِد وخِذْمَا[١].

(١) خِذْمَا: عين ماء بدُوْمَة الجَنْدَل بمنطقة الجوف شمال الجزيرة العربية، سميت بذلك لكثرة مائها، فكان أهلها يقولون بلهجتهم الدارجة لكل مَنْ مر: خِذْ ماء. أي خُذْ ماء؛ لوفرة مائها. فيما بعد أصبح اسمها على الحي التي هي فيه وهو حي خِذْمَا.

Scanned with CamScanner

ولقد أشار ابن قُعَيِّد، وكان يعلم منعة المنطقتين اللتين احتلهما العدو، على نَوَّاف أن يعمد إلى تدمير أملاك خصومه ويحملهم بالجوع إلى الاستسلام. ولكني رجوتُ نَوَّافاً أن يتجاهل مشورة ابن قُعَيِّد، لأنه إن أخذ بها ذهب بصالح الجوف سنوات عديدة، وأشرت عليه ألا يتفاوض مع ابن نعمة، وإنما مع زعماء مَارِد وخِذْمًا، لأن هؤلاء سوف يضطرون للتسليم لكونهم لا يستطيعون الاعتماد على نجدة ابن رشيد وليس بمقدورهم مقاومة الرُّوَلَة. فوعدني نَوَّاف بالأخذ بنصيحتي. اهـ.

ترك موسيل الأمير نَوَّاف ولحق الأمير النُّوْرِي بالقرب من ماء الهوجاء. وفي ص١٤١ قال موسيل: **أخبرني النُّوْرِي بأن أحد العمال جاءه برسائل من ابن سُعُود يحثه فيها على احتلال الجوف ويخبره بأن شيوخ شَمَّر جميعهم، سوى اثنين، يطلبون السلام ويتعهدون بدفع الجِزْيَة.** اهـ.

هذه من الأخبار التي رواها لنا موسيل عن الحالة السياسية في شمال الجزيرة العربية في ذلك الوقت. وقبل وصول هذه الرسائل من الملك عبدالعزيز آل سعود فقد بادر الأمير نَوَّاف بن النُّوري الشِّعْلان إلى السيطرة على منطقة الجوف عام ١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م.

جاء في هذا الخبر أن شيوخ قبيلة شَمَّر يتعهدون للملك عبد العزيز بالولاء ودفع الجِزْيَة!! هكذا نقل لنا موسيل هذا الخبر!! وهو فهم خاطئ لما أخبره به الأمير النُّوْرِي، حيث إن الجِزْيَة تؤخذ من غير المسلمين ممن فتحت بلادهم عنوة. وقد مر الحديث عنها. أما قبيلة شَمَّر فهم قد تعهدوا للملك عبد العزيز بتأدية الزكاة التي هي أكبر دليل على الولاء والتبعية في ذلك الوقت.

وفي ص١٤٤ تحدث موسيل عن بعض الصعوبات التي يواجهها

Scanned with CamScanner

الأمير نَوَّاف في إمارته فقال: جاء إلى مضاربنا ستة محاربين ومعهم كل المطايا التي لدى نوَّاف، وأخبرونا أن نَوَّافاً يرجو والده أن ينصب خيامه إما في واحة الجوف وإما بالقرب منها وبذلك يعزز موقف نَوَّاف بحضوره. ولكن بدا لي أن النُّوْرِي كان لا يطمئن إلى ابنه ويغار منه. وكانت المصاعب التي تواجه نَوَّافاً في الجوف تزداد مع كل يوم جديد. ولقد أخبرني عودة الكويكبي، وهو معرفة قديمة ومرجع مطلع، وقد وصل يومئذ لتوه من الجوف، أن عدداً كبيراً من أتباع نَوَّاف قد انتقلوا إلى معسكر خصومه، بعد أن ضاقوا بعجرفة ابن قُعَيِّد وما عادوا يقدرون على احتماله، كذلك أفادني بأن أعداءه باتوا يغيرون عليه كل ليلة بحيث لم يعد يقوى على مغادرة بيته، وصار يعاني من نقص الطعام، وقال لي في الختام إنَّ نَوَّافاً يسألني أن أعرض بؤس حاله على والده وأحثه على التوجه إلى الجوف.

لكن النُّوْرِي عمد إلى المماطلة والتسويف متذرعاً بأنه ينتظر رداً من وُلْد سليمان وعودة رسوله من عند ابن سُعُود، لكن خادمه الذي يعد له القهوة قال: إنَّ النُّوْرِي لم يعد يُعنى بأمر سوى زوجته الصبيَّة وعباءته الصوف التي يحلو له الاستلقاء عليها.

ثم أتى منديل القِطْعِي قادماً من الجوف حاملاً مناشدة (من نَوَّاف) شفهية ومدونة بأن يرسل (النُّوْرِي) الطعام والمال. وكان النُّوْرِي قد طلب أن تقرأ عليه الرسالة في خيمتي كما سمع الرواية من راويها، وظل مع ذلك لا يأتي بحركة. اهـ.

وفي ص١٤٥ قال موسيل: ورد رسول آخر من نَوَّاف. وأخبرنا هذا أن حُمُود بن سَبْهَان، وكيل ابن رشيد في حائل، مات بلا ريب مسموماً. وكان هذا الرجل قد أنقذ الصبي سُعُود بن عبد العزيز بن رشيد، وهرب به وبأمه التي هي أخته إلى المدينة (المنورة) ومنها عاد في صيف عام ١٩٠٨ (١٣٢٦هـ).

Scanned with CamScanner

وقام باغتيال الأمير سُعُود بن رشيد، وأعلن سُعُود بن عبد العزيز الذي كان تحت وصايته أميراً، وهو ابن عم الأمير المقتول. وكان هو مَنْ دبَّر حفظ بقايا ملك ابن رشيد القديم، وأهالي المنطقة يتطلعون إليه جميعهم ليخلصهم مما هم فيه من الضيق. وبإيعاز من أخيه الطموح، زَامِل، تم اغتياله بالسم قبل شهرين، على ما قيل، ولكن موته ظل طي الكتمان فيما كان يقال إنه يعاني من مرض عضال. أما وقد بانت الحقيقة الآن وشاعت فإن الناس باتوا أشد ميلاً إلى الانضواء تحت راية ابن سُعُود، خصم ابن رشيد. وقال نَوَّاف أن زعماء مَارِد وخِذْمَا في الجوف عادوا يتفاوضون معه من جديد كما تلقى أخباراً أفضل من سُكَاكَا وعاد يرجو والده المسير إلى الجوف وإقامة مضاربه في نطاق المدينة، ويريد بذلك حمل خصومة على الاستسلام. وقد أطنب في ذكر المراعي في جنوب وجنوب شرق الواحة، قائلاً إن حدود النفود الشرقية المسمَّاة باللبَّة حسنة الرطوبة ووعد بمراع كثيرة. اهـ.

وفي ص١٤٧ قال موسيل: أخبرني الأمير صباح يوم الجمعة أننا سوف نتوجه يوم الأحد إلى الجوف، عوضاً عن غزوة كان مُقدراً أن يقوم بها. وفي اليوم ذاته ترجَّل عند خيمته، حوالي الساعة الثالثة، ستة رجال يمتطون الجِمال. وكان هؤلاء عَوْدَة أبو تايه شيخ الحُوَيْطَات ومرافقيه.

فجاءني كاتب الأمير برجاء أن أقوم بفحص ذراع ضيفه، عودة، فمضيت إلى خيمة الأمير حيث كشف لي عَوْدَة عن ذراعه اليمنى الملفوفة بالضمادات وكانت قد أصيبت قبل ٥٢ يوماً.

فوجدت الجرح قد أخذ يلتئم من ناحية السطح؛ لكن الذراع مُتورِّمة ومتصلِّبة وثَمَّة جروح عميقة ظاهرة في خمسة مواضع، وهي آثار الكيّ بالحديد الحار. ولكن هذه العمليات ما كانت لتجدي، فاستمر يشكو من

Scanned with CamScanner

شدة الألم، خصوصاً في الليل. فدعوته إلى خيمتي وقدمت له العلاج السليم والنصائح التي ينبغي له اتّباعها في المعالجة. اهـ.

وفي ص١٥٨ قال موسيل: يممنا ناحية الشمال شرق نقصد مساكن قَارَا، وتابعنا الطريق في منبسط شاسع واسع تغمره الأحجار القاسية. وبعيداً ناحية الغرب والشرق كانت قطعان الجِمال تتدافع متلاحقة كالأمواج، ووسطها ما لا يحصى من الدواب التي تحمل الخيام والمؤن والهوادج. وفي وسط هذا الطابور الطويل البعيد كان الهودج المعروف بأبي الدُّهُوْر، والذي يمثل سلامة وشرف العشيرة كلها يتحرك متمايلاً على ظهر جمل قوي.

وجدير بالذكر أن الرُّوَلَة لا تتخذ لنفسها عَلَمَاً أو بَيْرَقَاً. ورجال الرُّوَلَة حين يخرجون في غزواتهم لا يأخذون بأي ترتيب خاص، ولكنهم إذا شنّوا حرباً، سواء عدواناً أم مدافعة، تجعل العشيرة كلها في مواجهة الخطر، أخذوا معهم هودجاً من نوع خاص يدعى المَرْكَب. وقوام المَرْكَب أعمدة نحيلة مرتبطة ببعضها بإحكام في شكل مستطيل، وهي مزينة بريش النعام، والأعمدة العليا منها مربوط بها اثنا عشر وتداً كزينة بريش نعام مثنى. وفي هذا قال الأمير (النُّوري) يحدثني:

«أبو الدهور يعني أبا الأزمان، وقد منحنا هودجنا هذا الاسم، لأنه موروث تتناقله الأجيال وقد مرت به عصور، ولسوف يدوم إلى الأبد. وهذا المَرْكَب الرمز الظاهر للسلطة الأميرية؛ ولذلك نجد هذا الهودج أبداً في خيمتي، وبالتخصيص في ذلك المكان الخاص بالنساء، ونقوم أنا وعبيدي بحراسته في وجه كل إنسان، وخاصة من الأقارب الأقربين إليَّ. ذلك أنه لو قام عصيان بين أقاربنا على الأمير فإن الخصوم سيقومون أولاً باختطاف أبي الدهور منه، فهو شعار العشيرة كلها وهو الذي يحفظه، ويعتبر من الجميع على هذا الأساس أميرهم. وإذا ما قُدر أن يستولي عدو في

الحرب، تكون هيبته وسطوته قد ضاعتا تماماً ولا يحق لنا بعد هذا استخدامه قط».

وقد جرت العادة على أن يُنتخب جمل مشهور بقوته ووداعته، ولونه الأبيض، لحمل الهودج حين تخرج العشيرة للنجعة. والقاعدة أن يسير بين الجِمال التي تحمل الأمتعة وبذلك يشكل المركز بين كافة الأسر الظاعنة. وإذا هاجمهم عدو برز لهم أفضل المحاربين على الفور وقاموا بتطويق الهودج حماية له. وإذا بدا أن العدو قد رد المقاومين وبات قادراً على اختراق صفوف بقية الجِمال، قام قائد المحاربين النخبة الذين يتولون الدفاع عن الهودج وقاد الجمل الذي يحمل هذا الرمز وسار به على رأس قواته في وجه العدو. ويرافق هذه القوات فتيات يجلسن على نوق وهُنَّ يشجعن الرجال على الصمود، ومن ورائهن نساء أخريات من العشيرة يهددن بضرب كل من يتخلى عن أبي الدهور ويعمد إلى الفرار. وما زالت السطوة للرُّوَلَة ولم يفلح عدو حتى اليوم في إنزال الهزيمة بهم بما يسمح له باغتصاب أبي الدهور منهم. والأمير للحقيقة شديد الحرص والحذر، وآية ذلك أنه اتخذ قاعدة بأن يجعل خيام مختلف المضارب تنصب قريباً من بعضها بعضاً كلما كانت الأرض التي يسيرون عليها خطرة بعيدة عن الأمان.

سألت منديل القِطْعِي: هل تصحبون أبا الدهور معكم في غزواتكم؟

أجاب: أبداً، إلا إذا كنا في حرب، حيث نقوم عندئذ بنقل قطعاننا وخيامنا كلها داخل أرض العدو. والجمل الذي يحمل أبا الدهور يتقدم العشيرة كلها، في المسير، يحيط به المقاتلون. اهـ.

حيث إن الرُّوَلَة إذا حاربت أحداً فإنها ترسل إليه رسول تخبره بذلك ليستعد لهم، ويقوم ابن شِعْلان بإعداد جيشه المقاتل، فترحل الرُّوَلَة كلها إلى أرض العدو، وتنزل عليه، فتحاربه وترجع.

أصابت موسيل وعكة صحية، لكن شفاه الله - عز وجل - منها، ومن ثم استأنف بحوثه وجولاته. وفي هذه المرة أراد أن يتجول في شمال - شرق منطقة الجوف، فأخذ له بعض الأدِلّاء، فخاف عليه الأمير النوري. قال موسيل في ص١٧١: **وحوالي العشاء عاد الأمير لزيارتي وما انقطع ليلتئذ يوصيني بالحذر والتزام السلامة.**

وقال منزعجاً: «لو كنت أعلم، يا أخي أنك عازم على القيام بهكذا غارات لما سمحت لك بأن تنصب خيمتك إلى جانب خيمتي. ولا أعرف رجلاً واحداً من بيننا يملك جرأتك، وإنني والله صادق فيما أقول. وأنت تقول إن الله أراد لك أن تشارك في هكذا إغارات. وإذن فليكن أمر الله ولكن ماذا أقول لأصدقائك في دمشق، إن لم يُقَدَّر لي أن أعود بك إليهم؟ فلقد قطعت لهم وعداً بأن أوفر لك الحماية، إنما كيف أستطيع أن أقدم الحماية حين تغادرني وتخوض في مجاهل أنا لا أجرؤ على الخوض فيها دون طابور يرافقني من ألف محارب؟

فالديرة التي تقصدها الآن يكمن لك فيها الشَّمَّرِي والمُنْتَفِقِي والظَّفِيْرِي وسوى هؤلاء الغزاة من الدَّهَامِشَة والعْمَارَات (الاعْمَارَات) والفِدْعَان والسَّبَعَة والشَّرَارَات والدَّلَيْم. فهؤلاء قد يقتلونك في الليل، ولن ينقذك منهم هذا الدَّهْمِشِي. ومع ذلك فأنت لا تصغي لما يقال لك. وأنا محدثك، وقصدي أن أحول دونك والتهور، وأنا العارف بهذه الأخطار أكثر مما تعرف؛ ولكنك تتجاهل كلامي. أفلا تشفق على الأهل؟ أسرتك؟ أليس هناك بين هؤلاء الأحياء حيث يقيم الأقارب من يُكِنُّ لك الحب، ويحزن لفقدانك؟

أدري ما تودّ أن ترد به على قولي بأنني أنا شخصياً أقوم بشن الغارات. وهذا صحيح، سوى أنني أمضي ومعي مئات ومئات المحاربين. أما أنت، فمن هم مرافقوك؟ تومان الذي لا عهد له بالبلد ولا بأهله ولا يعرف لغتهم!!

Scanned with CamScanner

ثم لا أحد سوى هذين الغريبين اللذين قد يخونانك في كل لحظة، أو ربما يقتلانك، فمن يدري متى يغويهما الشيطان؟ ثم إنك تدري الأخطار التي تحفل بها الأرض ذاتها، فالله لم يرسل مطره هذا العام إلى الوديان والحَمَاد. ستمر الأيام وأنت تمشي في هذه القفار ولن تعثر خلالها على شيء من الماء. تقول إنك ستحمل ماء معك؛ ولكن ماذا تفعل إذا قُدِّر أن تتعثر الجِمال الحاملة لقِرَب الماء أو احتكت بصخرة حادة قاسية فتمزقت هذه القِرَب جميعها فسال منها الماء؟ ولعلك تذبح جِمالك وتقوم بتنقية ما تختزنه من الماء وتشربه، ولكن ماذا يكون مصيرك إن لم يعد لك دابة تحملك؟»

استمر يتحدث طويلاً بحنو وأناة. كان النُّوْرِي الطيِّب صديقي، ويمنحني صادق حبه. ولكن لما كان معلوماً في أرجاء الصحراء كلها بأني أتنقل بجاهه وفي حمايته فإن عليه أن يخشى أن تثلم مكانته وهيبته إن هلكت في الصحراء.

وفي يوم الإثنين المصادف ٢٩ مارس ١٩٠٩ (٨ ربيع الأول ١٣٢٧هـ) صحوت على أصوات تصدر عن جِمالي ليخبرني ناصر بأننا في سبيلنا إلى الترحال من جديد. ثم ما هو إلا حين حتى ورد إلينا الأمير حافي القدمين وبلا عباءة ومعه قصعة من حليب النوق قدمها لي. وقال إن بوسعي أن أبدأ رحلتي فوراً. اهـ.

وفي أثناء الطريق مروا بالشيخة تُرْكِيَّة بنت جَدْعَان المُهَيْد رحمها الله، قال موسيل في ص١٧٥ : ولقد ظلَّت تُرْكِيَّة، أرملة الأمير سَطَّام وأم ثلاثة أبناء متزوجين وأولادهم، أكثر نساء الرُّوَلَة نفوذاً. فكانت كلمتها قانوناً لا رادَّ له. وكان الحديث يجري عن الضيوف ليس باعتبارهم نزلاء عند خالد بن سَطَّام البكر صاحب الخيمة، وإنما يقال إنهم نزول عند أمه تُرْكِيَّة. بل إنه حتى شاعري الجوَّال مِزْعِل أخو زُعَيْلَه وضع قصيدة في مدح كرمها. ولقد

Scanned with CamScanner

أخبرني عدة أشخاص عن تُرْكِيَّة أنها كانت تتلقى من زوجها سَطَّام ١٠٠ مجيدي (٩٠ دولاراً أمريكياً) شهرياً كما كانت تفرض على ابنها دفع مثل هذا المبلغ، ولم تكن حتى المئة مجيدي لتكفي نفقاتها. ولما كان دخل خالد لا يضارع دخل والده صار يرجو والدته أن تكون أشد حرصاً في مصروفاتها.

فردَّت تُرْكِيَّة: أنا لم أتعلم الاقتصاد ولن أتعلمه أبداً. ثم تحولت إلى خيمة جاريتها لتقيم عندها. فاضطر خالد وأبناؤها الآخرون - لا بل والأمير وشيوخ العشيرة - للمضي إليها وقضاء وقت طويل في رجائها حتى قبلت بالعودة.

ولم يكن لخالد من بديل طبعاً سوى أن يكفل دفع مبلغ المئة مجيدي شهرياً. أما عن مصدر هذا المبلغ فأمر ما كان ليعنيها في شيء. ويُقال إنه ما كان ليمر يوم ولا تجد تُرْكِيَّة فيه ضيوفاً. وقد دأبت على أن تقدم الطعام في قسم الحريم إلى ما لا يقل عن خمس عشرة امرأة، وهي تعد الطعام من مؤن أولادها. وكانت فوق ذلك كثيراً ما تدعو الرجال - أيضاً - إلى مضافتها، ثم تدخل قسم الرجال وتتخذ مجلسها في المكان الأبرز وتحتكر لنفسها الحديث، وما كان لأحد، ولا الأمير ذاته، أن يجرؤ على مناقشتها في أمر. اهـ.

عاد موسيل، وعاد يتحدث عن الحالة السياسية في شمال الجزيرة العربية سنة ١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م، فقال في ص٢٢٩: **تلقى الأمير كتاباً من نَوَّاف يعلمه بأن قوة من ثمان مئة من الهجَّانة قد أرسلهم ابن سُعُود لمؤازرته. وقد أخبرني طْرَاد بن سَطَّام الذي جاء بالرسالة بأن نَوَّافاً كان قد أشرف على اليأس لأن أباه لم ينجده بالسلاح والمال أو المؤن. بل ولم يسمح لأمه بالقدوم إليه مع ولده سلطان. ورجاني باسم نَوَّاف أن التمس من النُّوْرِي التخلي عن قسوة قلبه. اهـ.**

وقال موسيل في نفس الصفحة: سمعت أصوات عدة طلقات نارية وغناء رتيباً بصوت عال، ولما خرجت من الخيمة وجدت صفاً طويلاً من الرجال المسلحين من سكاكا يؤدون رقصة من سكاكا وهم يسيرون في طريقهم نحو خيمة الأمير.

وفي المساء دخل علينا جواد [العاني] الكاتب حاملاً رسائل من الإمام ابن سُعُود وفيصل شقيق الأمير المغدور سعود بن رشيد الذي كان قد هرب إلى الرياض. وقد حمل الرسالتين المراسل ذاته الذي كان النُّوْرِي قد أرسله إلى ابن سُعُود من مَيْقُوْع في بداية شهر فبراير. اهـ.

وقال أيضاً: كان العديد من الشيوخ ومن بينهم فهد بن مشهور، الذي يلي النُّوْرِي في القوة والسلطان، قد رغبوا في أن استخدم نفوذي لحمل النُّوْرِي على إعلان مناصرته لابن سُعُود وعزمه على المضي إلى الجوف لمؤازرة نَوَّاف بكل ما لديه من قوة.

ولكني ترددتُ طويلاً في اتخاذ قرار بهذا الموضوع، إذ كنت أنفر من التدخل بين أب وابنه أما وقد بلغتني الشائعة بأن نَوَّافاً مقدم على التخلص من نير أبيه فإني خشيت اندلاع حرب معلنة بين الاثنين؛ ولذلك أخذت أتحدث إلى النُّوْرِي بصراحة أشد مما اعتدت في الماضي. ولقد دامت المحادثة ما يزيد على الساعتين. وفي النهاية نهض الأمير وغادر صامتاً. فماذا سيفعل؟

في صباح اليوم التالي رأيت عدداً كبيراً من الفرسان والهجَّانة يدخلون خيمة الأمير، ثم سرعان ما وجدته يخرج ويعتلي ظهر ناقته، ويتوقف عندي فترة طويلة قبل أن يقول: إلى الجوف. فأجبته: حمداً لله. وكان برفقته ما يزيد عن مائتي فارس وهجَّان. وكنا قد حَمَّلنا اثنين من الجِمال بنادق ملقمة وذخائر معدة لنوَّاف. وإذن فلم تذهب وساطتي هباء. ثم عاد النُّوْرِي في مساء ذلك اليوم.

Scanned with CamScanner

عدنا للخروج من جديد. فركب الأمير ناقته في السابعة وفي تلك اللحظة كان الجمل الذي يحمل رمز قوته، أبو الدهور، قد تهيأ للمسير.

قال النُّوْرِي يخاطبني فيما هو يمر: نَوَّاف يسلم عليك، يا شيخ موسى، وإن شاء الله يكون ما نصحت. وإنني أعرف أنك الأصدق بين الأصدقاء. اهـ.

بعد وقوف الأمير النُّوْرِي إلى جانب ابنه، أحكم الأمير نَوَّاف سيطرته بالكامل على منطقة الجوف والمناطق المحيطة بها إلى قُرَيَّات الملح الواقعة في أعالي وادي السِّرْحَان، في دائرة قطرها لا يقل عن خمس مئة كيل، ومركزها دُوْمَة الجَنْدَل. أما دائرة انتشار قبيلة الرُّوَلَة فهو أكبر من هذا بكثير، حيث تمتد أراضي قبيلة الرُّوَلَة من أطراف تَيْمَاء ووسط النفود الكبير جنوبًا إلى حمص شمالاً، ومن نهر الفُرَات شرقًا إلى ينابيع الزرقاء بالقرب من عَمَّان غربًا.

وفي يوم ١٨/ ٣/ ١٣٢٧هـ الموافق ٨/ ٤/ ١٩٠٩م قال موسيل في ص٢٣٢: **انشغلت بتدوين ملحوظاتي الإثنوغرافية [حول عوائد العشائر]. وحوالي العشاء تناهى إلى سمعي صيحات تهليل إشعاراً بالنصر. لقد كانت جماعة الدُّغْمَان المغيرة تعود بمئة وخمسين رأساً من الغنم والماعز استولوا عليها من عشيرة القِرْشَة (الاقْرِشَة). وكان نَوَّاف قد أرسل رشراش بن عَضُوْب ليأتي ببنادق وذخيرة، وعاد في مساء اليوم بأربعين جملاً محملين بأحد عشر ألف خرطوشة (طلقة) وأربعين بندقية. وكان الأمير قد اشترى هذه الأسلحة والذخيرة من تجار القَصِيْم. كذلك كتب النُّوْرِي إلى عبد ابن سَبْهَان وكان ما يزال في معقله في خِذْمَا يستدعيه للتفاوض حول طريقة تسليم خِذْمَا ومَارِد؛ لأنه يرغب في بسط سيطرته على حوض الجوف كاملاً وما يتبعه من قُرى، سواء بالتفاوض أو بالقوة. أما إذا قصَّر الرسول عن العودة فسوف يكون ذلك عند النُّوْرِي علامة عداء وإشارة إلى الحرب.**

Scanned with CamScanner

لقد تغير النُّوْرِي تماماً، وصار يرسل عصابات صغيرة لمناوشة شَمَّر وأخرى أقوى لمقارعة خصوم نَوَّاف في قُرى الجوف. فَسُرَتْ الرُّوَلَة بذلك وأملت بسحق قوة ابن رشيد الذي كانوا يعانون من مضايقاته سنوات عديدة. اهـ.

وأضاف يقول في ص٢٣٧: كانت جماعات الرُّوَلَة المغيرة تشتد في ضغطها على عشائر ابن رِمَال وابن رَخِيْص الشَّمَّرِيَّة، وتعود بكثير من المغانم، ولكن الأخبار التي جاء بها أحد الصَّلُبَة إلى نوَّاف الذي أسرع إلى إخبار والده بها، أفادت بأن زَامِل بن سَبْهَان وزير سعود بن رشيد الفتى قد أرسل ذخائر ومؤناً إلى مَارِد وخِذْمَا. فوجَّه الأمير على الفور قوة كبيرة من الهجَّانة لاحتلال المناطق المجاورة لآبار الشَّقِيْق وممر المُستندَة في سلسلة جبال الطويل وفي عشية يوم الخميس عادت القوة المغيرة بالجائزة. وتفصيل ذلك أنهم عمدوا إلى التمويه، فأخفوا أنفسهم في تجاويف رمال الصحراء ووضعوا حُرَّاساً على تلال الرمل العالية وأخذوا ينتظرون حضور الإبل التي تحمل المؤن إلى الجوف.

ولم يطل بهم الوقت في الانتظار، إذ ظهرت القافلة قُبيل ظهيرة يوم الأربعاء. ثم قاموا بتطويقها دون ان يظهروا أنفسهم، وحين خلدت الجماعة إلى الراحة عند الفجر، حين يكون البدو في أعمق درجات نومهم انقضوا على القافلة واستولوا عليها. ولم يبلغني ما صار إليه أمر مرافقي الجِمال فالرُّوَلَة لم يأتوا على ذكر ما آل إليه هؤلاء في أحاديثهم. بَيْدَ أن للمرء أن يخلص إلى أن هؤلاء لا ريب قد هلكوا، إذ لم يعد يبلغ الجوف أو قَارَا منهم أحد. أمَّا إن كان سبب فنائهم أسلحة الرُّوَلَة أم العطش والجوع، فذلك أمر لا يعلم به سوى الله والرُّوَلَة. اهـ.

وفي ص٢٥٩ قال موسيل: أفاد الرُّسُل النُّوْرِي بوقوع اشتباك بين ابن سْمَيْر والشّرْكَس. فقرر الأمير الإسراع بالمسير. وقال النُّوْرِي موضحاً:

بلغني يا موسى، أن طِرَاداً، والذي يُدْعَى عارفة، ويزعم أنه ابن أخي فهد، قد حرَّض الشَّرْكَس وأثارهم علينا، ذلك أنه أقسم على الانتقام مني. وهو اليوم ثائر على صديقه المرحوم رشيد بن سْمَيْر لحلفه لي. اهـ.

وفي نفس الصفحة نقل لنا موسيل صورة من شجاعة الأمير النُّوْرِي فقال: وفيما كنا جالسين نتبادل أطراف الحديث صدح النذير. فهبَّ الأمير واقفاً على قدميه ثم اندفع مسرعاً إلى خيمته، وهناك رمى على كتفيه بشكل متصالب نطاقين يحملان مئة وعشرين طلقة نارية من نوع مانليخَر والتقط بارودة وهو حاف ولا شيء يرتديه سوى قميص، ثم رمى بنفسه على سرج فرسه البيضاء الخفيفة، وهو ينادي:

يا خايفين من المنايا   من جَاه ملك الموت مات
الموت ما فكّ السبايا   ياخذ غنادير البنات

ولما أزفت الساعة الواحدة أسرع الفرسان للحاق به، وليس عليهم عباءة أو مناديل على جدائل شعرهم المتطايرة في الهواء..

وبعد نحو من عشرين دقيقة بلغتنا أخبار تفيد بإطلاق نار، متقطع في بادئ الأمر ثم غزير. وبعدئذ تجددت صيحات النذير وصارت كافة الأطراف تطلق عقيرتها بالغناء..

وتم تجهيز حتى المهور التي ما زالت ترضع فلما تبيَّن أنها لا تكفي جمعت الجِمال، وهذه إشارة إلى كثرة العدو. ولنكفل سلامة مخيمنا من هجوم مفاجئ عمدنا إلى احتلال التل المستطيل التالي ومضينا نستطلع ناحية شمال شرق آبار قُدَيِّر لكننا لم نتمكن من اكتشاف أي أمر، ولا سمعنا بعد ذلك أية طلقات. وعاد المحاربون قرابة منتصف الليل. اهـ.

وفي ص٢٦٤ نقل لنا موسيل صورة من عدل الأمير النُّوْرِي بين

رعيته، وهي قضية خلافية عرضت على الأمير النُّوْرِي فأنهى الإشكال بين المتخاصمين بعدله وحكمته وذكاءه. قال موسيل: جاء رجلان أحدهما رُوَيْلي والآخر شَرَارِي إلى الأمير ليساعدهما في حل قضية يختصمان فيها، وجوهرها أنهما كانا قد تبادلا قبل أيام ناقتين فيما بينهما. حيث أعطى الرُّوَيْلي الشَّرَارِي ناقته وزاده قميصاً ومنديلين، ونال مقابل ذلك ناقة كان الشَّرَارِي يركبها حتى ذلك الحين. وفي يوم الأربعاء خرج الرُّوَيْلي بهذه الناقة يطارد العدو. وفي يوم الخميس بدت البهيمة عاجزة عن القيام فلما قامت في النهاية كان ظاهراً أنها تعرج لإصابة قائمتها الأمامية اليمنى. فاتهم الرُّوَيْلي الشَّرَارِي بأنه كتم عنه أن الراحلة قد تصاب بالعرج بعد طراد سريع فأراد أن يرد الناقة إلى صاحبها القديم. وكان من الطريف الإصغاء لكل من الرجلين يعرض قضيته وسماع اللهجتين على ما فيهما من اختلاف. ولقد جلس الأمير يصغي إليهما، وهو صامت، فلما فرغا من عرض الخلاف قال مخاطباً الشَّرَارِي: آتني بشهود على أن ناقتك لم تُعانِ العرج من قبل.

ثم التفت إلى الرُّوَيْلي قائلاً: آتني بشهود يشهدون بأن ناقتك لم تُعانِ العرج بسبب رعونتك في قيادتها في النِّجَاد والسَّبْخَة.

وللتو أبرز الشَّرَارِي شهوده، أما الرُّوَيْلي فقد عجز عن تقديم أي شاهد.

فسأل الأمير: وما قولك، يا شيخ موسى، في دعوى هذين الإثنين؟

إني لن أقول فيهما قولاً، وقد قالا حكمهما في الأمر.

قال الأمير وهو يقفز على ظهر ناقته الباركة: والله هذا حق.

ثم ترك الأمر دون أن يوجه كلمة للمتخاصمين. اهـ.

وفي ص٢٦٥ تحدث موسيل عن الحالة السياسية في بلاد الشام

Scanned with CamScanner

فقال: أخبرني الأمير مع اقتراب المساء بأنه عازم على توجيه العبد حمار إلى حوران ليأتيه بالأخبار الموثوقة عن الوضع السياسي في دمشق ونواحيها. فقد سمع من رجل من أهل إِثْرَة أن الحكومة طردت الرُّوَلَة جميعهم من الجولان فأقاموا مضاربهم في شمال غرب الأَزْرَق الآن. كذلك أفادت الأنباء بأن ثلاثاً وعشرين سفينة حربية إنكليزية قد رست قبالة بيروت، ومن اسطنبول توجَّه واحد وأربعون فوجاً من الجيش إلى سوريا. وفي دمشق اعتقل واحد وتسعون شخصية بارزة، ولجأ كثيرون سواهم إلى الدُّرُوْز طلباً للأمان عندهم من الحكومة.

وهذه الأنباء حملها إلى بلدة إِثْرَة أهالي حوران الذين قدموا إلى تلك الناحية طلباً للملح. وعليه قرر الأمير التقدم ببطء وانتظار عودة حمار. وكان حمار قد شارف على الثمانين، إلا أنه على قدر كبير من الحكمة وسرعة البديهة ما جعل الأمير يعتمد عليه في أي أمر. لكن لم يكن ثَمَّة وسيلة لمعرفة متى يعود ونحن لا ندري حتى إن كان سيفلح في بلوغ محطة دَرْعَا. وكانت الرُّوَلَة يومئذ في حرب مع أهالي الجبل الدُّرُوْز وعشيرة السِّرْحَان. وكان هؤلاء ينصبون خيامهم بالقرب من الطريق المؤدي إلى دَرْعَا؛ ولذلك من المحتمل أن يتمكنوا من الإمساك به.

وكان من المقدر أن يترك ناقته في دَرْعَا، بعهدة شخص من أهل المنطقة وموثوق به من الأمير ومتابعة الطريق إلى دمشق بالقطار، ليسلم الرسائل ويعود بالجواب بالقطار إلى دَرْعَا، ثم على ظهر الناقة إلينا. وكان من غير المتوقع بالتالي عودته إلا بعد رحلة تمتد تسعة أيام أو عشرة.

وفي يوم الإثنين، ٧ يونيو (١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م)، صرنا على مسافة من الواحات المأهولة. وجدير بالذكر أن وادي السِّرْحَان يمتد بعيداً في التلال الشرقية. وتتجمع فيه مياه الأمطار في الغُدْرَان، والوادي مناسب جداً للاستقرار الدائم، بفضل حمايته من ثلاثة جوانب من غارات البدو.

Scanned with CamScanner

ويمكن للمرء أن يتبيَّن من الجنوب إلى الشمال بساتين النخيل والحصون الخشبية في ثماني واحات، وفي المقدمة إثْرَة وكاف. وتُدعى هذه القرى جميعها قُرَيَّات الملح بسبب موقعها بين سبخات واسعة ولأن سكانها يعملون بجمع الملح وتجارته.

ولم يكن الظهر قد حان حين بدت أمامنا غِطِّي، وهي قرية صغيرة تتألف من حصنين تحيط بهما بساتين نخيل واسعة. ثم لحق بنا بعيد ذلك سكان كَاف. ومع أن الأمير استدعاهم إليه، إلا أنه بالكاد ألقى إليهم نظرة. وكان رده على تحياتهم جافاً مقتضباً وتابع الطريق راكباً وهو صامت.

نصبنا خيامنا يومذاك بالقرب من غُدْرَان المياه الكبيرة في حُصَيِّدَة أم غروبة ومضينا للاستحمام الأمير وأنا أولاً، فجماعات الرجال والأطفال، فالنساء والفتيات حوالي المساء.

أمضينا يوم الثلاثاء في موقعنا بينما التفت الأمير للنظر في الدعاوى التي تعرض أمامه فيما انصرف العُرْبَان لشراء الملح والمؤن.

تضم منطقة كَاف ستين موقعاً تمثل ثلاثة أقضية. وكان وكيل الأمير هناك عواد بن حمار يقدم للأمير خمس مئة مجيدي ضرائب سنوية، ولا يتقاضى منه راتباً.

وسكان المنطقة يبيعون سوريا خمسة أو ستة آلاف حِمْل جمل من الملح سنوياً. وثمن الحِمْل من الملح (٢٨٨ مكيالاً ٧٢ = غالون) مجيدي واحد (٩٠ سنت) نصيب وكيل الأمير منه النصف وهو الذي يتولى أيضاً جمع، أو بالأحرى فرض ضرائب لحماية الحيوانات والأحمال.

انشغلت في ذلك اليوم كله باستكمال تقريري حول الطبوغرافيا، وما صرفني عن ذلك سوى إحضار جواد عددين من إحدى الصحف العربية فكانتا كل ما طالعته من صحف طوال عشرة شهور. وقد علمت مما قرأت

Scanned with CamScanner

أن الأتراك بات لهم سلطان جديد في استنبول. وحوالي المساء راح الأمير يحادثني في قضايا سياسية أبدى في تناولها اهتماماً كبيراً. وكانت الحكومة التركية قد عقدت العزم على إلزام البدو جميعاً بتسليم أسلحتهم. وبناء على ذلك أعلم والي بغداد كافة شيوخ العُمَارَات (الاعْمَارَات) والدَّهَامِشَة بضرورة تسليم جميع ما لديهم من البنادق والمسدسات خلال شهر فكان ردهم:

«إن النُّوْرِي بن شِعْلان هو ملك شمال جزيرة العرب، فإذا سَلَّمَ أسلحته اقتدينا به. فإن لم يُسَلِّم أسلحته امتنعنا نحن - أيضاً - عن ذلك، وإلا عامَلَنَا معاملة النساء».

وقد أحال الوالي هذا الرد إلى استنبول. فالأمير لم يكن يثق إذن بالحكومة التركية، إذ انقطع عن التعامل وإياها منذ أن صار أميراً، وكان يخشى أن تخدعه الحكومة فتعمد إلى تطويقه بجيشها. وقد قال لي حين غادرني:

والآن، يا أخي، كيف أقدر على فراقك؟ فلقد صرنا جميعاً نألفك! وإني لأُكِنُّ لك الحب ويشهد الله أني أقول الحق. والآن عليك أن تغادرنا.

وقبل حلول الظهر قمت برفقة عَوْدَة (الكُوَيْكِبِي الرُّوَيْلي) بزيارة آثار الحَدِيْثَة. وقد ناداني الأمير وأنا أغادر وطلب أن أبدي اليقظة حيال العدو وأسرع بالعودة. اهـ.

تجول موسيل في الآثار الموجودة هناك وزار قصر عَمْرَة وقام بتصويره وفي أثناء تجواله قال موسيل في ص٢٧١: وورد لمقابلتي عصر ذلك اليوم أحد عبيد الأمير ونقل إليَّ طلبه بالعودة فوراً، نظراً لعودة حمار ورغبته باستشارتي في قضايا ذات أهمية.

وكان الدُّرُوْز ومختلف الناقمين من أهالي دمشق الذين لجؤوا إلى هؤلاء يحثون النُّوْرِي أن يُوحِّد الصفوف معهم والهجوم على الحاميات التركية، سوى أنني أشرت على الأمير ألا يتسرَّع في القرار ولا يأخذ في الاعتبار إلا مصلحة قبيلته. وفي هذه الأثناء أرسل إليه والي دمشق رسالة ودِّية يطلب منه فيها دخول الشام مع قبيلته وحفظ القانون في المنطقة حول مضاربه. اهـ.

وفي ص٢٧٥ قال موسيل: في يوم الجمعة كنا بلغنا السكة الحديدية. ودخل الأمير نُوْرِي الشِّعْلان منطقة الحضر. وما أن نصبت مضارب الأمير في أراضي (نَصِيْب) حتى توارد إليه كبار القُرى المجاورة للتحية ودفع ضريبة الوفاء له ودعوته للعشاء وإياهم. وفي العصر استمر تيار الإبل والحمير والبغال تتقاطر وهي محملة بالهدايا من طحين وشعير ودقيق هدية للأمير وكبار العشيرة الآخرين. وتلك ضريبة يشتري بها سكان المنطقة الحماية والأمن من العُرْبَان.

ومكث الأمير جالساً إلى جانبي حتى وقت متأخر من الليل يحدثني عن فراقنا الوشيك لقد غدونا صديقين حقيقيين، ولطالما أعلن صراحة أني أعز عنده من ولده البكر نَوَّاف.

وفي يوم السبت ١٩ حزيران تركت مضارب الأمير ومعي رفاقي جميعهم والإبل ميممين نحو دمشق، وقد بلغتها عصر الإثنين المصادف ٢١ يونيو ١٩٠٩ (١٣٢٧/٦/٣هـ). اهـ.

وبهذا انتهت الرحلة الأولى لموسيل مع قبيلة الرُّوَلَة.

وفي آخر ذي الحجة سنة ١٣٣٢هـ الموافق ١٥ نوفمبر ١٩١٤م، عاد موسيل إلى البلاد العربية، وكان الأمير النُّوْرِي بن هَزَّاع الشِّعْلان في وقتها تحت الإقامة الجبرية في دمشق، فقابل موسيل، وطلب منه التوسط لدى

Scanned with CamScanner

الحكومة التركية كي تطلق سبيله. قال موسيل في ص٢٧٩: **وصلت دمشق في منتصف نوفمبر ١٩١٤ حيث أتى الأمير النُّوْرِي لزيارتي راجياً التوسط له وتأمين تصريح بالمغادرة مع قبيلته إلى الصحراء. فوعدت عندئذ بالتوسط له وسألته أن يقدم لي موافقته وجاهه في حلولي مجدداً في الصحراء.**

فقال: «أنت تعلم، يا موسى، أني أُكِنُّ لك من الود ما أُكِنُّ لأخي. فقد آزرتني بجاهك لدى الحكومة، وأنا أقدم لك جاهي عند البدو، وليُعلي الله من نفوذنا عند أبناء آدم جميعهم. فمتى تأتي إلى دياري؟».

«إن شاء الله في غضون أسبوعين، ولسوف أنصب بيتي بحد بيتك».

«لا أدري يا أخي إن كنت أستطيع الانتظار كل هذا الوقت بعد أن تطلقني الحكومة من ضُمَيْر. فعشائري والقبائل التي تتبعني تنزل في الصحراء وتحتاجني، وعبيدي يتلهفون لترك وَحْل ضُمَيْر إلى الحجر النظيف أو رمال البرية. سأبذل أقصى الممكن وأنتظر وصولك. وإذا خرجت مبكراً فإنك تدركني بعد قليل».

وإذ توليت كفالة النُّوْرِي فقد حصلت له على الإذن بالسفر والتوغل في الصحراء. فابتهج أيَّما ابتهاج حين زففت له النبأ. فغادر دمشق حالما سمع مقالي، وكان يخشى أن تتحول الحكومة عن الوعد الذي قطعته لي. فنقل مضاربه مسافة مسيرة يوم إلى جنوب غرب ضَمَيْر وأرسل بأنه ينتظرني إن أسرعت. بَيْدَ أنني كنت غير قادر على مغادرة دمشق على كل حال بالسرعة التي كنت أود، فقد كان عليَّ إنجاز استعداداتي، كما أن الجو ظلَّ ممطراً طوال أيام.

وفي النهاية صرنا على الدرب نسير. وقد رافقنا في هذه الرحلة أوروبي أطلقنا عليه اسم خَلَف وثلاثة من أهل البلد: صديقي المجرب القديم ناصر وأخوه المغفل منصور وحسيناوي. وكنا نمتطي في الرحلة

الإبل كما كانت هذه تحمل لنا المؤن والخيام. وقد تم نقل متاعي في عربة إلى مقام الشيخ رسلان عبر [منطقة] باب توما [في دمشق] حيث جرى تحميلها على ظهور الإبل. اهـ.

وفي ص٢٨٣ قال موسيل: مضينا في دربنا شرقاً صباح يوم ٦ ديسمبر ١٩١٤ (١٨/ ١/ ١٣٣٣هـ)، فوق أرض كثيرة السَّبْخَات، ثم عند الظهر لمحنا مضارب سلطان المترامية الواقعة على مسافة عن الحصن الروماني خان التراب، وقد بعثنا أحد رفاقنا في المقدمة ليخبر شيخ العشيرة الشاب بقدومنا. وعند الغروب ظهر عن بعد ثلاثة فرسان ثم اثنان آخران بعدهم وجميعهم يتوجهون نحونا على عجل. وبعد لحظة برزت مجموعات أخرى من الفرسان من عدة تلال من الشرق. ولما لم نكن نملك أن نتبيَّن إن كان هؤلاء من الأصدقاء أم من الأعداء، جهزنا أسلحتنا وبتنا ننتظر الطلقة الأولى. وكان هؤلاء الفرسان يلوحون بأيديهم، لكن دون أن يصدر منهم أي صوت. واقترب أول ثلاثة منهم فكانوا على بعد ثلاث مئة ياردة دون أن يطلقوا عياراً نارياً أو يصدر عنهم نداء. ثم تقدم منا هؤلاء الفرسان الثلاثة، فقفز أولهم، وكان فتى أسمر البشرة في حوالي العشرين من عمره، عن مُهره البني اللون، ومد يده نحوي، وقال صائحاً: أهلاً بك بيننا يا موسى.

وتبينتُ في ذلك الشاب الشيخ سلطان الطيَّار، صديقي الذي غاب عني ولم ألقه منذ عام ١٩٠٨ (١٣٢٦هـ). وكان فرحنا عظيماً بهذا اللقاء غير المنتظر. أما الفرسان الآخرون فبلغونا جماعات، وهم يعجبون أن يتلقوا صديقاً بعد أن خرجوا للقاء عدو. ووجدنا العديد منهم قد ضاقوا بهذا الوضع ومن بينهم رجل ضئيل البنية يحمل رمحاً طويلاً ويطلق السباب واللعنات مثل السوقة حين أدرك أنه لن ينال أي نصيب من الأحمال التي على ظهور إبلي. ومضى سلطان عندئذ يعرض لي السبب الذي حمل رجاله على الترحيب بي على هذا النهج الغريب.

Scanned with CamScanner

«لما علمت بمجيئك انتابني الفزع من أن تقع في أيدي قُطَّاع الطرق الذين يحومون حول معسكرنا بحثاً عن غنيمة. فأردت أن أخرج للقائك، سوى أنه لم يكن في خيمتي سوى اثنين من العبيد، أما بقية الرجال فكانوا منهمكين في جمع القطعان العائدة، ولكني لم أتردد طويلاً مع ذلك، فخرجت وأطلقت ثلاثة عيارات من مسدسي وناديت مستنفراً: يا أهل الخيل! ولوَّحت ببندقيتي باتجاه الشمال غرب بينما اندفعت مغادراً الديار في ذلك الاتجاه. ولقد ردد النداء كل من سمعه، وتوجه الجميع في ذلك الاتجاه ثم سرعان ما هُرِع الفرسان يلحقون بي للقضاء على العدو المفترض».

وهكذا انضم إلينا نحوٌ من خمسين فارساً صاروا يضحكون ملء قلوبهم حين علموا بأي أسلوب حاذق اتبعه سلطان في استدعائهم. ولقد رافقني هذا الجمع كله إلى مضاربهم.

نصبت خيمتي إلى جانب خيمة سلطان. وكان قد أمر بذبح خروف سمين للعشاء ومكثت في خيمته حتى منتصف الليل تقريباً. وقد أكَّدَ لي بأنه سينطلق باتجاه الجنوب بأسرع ما يمكن لأتمكن من الانضمام إلى الأمير النُّوْرِي بسرعة. وكان هذا ما سيفعله جَدُّه من ناحية الأم سُعُود بن مِلْحِم، كما قال، لأن سُعُوداً كان قد تلقى أمراً قبل أسبوع من الجنرال زكي بالإسراع إلى لقاء الأمير النُّوْرِي.

وكان هناك العديد من عشائر قبيلة الفُوَاعِرَة مع وُلْد علي، وجميعهم يفرون بقطعانهم من نواحي دمشق وحمص لإنقاذها من جشع الحكومة التركية. ولا يبدون أي اهتمام بالحرب الأوروبية. فقد تداولوا في أمر القتال الدائر بين الحكومة التركية والإنكليز على الحدود المصرية، وفي الكويت، والبصرة، التي بلغتهم أخبارها وهم في حمص، وكانوا يتحادثون في أمر القتال وكأنما يدور بين قبيلتين غريبتين لا يعنيهم أمرهما، ومنهم من تمنى هزيمة الأتراك..

Scanned with CamScanner

وفي اليوم التالي ورد سُعُود بن مِلْحِم شيخ مشايخ الحْسَنَة (الَاحْسَنَة)، وهم فرع من وُلْد علي، وكان يرافقه أبناؤه فَنْدِي وتُركي ومحمد، للترحيب بي وإطلاعي على أمر زكي باشا بأن ينضم إلى الأمير فوراً. وقد قال إنه عازم على التضحية بنفسه وأولاده وقبيلته عند إشارة من الحكومة التركية والسلطان في استنبول اللذين لا بد أن يتكللا بالنصر بإذن الله. ولما قلت له إني أتيت بأوامر جديدة نبّه الحضور للإصغاء باحترام إلى كلمات الدولة السَّنِيَّة والتي سوف يقرأها عليهم خادمي منصور. كانت الخيمة الفسيحة التي ينزل بها سلطان تحفل بالضيوف، ويحيط بها من الأمام والخلف حشد ملفت للنظر والجميع يسعى متلهفاً لسماع رغبات الحكومة وأخبار ما جرى بعد رحيلهم من المنطقة المزروعة.

فلما انتهى منصور من تلاوة ماتضمنه الخطاب، راح الكثيرون يصيحون: الله ينصر الحكومة والسلطان. إلا أن أكثر الحاضرين ظلّ صامتاً. وبعد بضعة دقائق جرى الخوض في كل الموضوعات، إنما لم يعد يرد ذكر الحكومة أو الحرب.

كنا قد شرعنا في تناول الطعام حين سمعت صيحة النذير من ناحية الشمال. فرمى الشباب عنهم عباءاتهم والتقطوا أسلحتهم وامتطى كُلّ منهم صهوة جواده الذي يقف منتظراً متأهباً، واندفعوا إلى الأمام، وهم ينشدون.. وكان ذلك نذيراً كاذباً.

بعد العشاء دعوت سلطان وسُعُوداً وأولاده إلى خيمتي، وذلك لرغبتي في تناول الأحداث السياسية والحرب وإياهم. وكان سُعُود بن مِلْحِم يومئذ في نحو الخامسة والستين من عمره، واقرب إلى القصر وبدين، ويتسم بشفة سفلى كبيرة مستديرة وعينين صغيرتين تكادان لا تثبتان فتتحولان بالنظر من مكان إلى آخر، وكان أشبه بابن بلد هادئ مستقر منه بابن صحراء من الرُّحَّل. وكان يملك بيتاً في حمص والقريتين. أما زوجته فيرجع أصلها

Scanned with CamScanner

إلى جَيْرُوْد. وتجيد الطهي وتؤثر العيش في حمص وهذا ما يؤثره سُعُود أيضاً، لأنه يستطيع في حمص أن ينال كل أطايب الطعام. وكان الرجل بعيداً عن الصحراء فلم يتوغل فيها منذ أن كان فتى. وقد اعتاد أن يقيم في مواسم الأمطار في منزل من الحجر في حمص أو في أحد البيوت في أملاكه من القُرى، أما في الفصل الذي يغلب فيه الجفاف فكان يقيم في خيامه في البرية بين حمص وتلك القُرى. ولكن حين اندلعت الحرب انتقل إلى أعماق الصحراء، ليس لغرض خدمة الدولة وإنما بهدف حماية أملاكه من عدوان المسؤولين ذوي الطمع والجشع.

قال (سُعُود بن مِلْحِم): «أنت تدري يا موسى، أنه ليس بوسعي أن أحمل معي منزلي وقُراي إلى أعماق الصحراء؛ لذلك وجب علي التزام الحذر. ففي المنطقة المأهولة، كما في البادية، كثيرون يتجسسون لصالح الدولة، وأنت عليم بالدولة، إنها تستولي على كل شيء ولا تقدم شيئاً، ولا أود أن أجدها تصادر كل مالي بين الأهالي، ولذلك كثيراً ما أتكلم غير ما يجول في فكري.

هذه دبلوماسية. وأنا رجل أعاني من داء النقرس فلا أستطيع ركوب الخيل، ومع ذلك فقد هجرت بيتي ومضيت إلى عمق البادية. ولقد فرضوا [السلطات] علينا ضريبة حرب وعمدوا إلى إقطاعها لكافة أنواع المحصلين، ومن يدفع يفلس ومصيره الخراب ومن لا يدفع ويبقى في المنطقة المحروثة كان مصيره الخراب أيضاً. فالحكومة استولت من المزارعين لدي على الجِمال والحمير وقطعان الماعز والأغنام، كما أنهم أفرغوا عنابري من الحبوب. ولإنقاذ بعض أملاكي عمدت في الشهور الماضية إلى توجيه الجِمال والماعز والأغنام إلى البادية، وبقيت أنتظر وعداً من زكي باشا بألا يصادر منزلي. فأوعز إليَّ بالانضمام إلى النُّوْرِي، وإنني أود الالتحاق به لولا أن داء النقرس ينهكني».

ولما سألته إن كان سيناصر الدولة أم يعمد إلى نهب القُرى من أعماق البادية، أجاب مواربة بأن الأمر متروك للنُّوْرِي. ثم رجاني الكتابة إلى قبيلتي الفِدْعَان والسَّبَعَة وحثهما على المصالحة مع وُلْد علي، مضيفاً: «الغرباء لا يعنون لي شيئاً، طالما أن أهلي يشددون عليَّ الخناق».

وفي صباح الثلاثاء ٨ ديسمبر (١٣٣٣هـ/ ١٩١٤م) تحرك الركب باتجاه الجنوب شرقاً. وكنت بصحبة سلطان في منطقة حافلة بالمرتفعات والمنخفضات، وكان سلطان رجلاً صغير الحجم عريض المنكبين، شفاهه سميكة كبيرة، عيناه سوداوان تنمَّان عن إخلاص، وبشرته داكنة. وكان أخوه محمد قد أوفدته الحكومة للدراسة في المدرسة التي أسسها في استنبول [السلطان] عبد الحميد لتدريس أبناء شيوخ العشائر. ثم عاد في عام ١٩٠١ (١٣١٩هـ)، عندما قتل الدُّرُوْز أباه، لكنه لم يلبث أن مات بعد وقت قصير من عودته.

ومن عائلة الطيَّار ذات السيطرة لم يبق سوى سلطان، وكان يومئذ في السادسة من عمره. وقد ترك ليتولى رعايته العبد خَلَف العجوز، وظلَّ يُخَيِّم وإياه ثلاث سنوات في عَذْرَا، ولما بلغ سلطان الثانية عشرة تولى خَلَف أمر زواجه من قِطْنَة ثم رِفْعَة بعد سنتين، وكانت أكبر سناً منه وأنجبت له بنتين.

ثم طلَّق قِطْنَة بعد حين، إلا أنه كان شديد الشغف برِفْعَة، وما كان يأتي بأمر إلا بعد أن يشاورها. ولم يكن يأسف لأمر سوى أنها لم تكن قد حملت له ابناً حتى ذلك الحين. ولم ينل سلطان من أملاك والده الواسعة إلا القليل، وكانت الحكومة تدفع له ٢٨٠ ليرة تركية (١٢٦٠ دولاراً) سنوياً لحماية الحجيج، وكان عليه أن يدفع ٣٢٠ ليرة (١٤٤٠ دولاراً) سنوياً ضريبة. وتحظى عائلته باحترام شديد في جميع أرجاء البادية..

Scanned with CamScanner

ولم نتقدم في المسير في اليوم التالي، إذ رغب سُعُود بن مِلْحِم أن يعرض لي كامل ضيافته. وقمت في الضحى باستطلاع تل قريب وكنت أود أن ألحظ في التقرير على وجه الدقة كل فوهة بركانية على حدة في منطقة ديرة التلول البركانية. وفي الظهر قامت بزيارتي مِشْخَص، ابنة الأمير المغدور فَهْد الشِّعْلان، وكانت أول زوجة للأمير نَوَّاف وأنجبت له ولداً يُدعى سلطان، وما زال شغوفاً بها ويتشوق إليها؛ ولكن بعد اغتيال أبيها فَهْد، نفرت من نَوَّاف واقترنت من فَنْدِي بن سُعُود المِلْحِم. وقد رجتني أن أحمل سلامها إلى ابنها سلطان وإلى نَوَّاف. إذ كانت تود لو عادت إليهما، لولا مقتها للنُّوْرِي الذي رأت على يديه دم أبيها.

وفي العصر جاء سلطان ليقودني إلى خيمة سُعُود. وكان قد اجتمع لديه حوالي مئة شخص في جلسة على هيئة المستطيل، وما إن دخلت حتى هبُّوا جميعهم وقوفاً، ولقد خصصت عندئذ بمكان الشرف عند الجدار الذي يفصل موضع الرجال في الخيمة عن موضع النساء.

ثم دخل محمد بن سعود للسلام عليَّ وسار بي إلى موضع التشريف، وجلس هو في وسط الطرف الغربي الطويل من الخيمة. وبعد تبادل التحيات المعتادة قام أحد العبيد بصب عدة قطرات من الماء على أصابع يدي اليمنى، ثم دخل علينا ستة عبيد حاملين صينية ضخمة فوقها أكوام من لحم الضأن والقمح المقشور (الفريكة) ووضعوها وسط المستطيل.

ولقد دعاني محمد مع خمسة رجال آخرين إلى الأكل. وكان على يميني سلطان قاعداً القرفصاء، وإلى يساري تركي بن سُعُود وأخذ كلاهما يختاران أفضل قطع اللحم ويكومانها أمامي. وكان يقف خلف كل واحد منا عبد يحمل طبقاً فيه ماء. ولم نكن قد أمضينا أكثر من أربع دقائق حتى نهضنا وعدنا إلى أماكننا السابقة، ودعا محمد عشرة ضيوف آخرين للمشاركة في

Scanned with CamScanner

الطعام. وبعدئذ صارت الوليمة إلى خمسة عشر ضيفاً، فثمانية عشر وأخيراً عشرين.

ولم يتخذ محمد مكانه حتى أنهى أولئك الضيوف مشاركتهم فجلس وثلاثة أطفال صغار إلى الصينية ليلتقطوا اللحم عن العظام. ذلك أن اللحم كان قد انتهى، إلا أنه بقي هناك ما يكفي من القمح المقشور ليوفر وجبة مشبعة. وبإشارة منه قام العبيد وحملوا الصينية والعظام وما بقي من القمح المقشور إلى النساء، لا يعنيهم أمر أولئك الحضور الذين لم يذوقوا من ذلك الطعام شيئاً. أما الشيخ سُعُود العجوز فكان يجلس في الزاوية منشغلاً برأس خروف.

وبعد الوليمة دار الحديث بين الحضور بصورة عفوية. أما الحرب فكانت قلّما تذكر. فكنا نتحدث في موضوع المراعي والحاجة إلى مطر غزير، وأمراض الماعز والغنم، والسرقة في الديار، وتهديد غارة الفِدْعَان. ولم يُدْلِ أحد سوى سُعُود، الذي كان يتألم من آثار داء النقرس، بكلمة عن الحكومة أو البريطانيين. وقد أعرب عن أمنيته بإنهاء الحرب في وقت مبكر ليتمكن من العودة إلى منزله في حمص. اهـ

أَعْمِدَةُ الحِكْمَةِ السَّبْعَة

١٣٣٥ - ١٣٣٦هـ

١٩١٧ - ١٩١٨م



ترجمة: محمد نجار.

الناشر: الأهلية للنشر والتوزيع، عَمَّان، ١٩٩٨م.

عدد الصفحات: ٧٩٥ صفحة.

نبذة عن الرحَّالة:

هو توماس إدوارد لورانس والذي عرف فيما بعد بلورانس العرب، ولد في ويلز عام ١٣٠٥هـ/ ١٨٨٨م، وتلقى تعليمه في مدرسة أكسفورد العليا، وفي كلية اليسوع ومجدولين بأكسفورد. وأصبح فيما بعد طالباً باحثاً في كلية أوول سولز (كافة الأنفس) بأكسفورد.

ومن عام ١٣٢٨ - ١٣٣٢هـ/ ١٩١٠ - ١٩١٤م أصبح عالماً مساعداً في متحف الكشف عن آثار الفرات البريطاني. وجُنِّد في الجيش البريطاني عند اندلاع الحرب العالمية الأولى. وألحق في عام ١٣٣٥هـ/ ١٩١٧م رسمياً بأركان حرب قوة حملة الحجاز، تحت إمرة الجنرال وينجيت.

وفي عام ١٣٣٦هـ/ ١٩١٨م نقل إلى هيئة أركان قوات الجنرال

Scanned with CamScanner

اللنبي. وحضر مؤتمر السلام الذي عقد عام ١٣٣٧هـ/ ١٩١٩م كعضو في الوفد البريطاني.

وفي عامي ١٣٣٩هـ/ ١٩٢١م و ١٣٤٠هـ/ ١٩٢٢م أصبح مستشاراً في الشؤون العربية في قسم شؤون الشرق الأوسط بوزارة المستعمرات البريطانية.

وفي عام ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٧م تعقَّد من اسم أسطورة (لورانس العرب) فغير كنيته إلى (شو). ثم انضم إلى سلاح الجو البريطاني كطيار.

توفي لورانس عام ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م بحادث درَّاجة نارية.

له عدة مؤلفات غير هذا الكتاب، منها:

١ - ثورة في الصحراء.

٢ - قلاع الصليبيين.

ملخص الرحلة[1]:

أعمدة الحكمة السبعة: كان أول ظهور لهذه العبارة في الإنجيل، في كتاب الأمثال، وقد اقتبس المؤلف هذه التسمية لأنه كتب مسوّدة الكتاب أو نشر أجزاء منه في سبع مدن، من بينها عَمَّان، وجُدَّة، ولندن، ونيويوك. ولم يشأ المؤلف لورانس العرب نشر هذا الكتاب لأنه اعتبره غير ناضج، وقام بكتابته على عدة مراحل، ولم يطبع كاملاً خلال حياته، بل طبع بعد وفاته عام ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م.

لقد قال لورانس بأن هذا الكتاب ليس بمذكرات ولا يوميات، وإنما هو عبارة عن تذكرات. وهذا واضح في بعض مقاطع الكتاب. وقد أثير

---

(١) منقول من صفحة الغلاف الأخيرة بتصرف.

Scanned with CamScanner

حوله العديد من الجدالات والانتقادات إلى حد الهجوم عليه في أحيان كثيرة من قبل العديد من الكتاب والشخصيات والجهات المختلفة، إلا أن الكتاب يمتاز بسرده لأحداث تاريخية في غاية الأهمية وقعت في بدايات القرن الماضي (العشرين)، وتتعلق بمجملها بالثورة العربية الكبرى. كما أنه يمتاز بوصفه العديد من الشخصيات التاريخية التي أَثَّرَت في مسار حركة التاريخ في تلك الحقبة، إضافة إلى وصفه المميز الدقيق والمسهب للمناطق الطبيعية في الجزيرة العربية وبلاد الشام، وبخاصة للأماكن الأثرية والجغرافية المختلفة.

Scanned with CamScanner

قبيلة عنزة
في يوميات لورانس



يقول لورانس في ص٢٠٣ متحدثاً عن الثورة العربية ويذكر القبائل التي ساندت الشريف الحسين بن علي: **وانتقل العرب من مرحلة الشكّ إلى مرحلة التفاؤل الشديد، وكانوا واعدون بخدمة ومساعدة نموذجية. وقام فيصل بن الحسين بتجنيد رجال قبيلتي بلي والمواهيب، الذين جعلوه سيداً على المنطقة الممتدة ما بين خط السكة الحديد والبحر، ومن ثم أرسل رجال قبيلة جُهَيْنَة إلى عبدالله الموجود في وادي العِيْص.** اهـ.

ويقول في نفس السياق ص٢٠٤: **كانت رؤيتي لنهج وأسلوب الثورة أو الحرب العربية عمياء جزئياً. وبما أن فيصل أراد - لحسن الحظ - أن يُغيِّر من عقول الرجال بدلاً من تدمير الخطوط الحديدية، فإن الهدف مضى بشكل أفضل.**

وابتدأ بجيرانه الشماليين من الحُوَيْطَات الذين كانوا يسكنون الساحل. وبعد ذلك أرسل إلى بني عَطِيَّة الرجال الأشداء الذين كانوا يتواجدون في منطقة الشمال شرق، وحصل على خطوة عظيمة عندما حضر زعيمهم عاصي بن عَطِيَّة وأدَّى أمامه قسم الولاء. وكان حافزه الرئيس في ذلك هو غيرته من إخوانه، ذلك أننا لم نكن نتوقع منه تقديم

Scanned with CamScanner

مساعدة نشطة، إلا أن الخبز والملح معه منحنا حرية التحرك عبر أراضي قبيلته. وكانت تقع في الخلف منه قبائل تدين بالطاعة والولاء لنُوْرِي الشِّعْلان، شيخ مشايخ أو أمير قبائل الرُّوَلَة، وكان يأتي في المرتبة الرابعة بعد الشريف حسين وابن سُعُود وابن رَشِيْد في الجزيرة العربية.

كان نُوْرِي الشِّعْلان شيخاً مسناً، حكم رجال قبيلة عنزة لمدة ثلاثين سنة، وكان هو - أيضاً - زعيماً لقبائل الرُّوَلَة، إلا أنه لم يكن أفضلهم، ولم يكن - أيضاً - ذا باع في الحرب، وقد استطاع أن يستمد ويحصل على الزعامة بواسطة قوة شخصيته. وليحصل على ذلك فقد قام بقتل شقيقين له. وأضاف إلى زعامته فيما بعد قبيلة الشَّرَارَات وعدد آخر من القبائل، وكانت كلمته بمثابة القانون المطلق في المناطق التي كانت تابعة له. كما أنه لم تكن لديه دبلوماسية الشيخ الاعتيادي، فقد تصدر منه كلمة واحدة وتنتهي المعارضة ضده، أو ينتهي معارضيه.

ولحسن الحظ فقد كان هذا هيناً. فقد أمَّن فيصل ذلك منذ سنوات، أبقى عليه من خلال تبادل الهدايا معه، عندما كان في المدينة وفي يَنْبُع.

والآن يقوم بذلك من الوَجْه، حيث أرسل فايز الغصين إليه. والذي عاد ومعه هدايا قيمة محمولة على عدة مئات من الجِمال القوية. وقد كان النُّوْرِي بالطبع ما زال مبقياً على علاقته الودية مع الأتراك. فقد كانت كل من دمشق وبغداد مركزي أسواقه، وكان بإمكانهم أن يجعلوا قبيلته نصف جائعة خلال ثلاثة أشهر، إذا ما شكّوا فيه، إلا أننا كنا نعلم أنه عندما تحين اللحظة؛ فإنه لا بد وأن يقدم مساعدته العسكرية لنا. وإلى أن يحين ذلك الوقت فلا بأس من الإبقاء على بعض علاقاته مع الترك.

إن تعاونه يمكن أن يفتح أمامنا وادي السِّرْحَان، وهو طريق شهير وملائم للتخييم، ويوجد به سلسلة من حفر المياه والآبار، وهو يمتد في

Scanned with CamScanner

سلسلة من الانخفاضات تبدأ من الجوف، التي كانت بمثابة عاصمة للنُّورِي، في الشمال شرق، وباتجاه الشمال حتى الأزرق، وبالقرب من جبل (الدُّرُوْز) العرب، في سوريا. وكنا بحاجة لأن نمر بحرية في وادي السِّرْحَان، لنصل إلى قبيلة الحُوَيْطَات الشرقية التي كان زعيمها عَوْدَة أبو تايه؛ الذي يعتبر من أعظم المقاتلين في شمالي الجزيرة العربية. وبواسطة وسائل عَوْدَة فقد يمكننا السيطرة على كافة القبائل المتواجدة من مَعَان إلى العَقَبَة، بحيث يمكننا بمساعدتهم لنا الاستيلاء على العَقَبَة وجبالها وطرد الحاميات التركية منها. وبمساعدته فقط يمكننا أن نندفع من الوَجْه في رحلة شاقة وطويلة إلى مَعَان. ومنذ أن كنا في يَنْبُع فقد أبقينا على اتصال طويل معه ونحن نحاول كسبه إلى جانبنا.

وقمنا في سبيل ذلك بخطوة كبيرة للأمام من الوَجْه. فقد وصل إلينا ابن زَعَل - وهو ابن عم عَوْدَة أبو تايه، والزعيم الحربي للقبيلة - في السابع عشر من شباط، حيث كان يوماً مشهوداً بالنسبة لنا. قدم إلينا عند الفجر ومعه خمسة من زعماء الشَّرَارَات من صحراء شرق تبوك، وكانوا يحضرون معهم هدية عبارة عن بيض النعام العربية المتوفرة بشكل نادر في منطقتهم. وقدم بعدهم ضيف الله أبو طيور، وهو ابن عم حَمَد بن جَازِي، وكان يعتبر حاكماً وشيخاً أعلى لحُوَيْطَات الوسط في منطقة مَعَان، وكانوا يعتبرون مقاتلون رائعين، إلا أن هناك عداءات دموية مع أبناء عمومتهم، وذلك بسبب الصراع القديم بين عَوْدَة أبو تايه وحَمَد أبو تايه. وكنا فخورين بقدومهم ورؤيتهم لتحيتنا، ومع ذلك فلم نكن قانعين، إذ أنهم كانوا أقل ملائمة من أبو تايه بالنسبة لهجومنا الهادف ضد العَقَبَة.

وقدم بعدهم ابن عم نَوَّاف، الابن الأكبر لنُوْرِي الشَّعْلان، ومعه جواداً أرسل كهدية من نَوَّاف لفيصل. وكانت عشيرة الشَّعْلان على عداء مع عشيرة الجَازِي وينظر كل منهم بحقد إلى الآخر لذلك فقد قمنا بفصلهم عن بعض

Scanned with CamScanner

في الخيام. وجاء بعدهم الشيخ ابو طُقَيْقَة زعيم قبيلة حُوَيْطَات الساحل. وبتأييده لنا فقد تم إغلاق المنفذين التركيين على البحر الأحمر وهما ضُبَا ومُوَيْلِح، اللذان كانا يقعان ضمن أراضيه. وأفسح له مكاناً على بساط فيصل، وقدَّم له أحرّ الشكر على النشاط الذي قامت به قبيلته، مما جعلنا نقترب من حدود العَقَبَة. وعند العصر قدم ابن زَعَل ومعه عشرة شيوخ من أتباع عَوْدَة أبو تايه. وقام بتقبيل يد فيصل مرتين، مرة من أجل عَوْدَة أبو تايه، ومرة من أجله، ثم جلس وأعلن بأنه قدم من طرف عودة ليقدم سلاماته وتحياته وليتلقى الأوامر. فقام فيصل بسياسته الحكيمة، وهو يضبط غبطته، بتقديمه بشكل وقور إلى خصومه رجال حُوَيْطَات الجَازِي. وتعامل معهم ابن زَعَل بشكل فاتر، وعقدنا معه فيما بعد محادثات خاصة مُطوَّلة، وحملناه هدايا ثمينة، ووعوداً أثمن، ومعه رسالة خاصة من فيصل إلى عَوْدَة يقول فيها بأنه لن يطمئن فكره إلا إذا رآه وجها لوجه في (الوَجْه)، فقد كان اسم عَوْدَة مشهوراً بالفروسية، إلا أنه لم يكن معروفاً لدينا. وبما أن مسألة العَقَبَة كانت حيوية جداً بالنسبة لنا، فإنه لم يكن بالإمكان حدوث أي خطأ بهذا الصدد. فينبغي عليه أن يأتي حتى يمكننا أن نقيمه، ونقوم بصياغة خططنا المستقبلية فعلياً في حضوره، وبمساعدته.

وباستثناء كل تلك الأحداث التي كانت سعيدة، فإن ذلك اليوم لم يكن مختلفا بشكل جوهري عن كل يوم كان يقضيه فيصل هناك. إلا أن تسارع الأحداث والأخبار جعلت يومياتي ومذكراتي مليئة وسمينة. فقد كانت الطريق المؤدية إلى الوَجْه مكتظة بالوفود والمبعوثين والمتطوعين وبالشيوخ الكبار وهم قادمون ليقدموا ويؤدوا قسم الولاء لفيصل. وقد أوجد فيصل نمطاً جديداً من القسم، يحلف به على القرآن ويؤدى بين يديه، وذلك بأن يقسم الموالي: (بأن يلبث وينتظر عندما ينتظر هو (فيصل)، وأن يسير معه عندما يسير ويرتحل، وأن لا يقوم بإطاعة أي أمر تركي، وأن يتعامل

بلطف مع كافة الذين يتكلمون العربية، سواء كانوا من العراقيين، الحلبيين، الدمشقيين، أو غيرهم من أصحاب الدماء العربية النقية، وأن يضع شعار الاستقلال فوق كل مصالحه، العائلية والحياتية).

ثم يبدأ - أيضاً - بمقابلتهم ومواجهتهم على الفور، عندما يكونون أمامه، مع أعدائهم وخصومهم القبليون، ويسوي خصوماتهم ونزاعاتهم. وكان هناك حساب للربح والخسارة مع ما كان يقوم به فيصل بالتوسط بين المتنازعين. وغالباً ما كان يقوم بدفع ثمن مشاركته أو توسطه من ماله الخاص، ليدفع عقد المصالحة بينهم قدماً. وقد عمل فيصل خلال سنتين يومياً ودون كلل، ليضع الأمور في نصابها ويجمع شمل القبائل العربية المتفرقة المشتتة، وذلك ليخلق مجتمع عربي واحد، وأن يجمعهم ويربطهم في بوتقة واحدة من أجل شن الحرب ضد الأتراك. لذلك لم يعد هناك وجود لعداء دموي في أي من المناطق التي كان يجتازها أو يحط بها. وكان هو عبارة عن محكمة استئناف، مطلقة ودون منازع، بالنسبة لقبائل غرب الجزيرة العربية.

وقد أظهر نفسه بأنه مستحق لهذا الإنجاز. وهو لم يصدر مطلقاً قراراً جزئياً، ولا قراراً لا يطبق عملياً، بحيث يمكن أن يؤدي إلى التشويش والفوضى. ولم يكن لأي عربي أن يطعن بأحكامه، أو أن يشك بحكمته وكفاءته في الأمور باستخدام تكتيكه، وذاكرته العجيبة، فقد حصل على السيطرة والسلطة على كافة القبائل المنتشرة من المدينة إلى دمشق وما وراءها. وأصبحت الثورة العربية في أفضل معناها القومي، إذ أن جميع العرب كانوا يداً واحدة لمصلحة مشتركة، ووضعوا مصالحهم الخاصة جانباً، وتم بواسطة هذه الحركة أو الثورة، وبواسطة التطبيق الصحيح والمقدرة الصحيحة، تحقيق الانتصار. اهـ.

من خلال هذا المقطع الطويل نسبياً يعطينا لروانس صورة من

الثورة العربية من خلالها نستطيع أن نشاهد الصور الأخرى لهذه الثورة. وقد أوردت هذا المقطع بكامله؛ حتى تتضح الصورة للقارئ الكريم ويعرف أن الجميع كان ضد الدولة العثمانية؛ بسبب سوء تعاملها مع العرب!! خاصة في العقود الأخيرة من عمرها. لذلك ما إن هَبَّت رياح الثورة العربية حتى امتطاها جميع العرب، فكلهم يحملون نفس الهدف، حتى وإن كان بمساعدة بريطانيا، فأنت عندما تحتاج أو تقع في ورطة فأنت تقبل المساعدة حتى من عدوك!! المهم عندك أن تتخلص من الخصم أو العدو وبعدها لكل حادثة حديث. وهذا ما حصل. وفي المقاطع القادمة سوف يشاهد القارئ من انضم إلى الثورة حتى تكتمل عنده المنظومة.

ومن الذين فطنوا للمشكلة بوركهارت، حيث تحدث عنها قبل الثورة العربية بأكثر من مئة سنة (١٢٢٩هـ/ ١٨١٤م). ومع تحفظي على بعض ما قال إلا أنه في الجملة لم يجانب الصواب، حيث إنه من أكثر الرحَّالة إنصافاً. يقول بوركهارت متحدثاً عن عرب شبه الجزيرة العربية[١]: **إن عرب شبه الجزيرة العربية أمّة أبيّة شجاعة، وهذا ينطبق حتى على سكان المدن، وذلك مهما كان فساد الشخصية الحقيقية للبدوي بين هذا العِرْق المنحطّ. فهم يحتقرون كل أمّة لا تتكلم اللغة العربية أو تختلف عنهم في أسلوب عيشها. إلى جانب ذلك، فقد اعتادوا لسنوات عديدة أن ينظروا إلى الأتراك كشعب أدنى مرتبة كلما دخل إلى الحجاز كان يرهب بسلطة الشريف.**

إن الطقوس والشعائر الصارمة في البلاط التركي لم تكن تناسب الرعايا الجدد لمحمد علي ولا مفاهيمهم الراسخة. فالشريف، في أعلى

---

(١) رحلات إلى شبه الجزيرة العربية، بوركهارت، ص٥٠.

سلطته، كان يشبه شيخاً بدوياً كبيراً يرضى بأن يُخاطب بطريقة وقحة وأحياناً قاسية. أما الباشا التركي فكان يخاطب بأكثر أشكال العبودية إذلالاً. وقد روى لي أحد كبار تجار الحجاز: «أن الشريف غالباً، كان كلما أراد قرضاً مالياً يرسل في طلب ثلاثة أو أربعة منّا، وكنا نبدأ محادثات مغلقة معه لبضع ساعات وكنا أحياناً نتشاجر عالياً حيث كنا دائماً نخفض المبلغ إلى أقل بكثير مما طُلب في البداية. وحين كنا نذهب في أعمال اعتيادية إليه كنا نكلمه كما أكلمك الآن، إلا أن الباشا كان يُبقينا واقفين أمامه بشكل مذل كالكثير من العبيد الحبشيين، وكان ينظر إلينا بنظرة متعالية كما لو كنا كائنات وضيعة حقيرة». ثم ختم قائلاً: «إنه يفضّل أن يدفع غرامة للشريف على أن يحصل على معروف من الباشا».

إن المعرفة القليلة البسيطة التي يملكها الأتراك للغة العربية ولفظهم السيء لها حتى وهم يتلون آيات من القرآن، وجهلهم لشبه الجزيرة وخصوصياتها التي ينتهكونها في كل فعل يقومون به، كلها أسباب عديدة إضافية لجعلهم مكروهين ومحتقرين في نظر العرب. ويبادلهم الأتراك ذلك الشعور بنسبة الازدراء والكُرْه نفسها. فإن كل من لا يتكلم لغة الجندي التركي أو لا يرتدي زيّه، يعتبرونه فلّاحاً أو ريفياً ساذجاً وهي عبارة اعتادوا أن يطلقوها على الفلاحين المصريين كونهم كائنات يعيشون تحت أدنى حالة من العبودية والقمع. أما كرههم للعِرْق العربي فأكبر بكثير لأن هذا العِرْق لا يمكنه أن يتساهل مع تصرفاتهم الاستبدادية وتمريرها بلا عقوبة، كما اعتادوا في مصر، فهم مقتنعون بأن العربي إذا ما ضُرِبَ فإنه سيضرِبُ مرة أخرى. ويتهم العربُ الأتراكَ خاصة بالغدر والخيانة حين قبضوا على الشريف (غالب بن مساعد) وأرسلوه إلى تركيا بعد أن أعلن موالاته للباشا، وسمحوا للجيوش التركية باحتلال جُدَّة ومكَّة وهم، كما يؤكدون، ما كانوا

ليُحرزوا تقدّماً أبداً في شبه الجزيرة دون مساعدة الشريف، أو أن يحصلوا حتى على موطئ قدم هنا. اهـ.

أما قول لورانس عن الأمير النُّوْرِي: **إلا أنه لم يكن أفضلهم، ولم يكن ذا باع في الحرب.** فوجهة نظر غير مقبولة. فمن يعرف تاريخ الأمير النُّوْرِي، يعرف شجاعته ودهاءه وحنكته على مدى الأربعين سنة التي حكم فيها. وقد مر معنا كلام الرحَّالة موسيل عن الأمير النُّوْرِي، وكيف تلقى العدو عندما أغار على مضارب قبيلة الرُّوَلَة.

وفي ص٣٠٦ يصف مسيرهم إلى وادي السِّرْحَان فقال: **واستمر مسيرنا وطيداً، فقد وجدنا مضارب الحُوَيْطَات، وكان رجالنا في حالة معنوية ممتازة، ولدينا ذَهَبُنَا ومتفجراتنا بحالة جيدة، لذلك فقد عقدنا بسرور في الصباح مجلس عمل. وكان هناك اتفاق على أنه يجب أن نقدم أولاً ستة آلاف جنيه ذهب إلى نُورِي الشِّعْلان. فقد أردنا منه، أن يمنحنا حرية المكوث هناك ريثما نقوم بتجنيد وإعداد مقاتلينا، وعندما نتحرك ونغادر، أردنا منه أن يعتني بعائلاتهم ومضاربهم وقطعانهم.** اهـ.

لو كانت الأموال تمثل شيئاً عند الأمير النُّوْرِي لوقف مع الدولة العثمانية، عندما كان يدفع له جمال باشا السفاح ٢٠ ألف ليرة شهرياً؛ حتى يشترك معهم في تحرير السُّوَيْس ومصر من الاحتلال الإنكليزي. لكن هو البُغض الذي زرعته الدولة العثمانية في قلوب العرب، والذي ما إن هَبَّت رياح الثورة العربية حتى امتطاها الجميع، فقد أبغضوها إلى درجة أنهم تحالفوا مع الإنكليز ضدها، وهي القدوة - وأعني بها الدولة العثمانية - فحليفتهم ألمانيا وبعض دول أوروبا الشرقية. والتحالف مع الإنجليز ليس مشكلة بحد ذاته، بقدر ما هو من أجل التخلص من الظلم والجور الذي يمارسه الباشوات، عندما كانوا يتولون البلاد العربية.

Scanned with CamScanner

وفي نفس السياق ص٣٠٦ قال: **وكانت هناك أمور ومهام كبيرة. فقد تقرر أن يقوم عَوْدَة أبو تايه نفسه بالمسير إلى نُوْرِي الشّعْلان كمبعوث لهذه المهمة، لأنهما كانا أصدقاء، حيث كان نُوْرِي يقيم قريباً جداً من هناك، كما أن قبيلته كانت كبيرة جداً، ولا يقوى عَوْدَة على محاربتها. ووفقاً لذلك، فإن المصلحة الذاتية قد دفعت الرجلان الكبيران لعقد حلف بينهما، وسيشرح عَوْدَة لنُوْرِي ما كنا نسعى إليه، من رغبة فيصل بأن يبقى على المظهر العام، أي بشكل ظاهري، على التزامه مع تركيا. ليمكنه فقط من تغطيتنا، ولخداع الأتراك من أنه ملتزم بتحالفه معهم.** اهـ.

لا بد أن يكون المبعوث شخصاً رفيع المستوى مثل الشيخ الفارس عَوْدَة بن حرب أبو تايه؛ فهذا الأمير النُّوْرِي سلطان البادية وسلطان شمال الجزيرة العربية، ولأن المسألة مصيرية، ولا تقبل أنصاف الحلول، لا بد أن تكون واضحة للجميع.

وعَوْدَة أبو تايه كان حليفاً للرُّوَلَة، بخلاف ابن جَازِي الذي كان على خصومة مع الرُّوَلَة، ومع ابن عمه عَوْدَة أبو تايه.

وفي ص٣١٨ يتحدث لورانس عن الوعود البريطانية، ويعترف بأنها مجرد كذبة نسجت من الخيال الواسع، وأن العرب قد اكتشفوا المؤامرة فقال: **كانت هناك وعود من قبل الحكومة البريطانية، ممثلة بالسير هنري مكماهون للشريف حسين، بأن تقوم بتأييد إنشاء حكومات وطنية محلية في سوريا والعراق، إلا أنه كان هناك اتفاق سري ما بين انجلترا وفرنسا على وضع بعض من هذه المناطق ضمن نفوذها، ووضع ما تبقى من سوريا والعراق تحت الانتداب. ووصلت الإشاعات إلى أسماع العرب، من خلال تركيا. ففي الشرق فإن الأشخاص يوثق بهم أكثر من المؤسسات. لذلك فإن العرب أرادوا أن يختبروا صداقتي وإخلاصي ويضعونها تحت المحك، فطلبوا مني بصفتي عميلاً حُرّاً، بأن أسعى لتحقيق الوعود**

البريطانية. ولم يكن لدي أي معرفة أو علم مسبق بتعهدات مكماهون ومعاهدة (سايكس - بيكو)، التي صيغت خلال الحرب في أروقة وزارة الخارجية البريطانية. بيد أنني لم أكن غبياً تماماً، فقد أمكنني أن أرى بأنه إذا ما كسبنا الحرب فإن كافة الوعود للعرب ستكون حبراً على ورق. ولو كنت مستشاراً مخلصاً لكان علي أن أرسل رجالي إلى بيوتهم، ولا أدعهم يخاطرون بحياتهم. ومع ذلك فإن الطموحات والتطلعات العربية كانت تمثل أداتنا الرئيسة في كسب الحرب على الجبهة الشرقية. ومع ذلك فقد أكّدت لهم - أي العرب - بأن بريطانيا ستحافظ على وعودها نصاً وروحاً. وعليه فقد ارتاحوا لذلك وقاموا بآداء جهد كبير، ولكن، طبعاً، فبدلاً من أن نكون فخورين معا بما قمنا به، فقد كنت خجلاً من نفسي بشكل مستمر ومرير.

وتوضح لي جانب من وضعي ذات ليلة، عندما أحضر لي الشيخ نُوْرِي الشّعْلان ملفاً يحتوي على وثائق كان يحتفظ بها في خيمته، وسألني: أي من التعهدات البريطانية يجب أن نُصدق؟! فمن خلال نبرته منتظراً جوابي، كان يكمن نجاح أو فشل الثورة. وكانت إجابتي أو نصيحتي - مع ما كان يتملكني من أسى فكري - بأن يثقوا بالوعود البريطانية بالرغم من التناقضات التي تشوبها. فهذه الإجابة الخادعة، قد أرقتني ورافقتني، خلال ستة أشهر، لأكون الرجل الموثوق الرئيس. لذلك فقد أصبحت مسؤولاً عما سيحدث فيما بعد، من تطورات ومتغيرات.

وكردَّة فعل على ذلك، فقد أخذت عهداً على نفسي بأن أجعل عجلة أو محرك الثورة يسير نحو النجاح العسكري أولاً، ومن ثم فيما بعد يمكن كسب المعركة السياسية في مجلس النواب البريطاني، (إلا أنه تكشف ذلك فيما بعد، في عام ١٣٣٩هـ/ ١٩٢١م، بعد أن أعلن ونستون تشرشل عن تسوية وضع الشرق الأوسط، وأعلن أن وعودنا

يمكن أن تنفذ نصاً وروحاً من الناحية الإنسانية، لكن من دون التضحية بأي مصلحة من مصالح الإمبراطورية البريطانية أو أية مصلحة من مصالح الشعوب المعنية، لذلك فقد خرجنا من مغامرة الحرب الشرقية، بأيد نظيفة، ولكن بعد ثلاث سنوات أخرى لنجني العرفان بالجميل، التي دفعت ثمنه الشعوب). اهـ.

أيّة وعود نفذت؟! وأيّة أيد نظيفة؟! للأسف فقد كانت ثمرة الثورة العربية قليلة إلى درجة أنها لم تشبع الشريف حسين وأبناؤه فما بالك ببقية العرب. فقد انتزعت فلسطين وأعطيت لليهود، فأعطى مَنْ لا يملك مَنْ لا يستحق. وبقية بلاد الشام سُلِّمت لفرنسا، بناء على الاتفاقية، والخليج العربي واقع منذ بدايات القرن (١٤) الهجري الـ (٢٠) الميلادي تحت الانتداب البريطاني، وما تركوه إلا في عام ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م. وشمال أفريقيا بيد الاحتلال الفرنسي ما عدا ليبيا، فقد كانت من نصيب إيطاليا، ومصر وقبل أن تسقط الملكية كانت تحت الانتداب البريطاني.. والحديث طويل عن ثمرات الثورة العربية، وأنها لا شيء أمام التضحيات التي قُدِّمت. لكن العرب حقيقة كانوا معذورين، فهم قد قدموا ما يستطيعون في سبيل الحصول على الحرية؛ حتى وإن كان مصيرهم قد حدده غيرهم. وهذا حال الدنيا، فكثير من الثورات تكون مبادؤها واضحة نقية، والقائمون عليها رجال مخلصون؛ لكن من يقطف الثمرة غيرهم، وهو من يحدد مصير الوطن، وخير مثال على ذلك الثورة الجزائرية على الاحتلال الفرنسي عام ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م، والتي بسببها نالت الجزائر استقلالها.

وفي ص٤٧٢ تحدث عن عادات بعض الناس في الأكل وتطرَّق في الحديث إلى قبيلة عنزة وعادتهم في إكرام الضيف فقال: **أما بالنسبة لقبائل عنزة القاطنة في أقصى الشمال فإن عاداتها أن تترك الضيف الغريب يأكل**

لوحده، وفي الظلام، ذلك حتى لا يكون خجلاً من قابليته وشهيته للطعام. اهـ.

يتحدث لورانس عن عادة كانت قبائل عنزة تطبقها في أيام البادية، وقد ذكر السبب الذي جعلهم يفعلون ذلك وهو المبالغة في إكرام الضيف. وقد تلاشت هذه العادات مع ظهور الدول الحديثة المعاصرة وأصبحت عادات أبناء القبائل شبه واحدة.

ومن عادات قبيلة عنزة التي كانت ولا زالت أن من يجلس مع الضيف على الطعام ينبغي أن يكون من الرجال العقلاء، الذين يُسلّون الضيف في أثناء الأكل بالحديث الماتع الخفيف، وأن لا يُزاحم الضيف على الصحن، وإذا قام الضيف لا يجلس أحد بعده، والضيف عادة يُراعي الناس في الأكل، فلا يقوم حتى يفرغ الجميع من الطعام عندها يقوم فيقوم الناس معه.

وفي ص٥٠٦ تحدث لورانس عن كيفية إقناع الأمير النُّوْرِي بن هَزَّاع الشّعْلان في الانضمام إليهم، وذلك أن الثورة العربية قد وصلت إلى مرحلة متقدمة في الزمان والمكان فقال: **هطل المطر بغزارة، وأصبحت البلاد مشبعة بالماء والنداوة. وأخفق (اللنبي) بسبب سوء الأحوال الجوية، ولم يكن هناك تقدم كبير في العمليات العسكرية تلك السنة. ومع ذلك ومن أجل مصلحة التقدم فقد عزمنا على الذهاب إلى الأَزْرَق. حيث ستكون بشكل جزئي قاعدتنا الانطلاقية، فمنها سننشر تحركنا ونوسعه في الشمال، وستكون جزئياً مركزاً لاستخباراتنا، ومنها سنفصل نُوْرِي الشّعْلان ونعزله عن الأتراك. فقد كان متردداً بإعلان الانضمام إلينا وذلك بسبب ثروته في سورية، واحتمال التسبب في أذى رجال قبيلته إذا ما حُرموا من سوقهم الطبيعي هناك. ونحن عندما نقيم في أحد قصوره الرئيسة فإننا سنجعله خجلاً من الاتصال مع العدو أو الانضمام إليه. وشكلت الأَزْرَق شيئاً**

Scanned with CamScanner

محبباً لنا، فيمكن أن تصبح قلعتها أو حصنها القديم كمقر قيادة ملائم إذا ما جعلناه صالحاً للإقامة، مهما كان أمر فصل الشتاء الشديد. اهـ.

الأتراك كانوا خصوماً؛ لكنها المصالح المشتركة التي جمعت الإنكليز بالعرب، وجعلت كلا الطرفين يحاول أن يستفيد من الثاني. وقدر الله وما شاء فعل.

وموقف الأمير النُّوْرِي بن هَزَّاع الشِّعْلان تقتضيه المصلحة العامة لإمارته وقبيلته، لكن عندما سنحت الفرصة ساعد الشريف فيصل بن الحسين، وكان له دور لا ينكر في انتصار الثورة العربية، وتقدمها في الزمان والمكان، والتاريخ يعرفه الجميع يضاف إلى ما كتبه لورانس نفسه في أعمدة الحكمة السبعة.

وفي ص٦٩٢ يتحدث لورانس عن مرحلة متقدمة من الثورة العربية فقال: **وبالنسبة للقوات الداعمة لنا، فقد كان رجالي أول من وصل، قاطعين وادي السِّرْحَان في التاسع من أيلول، سعداء، وأَسْمَن من جِمالهم، ومرتاحين ومسرورين بعد قضائهم شهراً في ضيافة قبيلة الرُّوَلَة. وأفادوا بأن الشيخ نُوْرِي الشِّعْلان كان مستعداً تقريباً، وأنه مصمم على الانضمام إلينا. وقد أثار هذا الخبر، في انضمام قبيلة جديدة لنا، ابتهاجنا وسرورنا جميعاً.** اهـ.

يشير لورانس إلى كرم قبيلة الرُّوَلَة من طرف خفي، حيث أكرموا جنود الثورة العربية. وقد نقلوا لهم خبر القرار النهائي الذي اتخذه الأمير النُّوْرِي في الانضمام إليهم، ومن حقهم أن يفرحوا بهذا الخبر، فوقوف الأمير النُّوْرِي قد جعل الثورة تصل إلى مرحلة الحسم، وإلى النهاية المنشودة. ولله الأمر من قبل ومن بعد.

وفي نفس السياق ص٦٩٣ قال: **وفي اليوم التالي (١٢ أيلول) وصل**

Scanned with CamScanner

الأمير فيصل، وتبعته كافة قوات الجيش العربي ومعها نُوْرِي السعيد، وجميل المدفعي وبيساني. وأصبح هناك ألفان من الهجّانة، إضافة إلى الطائرات. وعند العصر ظهر نُوْرِي الشّعْلان، وكان معه كل من طِرَاد وخالد وفارس ودِرْزِي والخَفَاجِي. ووصل عَوْدَة أبو تايه ومعه محمد الدَّحَيْلان، ووصل - أيضاً - كل من فهد وأدهب، وشيوخ الزَّبِن، ومعهم ابن هاني وشيخ السَّرَاحِيْن، وابن كينج شيخ السَّرْدِيَّة. ووصل ماجد بن سلطان، من عشيرة العَدْوَان بالقرب من السَّلْط (البَلْقَاء)، ليستعلم حقيقة هجومنا على عَمَّان. وفيما بعد في المساء كان هناك إطلاق نار صادر من جهة الشمال، حيث كان ذلك صادر من قبل طلال الحريدين، صديقي القديم، جاء قادماً وخلفه حوالي خمسين قروياً ممتطين الدواب. وكان وجهه مشرقاً بالفرح بعد أمله الطويل بالوصول إلينا. وكان الدُّرُوْز أبناء القُرى والبلدات السورية، العيساوية والحوارنة يتباهون ويفتخرون بمرافقته، وحتى ان كميات الشعير من أجل عودتنا وانسحابنا إذا ما فشلت المغامرة أو الخطة - وهي احتمالية نادراً ما فكرنا بها - بدأت بالوصول تباعاً. وكل واحد كان قوياً ومتيناً في كامل صحته. باستثنائي أنا. فهذا الازدحام قد أفسد سروري في الأَزْرَق، فذهبت أسفلاً إلى الوادي، إلى مكاني المنعزل في عين الأسد، واستلقيت هناك طيلة النهار في ملجأي وعريني القديم. اهـ.

إلى أن قال في ص٦٩٦ : تحرك رتلنا عند الفجر تماماً، وكان من بينها الفرقة العسكرية الموجودة في أبي اللسان، وثلاثة آلاف من فرسان نُوْرِي الشّعْلان البدو وكان لديه ألفان من هَجَّانة الرُّوَلَة، وهؤلاء طلبنا منه أن يبقيهم في وادي السِّرْحَان. وبدا ذلك أمر غير حكيم، قبل يوم الحسم، لنقوم بتوزيع العديد من قوات البدو بين قُرى حَوْرَان فقد كان الفرسان من الشيوخ أو من خدم الشيوخ، رجال أشداء تحت السيطرة. اهـ.

بحسب رواية لورانس فإن مجموع عدد الرُّوَلَة المشاركين في الثورة العربية خمسة آلاف. وقياداتهم هي الأسماء التي وردت في ثنايا حديثه السابق. والذي سوف نقدم نبذة عن كل واحد منهم. وهي منقولة من كتابي: قبيلة الرُّوَلَة في التاريخ.

طِرَاد: هو الشيخ طِرَاد بن الأمير سَطَّام باشا بن حَمَد الشَّعْلان، أحد قادة وفرسان الثورة العربية، تحت زعامة الأمير النُّوْرِي. وقد أعقب الشيخ طِرَاد عدداً من الأبناء وهم: أُوْرَنَس ومحمد وطلال.

خالد: هو الشيخ خالد بن الأمير سَطَّام باشا بن حَمَد الشَّعْلان، كأخيه طِرَاد فارس لا يشق له غبار، وأحد قادة وفرسان الثورة العربية.

فارس: هو الشيخ فارس بن الأمير فهد بن هَزَّاع الشَّعْلان، حاول أن يتولى الإمارة بعد مقتل والده؛ إلا أن عمه الأمير النُّوْرِي قد أحكم سيطرته على الإمارة، فغضب فارس من الذي حصل؛ لكنه في النهاية رضي بالواقع، وتم الصلح بينه وبين عمه، وهذا ما يفسر وجوده من ضمن قيادات الرُّوَلَة المشاركة في العمليات العسكرية ضد الأتراك.

دِرْزِي: هو الشيخ دِرْزِي بن كُرَيِّم بن دِغْمِي، شيخ عشيرة الدُّغْمَان من الرُّوَلَة، وأحد فرسان الرُّوَلَة المعروفين، وأحد قادة الثورة العربية.

الخَفَاجِي: هو الشيخ الخَفَاجِي بن الأمير النُّوْرِي الشَّعْلان.

وفي ص٧٣٧ يصف الأمير النُّوْرِي فقال: **إن الأمير نُوْرِي الشَّعْلان، الرجل الهادئ والصلب، كان يسيطر على قبيلته تماماً كمثل آلة بيده. كان نادراً من وجود مثله في الصحراء، كرجل ليس لديه إحساس بالجدال. فعندما كان الآخرون ينهون كلامهم، كان يعلن رغبته ببضعة عبارات، وينتظر بهدوء طاعته؛ الذي يأتي دونما تأخير، حيث أنه كان مهيباً. كان كبيراً في السن وحكيماً.** اهـ.

Scanned with CamScanner

هنا الكاتب يتناقض مع نفسه، حيث مدحه هنا مدحاً ينسخ ما سبق ويمحوه. ولعل ما سبق قد كتبه قبل أن يعرف الأمير النُّوْرِي معرفة دقيقة، وهذه أخطاء يقع فيها الكثير من الكُتَّاب؛ بينما الواجب أن يخرج الرأي أو وجهة النظر بناء على معرفة دقيقة لكافة جوانب المراد التحدث عنه، وفي النهاية على الكاتب أن يُعقِّب بأن هذا ما يتوفر لديه من معلومات، وأن هذا هو اجتهاده، والله أعلم بالصواب.

وفي ص٧٤٤ يصف عمليات القتال شبه النهائية ضد الأتراك في جنوب سوريا فقال: **تقدمنا كل من الشريف ناصر، ونُوْرِي الشّعْلان وطلال وأنا في الظلام. وزحفت قواتنا المشتركة باتجاه الشمال عبر الأراضي المزروعة، والقُرى الغنية السعيدة. فوق الحقول المحصودة، والتي حصدت وكومت محاصيلها.**

وقال: **كان الرجال يَرِدون إلينا من كل صوب في كل دقيقة لينضموا إلينا، ومن كل قرية يسارع المغامرون الشبان على أقدامهم لينضموا إلى قواتنا.**

وقال: **وبوضوح فإن رجوعنا قد فاجأ العدو المترنِّح، وكان علينا أن نستغل ونوسع هذه الفرصة. لذلك فقد ذهبنا إلى كل من نُوْرِي الشّعْلان، وعَوْدَة أبو تايه، وطلال، وطلبنا منهم بأن يقوموا ويباشروا كل منهم بجهد محلي. فتولى طلال مهاجمة «إزْرَع»، والتي كانت تعتبر مخزناً كبيراً للغلال في الشمال، وتولى عَوْدَة «خَرْبَة الغَزَالَة»، التي كان يوجد بها محطة للاتصالات مع الجنوب، وأن يقود نُوْرِي الشّعْلان رجاله إلى الطريق الرئيس، باتجاه «دَرْعَا»؛ لتصيد ومواجهة المجموعات التركية هناك.**

كانت هذه ثلاث أفكار أو خطط جيدة. وذهب الشيوخ لتنفيذ ذلك، في حين سحبنا رتلنا ثانية، وتابعنا طريقنا لنجتاز قرية شيخ مسكين المدمرة،

والتي بدت هزيلة جداً تحت ضوء القمر. وقد أعاقت حفرها المائية الطينية رتلنا، مما جعلنا نتوقف عند السهل الصلب خلفها، لحين طلوع الفجر. وقام البعض بإشعال النيران لتقاوم ذلك الضباب المتركز في هذه المنطقة الطينية لحوران، ونام آخرون من جَرَّاء تعب وإرهاق الرحلة. واختفى القمر، وأصبحت المنطقة في ظلام دامس والطقس بارد جداً.

انهضت رجالي، لنتجه إلى «شيخ سعد» وندخلها مع الفجر. وبينما كنا نجتاز بين الصخور إلى حقل يقع خلف الأشجار، بزغ ضوء الفجر ثانية ومعه ضوء جديد للشمس. وشعت شمس الصباح فوق حقول شجر الزيتون لتبدو برونزية اللون، ودعانا رجال كانوا يتواجدون في بيت شعر كبير على جهة اليمين لأن نستضيف عندهم. وسألنا لمن تكون تلك المضارب؟ فأجابوا: بأنها لابن سْمَيْر. وكان ذلك سيثير التعقيدات! وكان عدواً لنُوْرِي الشّعْلان، ولم تسوى الأمور بينهما بعد، وقد شاء الله ذلك. وفي الحال أرسلنا تحذيراً إلى الشريف ناصر. ولحسن الحظ فإن ابن سْمَيْر كان غائباً؛ لذلك فإن عشيرته ستكون ضيفة مؤقتة علينا، وأن نُوْرِي الشّعْلان سيكون كمضيف، متبعاً العادات والتقاليد.

كان ذلك مريحاً لنا، ذلك أنه قد أصبح في صفوفنا الآن مئات من الأعداء السابقين، وقد توقفت وعلقت عداءاتهم بحكمة فيصل. وبعد ذلك عادت مجموعات الإغارة الليلية، ومعها أخبار مثيرة. فقرية إِزْرَع كانت احتلت من قبل عبد القادر الجزائري وأتباعه، ومعهم بعض المتطوعين والقوات. وعندما قدم طلال إليها انضم إليه المتطوعين، وفرَّت القوات التركية، وكان أتباع عبد القادر قلة ضئيلة تخلوا عنها دون قتال. وألقى رجالنا القبض عليه وغنموا غنائم كبيرة وقدم عَوْدَة مزهواً. فقد استولى على خَرْبَة الغَزَالَة بهجوم عاصف، مستولياً على قطار مهجور، وعلى مدافع، وأسر مائتي رجل، كان من بينهم ألمان. وأفاد نُوْرِي الشّعْلان بأنه قد

أسر أربعمائة تُركي وغنم البِغَال والمدافع الرشاشة. وتم إرسال طوابير الأتراك إلى القُرى النائية، من أجل كسب معيشتهم. وحلقت طائرة إنجليزية فوقنا في عدة جولات، وكأنها تتساءل فيما إذا كنا قوة عربية أم لا؟! وقام يونغ بعمل إشارات أرضية، فقامت الطائرة بإسقاط رسالة تقول أن بلغاريا قد استسلمت للحلفاء. ولم نكن نعرف بأنه كان هناك هجوماً في بلغارياً، لذلك فإن هذه الأخبار لم تكن مهمة بالنسبة لنا. ودون شك فإن النهاية، لم تكن نهاية الحرب العظمى، بالنسبة لنا، وإنما حربنا نحن التي كانت أوشكت على الانتهاء. إنه جهد حاد، وإن محاولتنا ستنتهي وكل واحد سيعود إلى شؤونه الخاصة، حيث إنه بالنسبة لمعظمنا فإنها كانت أول حرب، ونتطلع لنهايتها من أجل الراحة والسلام.

وصل الجيش. وأصبحت البساتين مزدحمة بالجنود إذ أن كل كتيبة اختارت أفضل مكان خال وحطت رحالها فيه، سواء بجانب أشجار التين أو تحت أشجار النخيل، أو أشجار الزيتون، والتي خرجت واندفعت منها الطيور في موجات مذعورة، وهي تزقزق بشكل كثيف. وأخذ رجالنا دوابهم ومطاياهم إلى جدول الماء من خلال الأشجار الخضراء والأزهار وأشجار الفاكهة، فهذه الأشياء كانت غريبة علينا خلال سنوات تجوالنا في الصحراء القاسية.

وجاء أهالي قرية شيخ سعد بخجل ليروا جيش الأمير فيصل، الذي كانوا سمعوا عنه أشياء أسطورية، وهو يحط الآن في قريتهم، يقوده رجال ذوي أسماء ضخمة: طلال، ناصر، نُوْرِي، عَوْدَة، وبادلناهم الدهشة، في حسد خفي على حياتهم الريفية تلك. وبينما كان الرجال يستريحون من سروجهم، ذهبنا خمسة أو ستة رجال لنستطلع من فوق الأطلال، ولننظر عبر السهل الجنوبي ولنرى الإجراء الدفاعي الذي أعد لنا، ولشدة دهشتنا فقد رأينا سرية صغيرة من الجنود النظاميين: أتراك، ونمساويين، وألمان.

Scanned with CamScanner

ومعهم ثمانية مدافع رشاشة محملة على الدواب. وكانوا قادمين من جهة الجليل باتجاه دمشق بعد هزيمتهم من قبل جيش اللنبي، وكانوا يائسين، إلا أنهم سائرين براحة، يظنون أنفسهم بأنهم كانوا بعيدين عن دائرة الحرب أو الخطر. ولم نشأ أن نعطي تحذيراً لقواتنا التعبة؛ وإنما تحرك نحوهم دِرْزِي بن دِغْمِي وآخرون بهدوء وانقضوا عليهم من ممر ضيق، فأظهر ضباطهم رغبة في القتال، فقتلوا على الفور، أما الجنود فقد رموا أسلحتهم على الأرض، وقام رجالنا بتفتيشهم وسيقوا على طول الممرات المائية بين البساتين إلى زريبة مفتوحة بدت ملائمة لأسرانا. لقد أظهرت قرية الشيخ سعد نتيجة سريعة وجيدة. اهـ.

أما قول لورانس أن هناك خلافاً أو عداوة بين ابن شِعْلان وابن سمَيْر!! فكلام غير صحيح، أو غير دقيق، حيث انتهت المشاكل والخصومات بين الرُّوَلَة ووُلْد علي والكل من عنزة في عهد الأمير سَطَّام باشا بن حَمَد الشِّعْلان رحمه الله، في حدود عام ١٣٠٠هـ/ ١٨٨٣م.

ثم تحدث لورانس عن ميدان المعركة بشيء من التفصيل، وذكر الجيش التركي المنسحب من أمام الجيش الإنجليزي فقال: **بدا لي بأن الستة آلاف تركي أولئك كانوا كل ما تبقى من الجيش التركي الرابع، من دَرْعَا، والجيش السابع، الذي أعاق تقدم قوات بارو. وبتدميرهما (تدمير هذين الجيشين) فسننهي مهمتنا وغرضنا هنا. ومع ذلك، فقد عرفنا بأنه كان ينبغي علينا الاحتفاظ بقرية الشيخ سعد. وهكذا فإننا أسندنا مهمة الإغارة على مؤخرة وجوانب الرتل التركي المنسحب الأكبر، بعد أن ندعه يمر، للفارس خالد ورجاله من قبيلة الرُّوَلَة وبعض القرويين الشماليين. اهـ.**

وفي ص٧٥٠ وما بعدها تحدث لورانس عن المآسي والمجازر التي

Scanned with CamScanner

ارتكبها الجيش التركي في قرية (طَفَس) جنوب سوريا ولا ندري عن مدى صدقه من كذبه.

وفي نفس السياق ص٧٥٣ قال: **أخيراً وجدت خالد، وطلبت منه استدعاء رجال قبيلة الرُّوَلَة وترك هذا الطريق للزمن وللقرويين ليتولوا أمره. فالعمل الأثقل، ربما يكمن في الاتجاه الجنوبي. وعند الغسق وردتنا شائعات عبر السهل تقول: بأن دَرْعَا أصبحت فارغة، فسار طِرَاد، شقيق خالد، ومعه بعض الرجال من قبيلة عنزة.** اهـ.

بما أنه قد مَيَّز هؤلاء الرجال بأنهم من قبيلة عنزة، فيحتمل أنهم من فرسان قبيلة وُلْد علي.

ولخشية لورانس من هجوم مضاد قال: **فأردت من خالد أن يساند شقيقه. وبعد ساعة أو ساعتين، زحف المئات من الفرسان والهجَّانة لمساندة طِرَاد. فوصلوا إلى هناك ليجدوا طِرَاد ورجاله في وضع آمن. فقد تم لهم اقتحام المنطقة مع الغروب، والاستيلاء على محطة السكة الحديد هناك، وقاموا بتطهير الاستحكامات والخنادق من بقايا الأتراك التي حاولت المقاومة. وقام رجال الرُّوَلَة بمساعدة الأهالي باغتنام ما في المعسكر التركي.** اهـ.

وفي أثناء مسيرهم إلى دمشق قال في ص٧٦٠: **ولن تكون هناك أية أزمات أو مشاكل لغاية ما نصل الكسوة، حيث سنلاقي هناك شوفيل وقواته، وحيث إن خط حديد الحجاز قد دنا واقترب من طريقنا، وكان على خط السكة الحديد كل من الشريف ناصر ونُورِي الشَّعْلان، وعَوْدَة أبو تايه، ومعهم رجال قبائلهم، الذين كان عددهم أكثر من أربعة آلاف رجل. وكانوا قد قاتلوا دون انقطاع في كل أوقات راحتنا وطمأنينتنا.**

وما أن بدأنا بمتابعة سيرنا حتى سمعنا صوت إطلاق نار، فرأينا مدفعاً

تركياً من خلف مرتفع يقع على يميننا، حيث كان خط السكة الحديد، وسرعان ما ظهرت مقدمة رتل تركي مكون من ألفي رجل، وهم في مجموعات هائجة، يتوقفون هنا وهناك لإطلاق القذائف من مدافعهم الجبلية. وأسرعنا لنلحق بملاحقيهم، فسيارتنا الرولز كانت رائعة في سيرها على الطريق المفتوح. وقدم بعض الفرسان العرب يدبون من خلف الأتراك نحونا، فأدركنا أنه كان الشريف ناصر وهو على ظهر فرس رائع عدوه، وكان هناك - أيضاً - نُوْرِي الشّعْلان ومعهم حوالي ثلاثين من رجالهم. وقالوا لنا بأن هؤلاء الأتراك هم كل ما تبقى من سبعة آلاف تركي. وقام رجال الرُّوَلَة بالانقضاض على جناحي الرتل التركي، في حين توجه عَوْدَة أبو تايه من وراء جبل منيعة ليقوم بجمع رجال وُلْد علي ويكمن هناك لمفاجئة هذا الرتل. اهـ.

إلى أن قال: **وما إن حَلَّ الليل حتى رأينا انهيار قوة الأتراك، الذين تخلوا عن مدافعهم، ووسائل نقلهم وكافة مؤونتهم وفروا باتجاه ممر ضيق بين جبلين، ظانين بأنه كانت هناك أرض فارغة تقع خلفهم. بيد أنه في تلك الأرض الفارغة كان يتواجد هناك عَوْدَة أبو تايه مع رجاله. ودارت معركة طيلة تلك الليلة. وقام الرجل الكبير بقتل عدد كبير من الأعداء، وغنم وأسر العديد منهم لغاية مطلع الفجر. وانتهى هناك الجيش التركي الرابع، الذي كان سداً منيعا منذ سنتين. اهـ.**

إنا لله وإنا إليه راجعون. هذا الجيش المسلم كان سدًا منيعًا منذ سنتين أمام الإنكليز، وبعد أن أزاحوه من طريقهم منحوا اليهود فلسطين، وهم كما قيل: أعطى مَنْ لا يملك مَنْ لا يستحق. وهذه هي نتيجة الظلم والإقصاء للعرب، يوم أن كان الأتراك يحكمون العرب بالإسلام، كان العرب خير جنود لهم، ويوم أن تخلوا عن الإسلام، وصاروا يمارسون الظلم والطغيان تجاه العرب وغير العرب اتفقوا مع

Scanned with CamScanner

بريطانيا ضدهم، ليتخلصوا من هذا الظلم، ولا حول ولا قوة إلا بالله. ولله الأمر من قبل ومن بعد.

وفي ص٧٦٤ قال لورانس: **انتهت حربنا. ومع ذلك فقد نمنا تلك الليلة في الكُسْوَة، إذ أن العرب قالوا لنا بأن المسير على الطرق كان خطراً، ولم تكن لدينا رغبة بالموت بطريقة غبية في الظلام وعند مدخل دمشق.** اهـ.

انتهت الحرب بدخول القوات العربية إلى دمشق، وكان للأمير النُّوْرِي بن هَزَّاع الشّعْلان ورجاله دور بارز في حفظ الأمن والنظام داخل دمشق بعد رحيل القوات التركية عنها. وشُكِّلَت الحكومة العربية، وسقطت بعد سنتين تقريبًا في معركة مَيْسَلُوْن عام ١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م، مع القوات الفرنسية. وسبب اجتياح فرنسا لسوريا ولبنان هو اتفاقية (سايس - بيكو)، وهي ترى أن هذين البلدين من حقها؛ بناء على هذه الاتفاقية في تقاسم تَرِكَة الرجل المريض، وهي الدولة العثمانية. وأول من أطلق عليها هذا الإسم هو قيصر روسيا نيقولا. ولله الأمر من قبل ومن بعد.

الرحلة النَّجْدِيَّة الحِجَازِيَّة

صور من حياة البادية

١٣٣٨هـ/١٩٢٠م



اعتنى بها: تيسير خلف.

الناشر: التكوين للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، ٢٠٠٩م.

عدد الصفحات: ١٧٨ صفحة.

نبذة عن الرحَّالة:

هو الأستاذ محمد بَهْجَة البيطار الدمشقي. ولد سنة ١٣١١هـ/ ١٨٩٤م، ودرس في دمشق في المدارس وعلى أيدي المشايخ، تولى عدة وظائف، منها عضوية مجمع اللغة العربية بدمشق وبغداد، ودَرَّسَ في مدارس دمشق والحجاز، وصار عضواً في المحكمة الشرعية الكبرى بمكة، ونائباً لرئيس هيئة المراقبة القضائية، ومفتشاً للعلوم الدينية، ومدرساً للتوحيد، ثم عاد إلى دمشق ومنها إلى بيروت، ثم عاد إلى الحجاز سنة ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٩م وأسس ثانوية دار التوحيد بالطائف، والتي لا تزال قائمة، وتخرّج منها عدد كبير من الطلاب.

ومن أشهر تلاميذ البيطار: الشيخ الأديب علي الطنطاوي، والعالم المحقق الشيخ عبد القادر الأرناؤوط.

Scanned with CamScanner

توفي البيطار يوم السبت ٣٠/ ٥/ ١٣٩٦هـ الموافق ٢٨/ ٥/ ١٩٧٦م إثر مرض لم يمهله طويلاً رحمه الله.

ملخص الرحلة:

قام محمد البيطار برحلته هذه سنة ١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م، وكان قد خرج من دمشق متوجهاً إلى نَجْد ليوصل رسالة من الملك فيصل بن الحسين والسيد محمد رشيد رضا إلى أمير نَجْد (آنذاك) عبد العزيز آل سعود[١].

سار الأستاذ البيطار من دمشق بالقطار، وكان يرافقه صاحبه شلاش، وجرت عليه أحداث متنوعة، وسلب من قبل قطاع الطرق، ونزل ضيفاً على الشيخين سلطان ومِتْعِب أبناء صالح بن مُطْلَق الفقير، ولم يصل إلا إلى بلدة الحائط (فَدَك)[٢]، وكانت تتبع الأشراف في وقتها، وأميرها هو الشريف عبد المطلب بن غالب، وقد حذروه من مواصلة الطريق خوفاً عليه من المُتديِّنة، وهم (الإخوان). فكتب رسالة إلى الملك عبد العزيز

(١) اكتمل توحيد المملكة العربية السعودية وفق هذا التسلسل التاريخي: استرداد الرياض كان عام ١٣١٩هـ/ ١٩٠٢م، وفي عام ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م كانت نهاية إمارة أبا الخيل العنزي في بريدة وتم فيها ضم القصيم نهائياً، وفي عام ١٣٣١هـ/ ١٩١٣م تم ضم الاحساء وشرق الجزيرة العربية، وفي عام ١٣٤٠هـ/ ١٩٢٢م تم إسقاط إمارة ابن رشيد في حائل، وفي نهاية عام ١٣٤٠هـ/ ١٩٢٢م تم تسليم الجوف من قبل الأمير النُّورِي بن هَزَّاع الشِّعْلان، سلمها أمير الجوف سلطان بن نَوَّاف بن النُّورِي الشِّعْلان لمندوب الملك عبدالعزيز عَسَّاف الحسين، وابتداء من عام ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٥م تم ضم الحجاز وشمال غرب الجزيرة العربية، وعسير وجيزان وما حولها بعد هذا التاريخ بقليل. وفي عام ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م أصبح مسماها: المملكة العربية السعودية. ولله الحمد.

(٢) وبقربها قرية الحُوَيِّط واسمها القديم: يَدِيْع.

يوضح فيها وضعه وخوفه على نفسه، وأرسلها مع رفيقه شلاش مع الرسائل التي معه.

وبعد ذلك توجه إلى المدينة النبويَّة مع كبار أهل الحائط وهم: الشيخ مقبل، والشيخ خَلَف بن جابر، والشيخ علي بن سليمان، والخطيب الشيخ مبروك، ومعهم نحو (١٥) رجلاً، وعندما وصلوا المدينة قابل الأمير علي بن الحسين بن علي، وكان وقتها ولي العهد وحاكم المدينة النبويَّة[١].

مكث البيطار في المدينة بعض الوقت، ثم ركب القطار وذهب إلى دمشق، فوصلها يوم السبت ٢٨/ ٧/ ١٣٣٨هـ الموافق ١٧/ ٤/ ١٩٢٠م.

---

(١) علي بن الحسين بن علي بن محمد بن عبد المعين بن عون الهاشمي، آخر من سمي ملكاً في الحجاز من الهاشميين، كان اكبر أبناء أبيه، ولد بمكة عام ١٢٩٨هـ/ ١٨٨١م، وثار مع والده على العثمانيين عام ١٣٣٤هـ/ ١٩١٦م، وحاصر المدينة واستلمها من قائدها فخري باشا عام ١٣٣٧هـ/ ١٩١٩م، ثم جعله والده رئيساً لمجلس الوكلاء بمكة، وعهد إليه شؤون القبائل، وجرت عليه أمور، حتى سلَّم جُدَّة للملك عبد العزيز عام ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٥م، ورحل إلى العراق عند أخيه الملك فيصل بن الحسين بن علي ثم ابنه غازي إلى أن توفي هناك عام ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٥م رحمه الله.

Scanned with CamScanner

قبيلة عنزة
في رحلة البيطار



في يوم الأحد ١٦/ ٦/ ١٣٣٨هـ الموافق ٦/ ٣/ ١٩٢٠م. قال الأستاذ محمد بَهْجَة البيطار في ص٢٩: **تحرَّك بنا القطار (من تبوك) الساعة الثانية عشرة والدقيقة الخامسة والأربعين من صباح الأحد، ووصلنا الأخضر الساعة الثالثة، وقرأنا على حجر هناك أن السلطان سليم جدد بناء القلعة في شوال سنة ٩٣٨ (١٥٣٢م). وهي في غرب الأخضر. ووصلنا بحوله تعالى وحمده المُعَظَّم آخر حدود بني عَطِيَّة الساعة الخامسة صباحاً، ودخلنا في حدود عرب بِلي وشيخهم حَمَد أبو شَامَة فنسأل الله السلامة**. اهـ.

نزل الأستاذ محمد بَهْجَة البيطار من القطار في محطة دار الحمراء، ومنها إلى قبيلة الْفُقَرَا (الافْقَرَا) الوائلية وشيخها سلطان الفقير رحمه الله. قال الأستاذ البيطار: **وأقبل علينا هناك بدوي يرعى إبل عرب عنزة، فطفق قومنا يسألونه عن مواطن العرب، وهل هم في بعد عنا أو قرب، وقد عرفه «خَوِيِّنَا» حامد بن عبدالله، وبعد العناق والتقبيل، أخبره «خَوِيِّنَا» الخبر، وقص عليه القصص. ثم أرسل لنا الشيخ شلاش يقول: هنا نُلقي عصا التسيار، وننزل نحن ومتاعنا من القطار، فنزلنا وأنا ثالث الرفيقين شلاش وقريبه عبدالله، في هاتيك الأرض المترامية الأطراف القفراء. وودعنا الجنود وسائر الإخوان بالبكاء، وكل منا يدعو لصاحبه بالسلامة، وجرى القطار بهم**

قاصداً المدينة المنورة، واستأجر الشيخ شلاش من راعي الإبل جملاً لحمل أثقالنا إلى حضرة الشيخ سلطان الفقير العربي السنحي، شيخ عرب عنزة الذي هو على مسافة ثلاث ساعات من دار الحمراء، من جهة الشرق الشمالي، ودفع له أجرة جمله ليرة ذهباً، وزاده مجيديين إكراماً له، فطابت نفسه، وتهلل وجهه، وسقانا من حليب ناقته، ومشى الجمل أمامنا وجرينا نحن وراءه في جبال منفصلة بعضها عن بعض، على أشكال مختلفة، وهي ناصبة ماثلة مختلفة الحجوم، طلعها كأنه رؤوس الشياطين، ولكن حصباء تلك الأرض نقية جداً، وكأنها الدُّرُّ، بين أبيض وأحمر، وأسود وأخضر، وأرضها كلها ذات رمال بين هاتيك الجبال. ولم نزل نجد في سيرنا حتى بلغنا منزل الشيخ بعد الغروب، ومعنا رفيقنا حامد العنزي، فاستقبلنا الشيخ بالمصافحة، وللشيخ شلاش بالتقبيل والمعانقة، وسلامهم لطيف بسيط مشتمل على العناق والتقبيل، وينادي بعضهم بعضاً بالأسماء مجردة عن الكنى والألقاب، وقد سَلَّم أحد صبيانهم على حامد الشيخ الذي يناهز السبعين، بقوله كيف انت يا حامد، عساك طيِّب يا حامد. وفي نحو الساعة الثالثة ليلاً قدَّم لنا الشيخ الطعام من الرز واللحم، والطعام كان كثيراً جداً، وقد أكل منه من لا أحصيهم عَدَّاً، فحيَّا الله الكرم العربي.

وهذه القبيلة دَيِّنَة، وقد أدَّينا مع كثير منهم صلاة العشاء، وشيخهم سلطان الذي هو عميدهم يخاف من الله عز وجل، ويحب أهل العلم والفضل، وقد سُرَّ مني كثيراً، والتمسوا مني أن أكون عندهم خطيباً، على أن يقدم لي كل ما يلزم، ويعاملوني كما يعامل أهل العلم، ويزوجوني بنتاً من كرائم بناتهم، فشكرتُ فضلهم وشهامتهم، واعتذرتُ لهم بأني خطيب ومدرس في الشام، وبأن خطيبتي هناك قريبتي. وأقمنا عند الشيخ وفي ضيافته خمسة أيام، مشمولين بالخير والإنعام، وسررنا هناك بلقاء الشيخ محمد رميح التاجر النَّجدي، وكنا نكثر من التردد إلى خيمته، وكان يحبني

ويكرم وفادتي كل مرة، وأكثرت هناك من الوعظ والإرشاد، والدعوة إلى الإتحاد، ونزع الضغائن والأحقاد، وأبنتُ لهم سوء نيَّات الأجانب نحو المسلمين عامة، والعرب خاصة، فتحمسوا ودعوا بالنصر والفتح المبين، للإسلام والمسلمين.

سلَّمنا الشيخ محمد رميح مكتوباً ليوصله إلى أهلنا في الشام، وتركنا عند الشيخ سلطان صندوق الثياب ليبقى عنده أمانة إلى رجوعنا فنستلمه إن شاء الله. اهـ.

وفي يوم الجمعة ١٣٣٨/٦/٢٢هـ الموافق ١٩٢٠/٣/١٢م. قال الأستاذ البيطار في ص٣٣: وفي صباح هذا اليوم ودعنا الشيخ سلطان، ومعنا «خَوِيَّان» متجهين جهة الشرق، على ظهور الإبل، وعند الغروب وصلنا أرض أخيه مِتْعِب شيخ الإخوان الذين لا يشربون الدخان، وتناولنا طعام المساء عند الشيخ التيهي، وقد تبادلنا البحث في مسائل الإسلام والإيمان، وكيفية دعوة النبي عليه الصلاة والسلام، وحكم استعمال الدخان، والهجرة من أرض الكفر إلى أرض الإيمان، وامتدت المذاكرة بيننا إلى الساعة الثامنة ليلاً، وقد تفاهمنا في كل هذه الأبحاث، والشيخ مِتْعِب كان إذا رأى أن الصواب في جانبي يرجع إليه. وقد ودعناهم صباح السبت في ٢٣ جمادى الثانية ١٣٣٨هـ. اهـ.

وفي أثناء مسيرهم تعرضوا لعملية سطو حيث أغار عليهم ستة من الموالي (عبيد)، وكادوا أن يفتكوا بهم، إلا أنه قد حصل بينهم التعارف، فتركوهم، حيث يبدو أنهم من عبيد وُلْد علي من عنزة. وهذا الموقف أَثَّر في نفسية الأستاذ محمد البيطار جداً، وسبب له ألماً لا زال يذكره؛ بل إنه جعله لا يتجاوز بلدة الحائط (فَدَك)، فليس من رأى كمن سمع.

وفي يوم الأحد ١٣٣٨/٦/٢٤هـ الموافق ١٤/ ٣/ ١٩٢٠م. قال الأستاذ البيطار في ص٣٦: وفي صباح هذا اليوم ركبنا مع «خَوِيِّنَا» صالح ومعه خَوِي عنزي اسمه سليم، واختار السفر إلى نَجْد «خَوِيِّنَا» العنزي سلطان، سَمِّي شيخهم سلطان الفقير. وفي مساء اليوم وصلنا أرض الشيخ سعد ابن عم الشيخ سلطان، وبقينا في ضيافته ثلاثة أيام، ووجدنا قومه يقيمون الصلاة، ويسألون عن أحكام الزكاة كجماعة الشيخ سلطان، وهم يسألون عن حكم استعمال الدخان، ويذكرون تحريم المُتديِّنة له، وإحراقهم لشاربيه، وكانت دارت مذاكرة بيني وبين بعض محرميه من المُتديِّنة المعتدلين الذين لا يشربونه ولا يؤذون على شربه أحداً، ويعبدون الله لا يشركون به شيئاً. فذكر لي من دلائل تحريمه عنده كونه: من الإسراف، ومُسكراً من الخبائث. فذكرتُ له جواب مبيحيه، وهو أن الإسراف أمر نسبي غير محدد في الشريعة، وأن ما يكون إسرافاً في حق إنسان، يعد تقتيراً بالنسبة إلى آخر، فمن تحقق فيه معنى الإسراف بسبب شرب الدخان فذاك يحرم عليه.

وأما قياسه على الخمر في الإسكار فذاك قياس مع الفارق، والله تعالى يقول في الخمر: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة: ٩١]، والدخان لم يتحقق فيه وصف من هذه الأوصاف، فهو لم يوقع بين شاربيه ولا غيرهم العداوة والبغضاء، ولم يصد شاربيه عن ذكر الله ولا عن الصلاة؛ بل في شاربيه العلماء والصالحون، والقول بتحريمه قد أوقع بين المسلمين من العداوة والبغضاء أكثر من شربه. وأما كونه من الخبائث فهذا غير متفق عليه، وشاربوه لا يعدونه كذلك، على أنه لو ثبت خبثه فما كل خبيث محرم، وقد ورد أن البصل والثوم شجرتان خبيثتان، ولم يقل بتحريمهما أحد، فتبيَّن أن الخبائث المحرمة هي

Scanned with CamScanner

المنصوص عليها في مثل قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ﴾ [المائدة:٣] الآية. قلتُ له: ولو سَلَّمنا جدلاً أن الدخان محرَّم كالخمر لكان لك في تحريم الخمر في كتاب الله - عز وجل - ما يدعو إلى حسن الأسوة، والخمر قد ورد النهي عن شربه تدريجياً، فنهي الناس عنه أولاً إذا أرادوا الصلاة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء:٤٣]. ثم جاء التذكير بمضاره في قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة:٩١]. ثم جاء التحريم القطعي لشربه بعد أن سهل عليهم تركه في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [المائدة:٩٠]. فانتهى الناس عن شربه وكسروا الدنان التي كانوا يُعتِّقونه بها، فأنت ترى أن الخمر الذي اشتد ضرره، وخبث أثره، قد حرمه الله تعالى، على يد النبي عليه الصلاة والسلام، تحريماً تدريجياً، بآيات في القرآن، جارية على سنته تعالى في تكميل الإنسان، بتصحيح عقائده، وإصلاح أعماله. فلو أنكم جريتم على هذه السُّنَّة، ودعوتم إلى سبيل ربكم بالحكمة والموعظة الحسنة، لأطفئت بينكم وبين خصومكم هذه الفتنة، وأسبغ الله عليكم النعمة، نعمة التأليف المذكورة في قوله - تعالى -: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران:١٠٣]. فتقبَّل هذه النصيحة بقبول حسن، وقال إنها والحق يقال: غالية الثمن. قلتُ: ثمنها العمل بها، وسترى - إن شاء الله - حسن أثرها، وتتلذذ باقتطاف ثمرها إن شاء الله تعالى. اهـ.

وفي ص٤٠ قال الأستاذ محمد بَهْجَة البيطار: **خلاصة أحوالنا من ١٦ جمادى الثانية ١٣٣٨هـ إلى ٣ رجب الفرد ١٣٣٨هـ:**

طعامنا: إما أرز وفوقه لحم مطبوخ على أصول البدو، أو أرز وحده

Scanned with CamScanner

والسمن والمزيج باللبَن يضعونه بإناء فوق الدست الكبير، ثم يستديرون حول الدست ويجلسون في الغالب القرفصاء، وتمتد الأيدي العامرة المُشَمَّرَة إلى المرافق إلى الأرز، ويأخذون منه ملء الكف والأصابع، ثم يرصونه رصّاً محكماً حتى يصير كالقنابل اليدوية، ثم يمدون الأصابع التي تحمل الأرز إلى وعاء السمن يغمسونه بها، ثم يخرجونه ويأكلونه هنيئاً، ويشربون بعد الطعام حليب النوق بوعاء كبير مريئاً. وكنت حملت ملعقة من الشام، فاضاعها أحد رفاقنا في الطريق أيام ركوبنا في القطار، فأهداني الشيخ سلطان الفقير شيخ عنزة ملعقة من نحاس، وأخرى لآكل بإحداهما، فإذا ضاعت أكلتُ بالثانية، وأهديته بيت أقلام وفيه أقلام «مراسم» وورقاً وظروفاً، ثم أضاع إحدى الملعقتين رفيقنا، ومنعني من الأكل بالثانية، وقال: لا يجوز أن تأكل بالملعقة بعد اليوم، حتى نرجع من نَجْد. قلتُ: ولماذا؟! قال: أما العرب من أهل البادية فيظنون أنك جاسوس من قبل الإنكليز. فضحكت كثيراً، وقلتُ له: الأكل بالملاعق وغيرها عادة أكثر أهل الحضر، وليست من خصائص الإنكليز ولا غيرهم من أمم الغرب، وللجاسوس علائم وأمارات يُعرف بها غير الأكل بالملعقة، فأي ارتباط ومناسبة بين الأكل بالملعقة وهذه التهمة؟! قال: هم لا يفهمون غير هذا. قلتُ له: فهمنا حال البداوة، فما بال الحضريين يُنكرون؟! قال: أولئك يعدُّون الأكل بغير الكف والأصابع بِدْعَة. قلت: البِدْعَة المذمومة في الشرع، هي التي تحل محل السُّنَّة وتبطلها، والسنن ما كانت من جنس المفروضات والواجبات، كما ترى في سنن الوضوء والصلاة والصيام مثلاً، وما يظهر فيه معنى الذكر والعبادة ويتقرب به إلى الله عز وجل، أما وسائل الطعام والشراب، فليست من هذا الباب، وهي تختلف باختلاف البلاد والعباد، ألا ترى أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يأكل مما يليه، وفي هذا من الأدب ما لا يخفى، ولو كانت الملاعق في بلاده عليه الصلاة

Scanned with CamScanner

والسلام ونهى عن الأكل بها، وآثر الأكل باليد عليها لتمَّ لهم ما يريدون؛ ولكن كل ذلك لم يكن، والمعقول أنها لو كانت في بلد النبي ﷺ لاستعملها؛ لأنها أقرب إلى آداب الطعام التي كان يرمي إليها، وإلى النظافة التي كان يحث عليها. اهـ.

وفي ص٤٥ قال الأستاذ البيطار: نبذة من أخبار المُتديِّنة: لم يتفق لنا أن نزلنا عند عرب في مدة ثمانية عشر يوماً: من ١٦ جمادى الثانية إلى ٣ رجب، إلا وقصوا علينا نبذة من أخبار المُتديِّنة، حتى وصلنا قرية الحائط، وهي في شمال المدينة المنورة على مسافة أربع مراحل منها، وهنالك مجمع أخبارهم، ومشهد آثاراهم. وخلاصة ما اتصل بنا من أمرهم أن بعض وعَّاظ نَجْد ومرشديهم انبثوا في بعض القبائل والعشائر الحجازية، وطفقوا يدعونهم إلى الله ويعلمونهم أحكام الصلاة والزكاة وينهونهم عن الغزو وأكل الحرام، فاستجاب بعض القبائل كبني سالم [من حَرْب]، وكالشيخ مِتْعِب «والشيخ من عنزة» مع طائفة من قومهما فحسنت حالهم، وصاروا يقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، وتركوا الغزو والسلب، وجلبوا كتباً في التوحيد والفقه من نَجْد يتعلمون بها أحكام دينهم، ثم تبعهم بعض العشائر كَمُطَيْر، وعُتَيْبَة وحَرْب وغيرهم فباعوا إبلهم وغنمهم ومعزهم، وبنوا القُرى من أجل أن يتحضروا ويتفرغوا لعبادة ربهم، وقالوا إن في اقتناء الوبر مشغلة عن طاعة الله عز وجل، ثم اشتدت حاجتهم إليها؛ لعدم وجود ما يغنيهم عنها، وقد كانوا من قبل مولَّعين بالغزو، وأشربوا في قلوبهم حب الأكل منه، فراحوا يغزون تحت اسم: الإسلام. وسموا أنفسهم: «المُتَدَيِّنَة» و «الإخوان». وهم يعطون عميدهم من الغنائم الخُمس، وهو يحمي ظهرهم، ويشد أزرهم، ويقسم الغنائم بينهم، ويبني لهم القُرى، ويعمر لهم فيها المساجد، وقد سمعتُ أن قُراهم الآن قد بلغت الخمسين، وأنهم صاروا يقاربون أعداد خصومهم، وقد انتشروا

Scanned with CamScanner

ألوفاً مؤلفة بين نَجْد والحجاز، ويمتازون من خصومهم بقوة البأس، وشدة المراس، والقلوب القوية التي لا يجد الخوف إليها سبيلاً، وهم ينقضُّون على خصومهم بسيوفهم اللامعة، كالرعد القاصف، والبرق الخاطف، والسيل الجارف، وإذا غدوا من أهلهم قالوا لهم: سلوا الله لنا الشهادة، فيفعلون.

وهم يضربون الرقاب ويتمسحون بدماء القتلى زيادة في اغتنام الأجر والثواب!!

وهم طوائف مؤلفة من أكثر العشائر البدوية الجُهَّال، ما كانوا يدرون ما الكتاب، وهم قد قرروا الجهاد، حتى يفنوا عن آخرهم أو يفنوا خصومهم، ويرثوا أرضهم وديارهم وأموالهم، وقد اتسعت دائرة نزالهم، وامتدت ساحة قتالهم، حتى بلغت أطراف المدينة المنورة، حماها الله - تعالى - وصانها، فهم يهاجمون العرب في تلك الجهات، ويرجعون منها بالغنائم، وهم يَجِدُّون في هذه السبيل، ولا يرجعون من حرب إلا بين قاتل وقتيل. اهـ.

وفي ١٣٣٨/٧/٤هـ الموافق ١٩٢٠/٣/٢٤م وصل الأستاذ محمد بَهْجَة البيطار إلى بلدة الحائط (فَدَك)، فقال في ص٤٦: دخلناها وتناولنا طعام الغداء عند حاكمها الشريف عبد المطلب بن غالب، وطعام العشاء عند الشيخ خَلَف بن جابر أحد شيوخها، وأشار علينا جميع من اجتمعنا بهم بأن لا نتجاوزها إلى نَجْد، وأن لا نخطو قدماً واحدة من بعد، وقالوا إن الخطر على حياتي «بالمئة تسعون». وقال رفيقنا الشيخ شلاش: أنا لا آمن عليك من شر المُتَدَيِّنَة، وأنا لست كهيئتك، أنا نَجْدِي، وأنت من أهل الشمال، وهم يكفرونهم ويكفرون حكامهم، ويستحلون دماءهم وأموالهم، ويتقربون بقتلهم إلى الله، وأنا أؤدي الأمانة بتمامها، وآتيك بجوابها. فقبلنا النصيحة، وآثرنا ذلك على أن نقتل شر قتلة، بتلك الأيدي الجائرة الأثيمة،

Scanned with CamScanner

وكتبنا كتاباً نعتذر به عن عدم الوصول وفي ضمنه الأمانة والمذكرات، ولم نترك شيئاً مهماً إلا ذكرناه، وعسى أن يكون الجواب - إن شاء الله - وافياً بالمقصود، شافياً لما في الصدور، ثم ودعنا الأخ شلاش ورفيقنا الشاب النشيط عبدالله صباح يوم الأربعاء بالدموع، سهَّل المولى عليهما، وأنجح مقاصدهما آمين. اهـ.

وفي ص٤٧ تحدث الأستاذ محمد بَهْجَة البيطار عن الحائط (فَدَك) فقال: قرية الحائط واقعة في شمال المدينة المنورة على أربع مراحل منها، وهي ذات نخيل كثير وفيها عيون عذبة، وأهلها قوم كرام، وهم فيما بينهم على اتفاق تام، وقد كانت هذه القرية في الأصل لعرب عنزة، ثم امتلكها منهم ابن الرَّشِيْد، بعد حرب ظفر فيها، وعامل أهل الحائط على نخيلها، على أن يكون ثمره بينه وبينهم مناصفة، ثم استقلوا بأنفسهم، فحاربهم منذ سنين وحاول استردادها منهم فلم يفلح، وفي أول الثورة العربية طلبوا شريفاً ليكون حاكماً عليهم فأرسل إليهم. وجلالة ملك الحجاز يأخذ منهم زكاة الثمار العُشْر فقط. ولا تزال تتجاذبها أنظار الطامعين، من ابن الرَّشِيْد والمُتديِّنين، وهم لا يرغبون غير حكم الشريف، ومستعدون لقتال من يبغي عليهم.

قضيت في هذه القرية ثمانية أيام، وكنت ضيف شريفها الشاب الأديب عبد المطلب، ورفيقه المهذب النجيب الشريف حميِّد، وكنت أنام عند خطيبها الصالح البركة الشيخ مبروك النَّجدي، ونقرأ عنده بعد العشاء وبعد صلاة الفجر وأثناء النهار أيضاً، دروساً في الحديث والفرائض والنحو والصرف، وقد ألقيتُ يوم الجمعة بعد آداء الفريضة في جامعها درساً عاماً، فَسَّرَتُ فيه قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾ [البقرة: ٢١٠]. فظهر الخشوع، وسالت الدموع، واستلموا بعد الدروس يديَّ مصافحة ولثماً. اهـ.

الحائط (فَدَك) والحُوَيِّط (يَدِيْع) للدَّهَامِشَة من عنزة. ومن أجل أن يظفر ابن رشيد بهاتين الواحتين، ويضمهما إلى إمارة حائل التي هي تابعة للإمام فيصل بن تركي آل سعود، فقد قام بتحريش الإمام فيصل عليهم، وأن شيخ الدَّهَامِشَة ابن مِجْلاد غير موالي، ويريد الاستقلال أو هو مستقل، وغير ذلك، فسار إليهم ابنه الأمير عبدالله بن فيصل أكثر من مرة، وابن رشيد كذلك، ولعل ابن رشيد أيضًا لم ينس للدَّهَامِشَة وقوفهم إلى جانب أمير بُرَيْدَة ابن مُهَنَّا، وأمير عُنَيْزَة ابن سُلَيْم، في موقعة بَقْعَاء عام ١٢٥٧هـ/ ١٨٤١م، فحقد عليهم، وصار يحيك لهم المؤامرات؛ لذلك تم له ما أراد، فترك الدَّهَامِشَة الحائط والحُوَيِّط وما حولها في حدود عام ١٢٧٥هـ/ ١٨٥٩م ونزلوا وديان عنزة في شمال الجزيرة العربية، وابتعدوا عن نفوذ الدول السعودية وإمارة حائل. وما نسي الدَّهَامِشَة لابن رشيد ذلك، فقد قام ابن مِجْلاد والدَّيْدَب وغيرهم من مشايخ الدَّهَامِشَة بشن الغارة تلو الغارة على رعايا إمارة حائل، من قبائل وعشائر شَمَّر وغيرهم.

وبعد رحيل الدهامشة بقي في الحائط والحُوَيِّط مواليهم، الذين حفظوا الود لأهلهم، فلم يذعنوا لأحد، وصاروا يمارسون الحكم الذاتي تقريبًا، وفيما بعد دخلوا تحت حكم الأشراف، وبعد ضم الحجاز إلى الدولة السعودية صار أهل الحائط والحُوَيِّط من ضمن البلاد السعودية ولله الحمد.

وفي أثناء إقامة البيطار في الحائط (فَدَك) حذروه من مواصلة الطريق، خوفاً عليه من المُتديِّنة، وهم الإخوان (إخوان من طاع الله). فكتب رسالة إلى الملك عبد العزيز يوضح فيها وضعه وخوفه على نفسه، وأرسلها مع رفيقه شلاش مع الرسائل التي معه.

وفي يوم الثلاثاء ١١/ ٧/ ١٣٣٨هـ الموافق ٣١/ ٣/ ١٩٢٠م توجه

البيطار إلى المدينة النبوية مع كبار أهل الحائط وهم: الشيخ مقبل، والشيخ خلف بن جابر، والشيخ علي بن سليمان، والخطيب الشيخ مبروك، ومعهم نحو (١٥) رجلاً، فوصلوها في صباح الأحد ١٦ رجب، وعندما وصلوا المدينة قابل الأمير علي بن الحسين بن علي، الذي كان في وقتها ولي العهد وحاكم المدينة النبويَّة.

مكث البيطار في المدينة ثلاثة أيام، ثم قفل راجعاً، فركب قطار المدينة وذهب إلى دمشق، فوصلها في ٢٨/٧/١٣٣٨هـ الموافق ١٧/٤/١٩٢٠م.

وفي ص٦٠ قال الأستاذ محمد بَهْجَة البيطار عن قبيلة الفُقْرَا (الافْقَرَا) الوائلية وشيوخها في الخطاب الذي كتبه في الحائط بتاريخ ٥/٧/١٣٣٨هـ الموافق ٢٥/٤/١٩٢٠م وأرسله مع رفيقه شلاش إلى الملك عبد العزيز رحمه الله: **..ولقد كنا نزلنا ضيوفًا عند مِتْعِب أخي سلطان الفقير، فألفيناه هنالك هو والإخوان على أحسن حال يكون عليها أهل الإسلام والإيمان. وقال: إن هذا أثر الوعظ والإرشاد لا السيف والجهاد، وكذا رأينا العشائر المجاورة لهم، تقيم الصلاة وتسأل عن أحكام الزكاة، وذكروا أنهم في حاجة إلى مرشدين، يعلمونهم، من علماء نَجْد الأفاضل إذا هم انبثوا في جميع العشائر والقبائل، فإن العرب التي لم تستجب بعد، ليسوا بأقسى قلوباً ولا أغلظ أكباداً ممن دانت، فهم في مزيد الحاجة الآن إلى أن يشملهم نظر الإمام، بإرسال واعظين حكماء، يُعلِّمونهم أحكام الشريعة السمحة بالحكمة والموعظة الحسنة، وأحسب أنهم لا يمضي عليهم وقت قليل، حتى يكونوا أحسن حالاً من كل قبيل، وتلك أيسر الخطتين، وأقرب الطريقتين، والإمام أيَّده الله أبعد نظراً وأوسع خُبراً وخَبراً.** اهـ.

وسلطان الفقير المذكور في الرسالة هو الشيخ سلطان بن صالح بن

مطلق بن الحميدي بن مسعد بن بْنَيَّه بن مبارك بن خضير بن صالح بن حمدان بن شفق بن راشد. شيخ قبيلة الفْقَرَا (الافْقَرَا) من المَنَابِهَة من بني وَهَب من ضَنَا مُسْلِم من قبيلة عنزة الوائلية.

ومِتْعِب هو الشيخ مِتْعِب (الخطيب) بن صالح بن مطلق الفقير، يلقب بالخطيب؛ نظراً لتدينه وتقواه، وقد تعلم القراءة والكتابة في تَيْمَاء، وساعد في نشر الدعوة الإصلاحية السلفية في شمال غرب الجزيرة العربية، في العُلا وتَيْمَاء والعِشَاش والجهراء، وكان من خيرة رجال قبيلة الفْقَرَا (الافْقَرَا) وقبيلة عنزة بشكل عام، توفي بين مكة والمدينة ودفن هناك رحمه الله.

وكلام البيطار عما شاهده من تمسك قبيلة الفْقَرَا (الافْقَرَا) بالدين، وإقامتهم للصلاة، يُعد فضيلة ومَنْقَبَة لهذه القبيلة العريقة في وقت كان فيه الجهل منتشرًا في الجزيرة العربية.

مذكرات غلوب باشا
حياتي في المشرق العربي
١٣٣٨ - ١٣٧٥هـ
١٩٢٠ - ١٩٥٦م



ترجمة: عبد الرحمن الشيخ.

الناشر: الأهلية للنشر والتوزيع، عَمَّان، ٢٠٠٢م.

عدد الصفحات: ٤٠١ صفحة.

نبذة عن الكاتب[١]:

الإنكليزي النبيل.. يعتبر الفريق غلوب باشا المشهور عند البادية بلقب (أبو حنيك)[٢] واحد من أعظم الشخصيات العسكرية والسياسية في بريطانيا.

ولد عام ١٣١٤هـ/ ١٨٩٧م في مدينة برستون في لانكشاير.

جاء غلوب باشا إلى العراق عام ١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م، وعمل بجد ومثابرة، وقد حصل في نهاية خدمته في العراق على تكريم الملك فيصل، وذلك بمنحه وسام الرَّافدين.

(١) من مقدمة المترجم بتصرف واختصار.

(٢) حنيك: تصغير حَنَك.

Scanned with CamScanner

استدعته الحكومة الأردنية لقيادة الفيلق العربي. واستمرت مهمته في الأردن حتى أقاله الملك حسين عام ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م.

عاد إلى بريطانيا وانصرف إلى البحث في تاريخ الأمة العربية والإسلامية حتى تجاوزت مؤلفاته العشرين كتاباً.

توفي غلوب باشا عام ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م في منزله في ماي فير وعمره ٨٨ سنة.

Scanned with CamScanner

قبيلة عنزة
في مذكرات غلوب باشا



قال غلوب باشا في ص١٠٤: **كانت «القومية» هي اللعنة التي استوردت من أوروبا. فقد كان يجري حكم الإمبراطورية العثمانية لعدة قرون، بخليط من الأصول العِرْقِيَّة، من دون تحزّب أو تحيّز. ولم تكن لدى عشائر الفُرات أية أحاسيس قومية، إذ أن الأتراك، والبريطانيون، والعرب، يمثلون ذات الشيء بالنسبة إلى تلك العشائر. على أن تلك العشائر تريد أن تدفع الضرائب إلى أي إنسان. وحين أصبح الجيش البريطاني ضعيفاً، نتيجة لعملية التسريح العامة فيه، ثارت العشائر، وأبت أن تدفع الضرائب.** اهـ.

حتى يصبح الكلام صحيحاً لا بد من تنحية بريطانيا من هذا المفهوم. إذ أن الكاتب - ومن وجهة نظره - قد وضعها في المنتصف وكأنها مثل الدولة العثمانية، وهناك فرق كبير بينهما، حيث كانت الدولة العثمانية دولة إسلامية، وتحكم الناس باسم الإسلام، وهذا ما جعلها مقبولة، ولو كانت مثل بريطانيا لرفضها الناس، وعندما خرجت القومية التركية حصلت الثورات عليها، ومنها الثورة العربية عام ١٣٣٤هـ/١٩١٦م، فقد اتفقت أهداف العرب، فوقفوا مع الشريف حسين بن علي في ثورته التي

كانت في وقتها تمثل الكثير من العرب حقيقة. لذلك المقارنة بين بريطانيا والدولة العثمانية أعتقد أنه قياس مع الفارق.

إلى أن قال وفي نفس السياق السابق: **وفي الوقت ذاته برزت معارضة شعبية واسعة في بريطانيا، ضد استمرار وجود القوات البريطانية في العراق. ومع ذلك فقد كانت بغداد، فئة من الناس، مؤلفة من العراقيين والبريطانيين الذين كانوا يحبون العراق، من أمثال المس غرتروود بل، والذين تأكدوا بأن الانسحاب البريطاني المباشر سوف يؤدي إلى الفوضى، وكذلك من أولئك الذين كانوا يدافعون عن استمرار الوجود البريطاني ليس بعيداً عن الاستعمار، بل بعيداً عن الحب الأصيل للعراق.**

قد يكون مثل هذا الرأي خاطئاً أو غير خاطئ! فلو أن بريطانيا كانت قد جَلَت عن العراق فلسوف تنجم عن ذلك فعلاً، أعمال الفوضى وسفك الدماء، التي قد تستمر لسنين عديدة. اهـ.

ما أشبه الليلة بالبارحة. بعد أن يسقطوا الحكومة في البلد، ويعيثوا في الأرض فساداً، يقولون: إذا انسحبنا في مثل هذه الظروف سوف تحدث الفوضى ويختلّ النظام!! سبحان الله!! أنتم أساس الفوضى والخراب.

قال غلوب باشا في ص١٢٧: **وفي سنة ١٧٠٠م أو حدودها، ظهر في الجزيرة العربية فتى من عشيرة تميم يُدعى محمد بن عبد الوهاب كَرَّس الفتى نفسه للدين، فإنه كان قد درس في مكة والمدينة، والبصرة، ودمشق، ثم عاد في سنة ١٧٤٢م إلى نَجْد وراح يعظ قومه ببعث ديني خالص، وعلى أساس العودة إلى القرآن من دون أية بدع أخرى. ويبدو أن أحداً لم يهتم كثيراً بدعوته تلك إلى أن التقى بشيخ صغير من عشيرة عنزة يدعى ابن سعود الذي اهتدى به. اهـ.**

Scanned with CamScanner

هذه شهادة - ولله الحمد - تضاف إلى كثير من الشهادات التي قيلت في حق الدعوة الإصلاحية السلفية من رجل له وزنه مثل غلوب باشا.

والشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - من قبيلة تميم العريقة، الذين مدحهم وأثنى عليهم الرسول ﷺ، فهم كما قال أشد أمته على الدجَّال. وهي منقبة وفضيلة لهذه القبيلة العربية العريقة. وما زالت قبيلة تميم تخرج أهل الخير والصلاح ولله الحمد.

ونسب الإمام محمد بن سعود أكَّده، فهو من قبيلة عنزة لا شك، وهذا يدل على معرفة مسبقة من قبل غلوب باشا بهذين العَلَمَين، وقد ساق بعض تاريخ آل سعود بشيء من التمكن والمعرفة، حيث إن ما ذكره غلوب باشا لا يخالف ما هو معروف عنهم إلا في أقل من القليل، ونحن نعذره في هذا، خاصة أن الرجل أجنبي، ويشكر على إنصافه وعدله وتعاطفه مع قضايا الأمة العربية بشكل عام.

وفي نفس السياق قال: **كانت عظة المصلح محمد بن عبدالوهاب التي حظيت بالدعم من سيف الشيخ ابن سعود قد اكتسحت أواسط الجزيرة العربية في موجة فجائية غامرة من الحماسة، وهكذا استولى الوهابيون في سنة ١٨٠٣م على المدينتين المقدستين مكة والمدينة اللتين كانتا تخضعان بصفة اسمية لتبعية سلطان تركيا.**

استمرت هذه الفترة الأولى من الحكم الوهابي من سنة ١٨٠٣م إلى سنة ١٨١٣م، حى تمت استعادة مكة على يد جيش مؤلف من الألبانيين وغيرهم بعث به محمد علي باشا الذي أعلن نفسه حاكماً على مصر. وبعد مرور ست سنوات من حرب غير متواصلة تم تمزيق الحكم الوهابي.

ولقد بقيت أوساط الجزيرة العربية لمدة تبلغ حوالي مدة سنة في غمرة التناحر بين القبائل والشيوخ، إلى أن استطاع في سنة ١٩٠٢م، فرع فتي من

Scanned with CamScanner

العائلة السعودية يدعى آل عبد العزيز أن يستولي على الرياض العاصمة السابقة للأسرة. ولكي يثير الفرع حماسة أنصاره فإنه أثار بَعْثَاً مُتطرفاً للمذهب الوهابي الطهري القديم، واستطاع في سنة ١٩٢٠م أن يبسط حكمه على كل أنحاء نَجْد، وأن يصبح مجاوراً للعراق الذي يخضع الآن للانتداب البريطاني. كان تطرف الوهابيين قد أثار الحميّة، ولذلك رأى السعوديون بأنه لا يوجد أي سبب يدعو إلى أن يتوقفوا عند الحدود السياسية التي كانت قائمة آنذاك. اهـ.

تحدث غلوب باشا في هذا المقطع وما قبله عن بدايات الدعوة الإصلاحية السلفية، دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله. ثم تناول بدايات توحيد المملكة العربية السعودية، وتحدث عن المشكلة التي باشرها بنفسه وهي غارات أتباع الملك عبد العزيز، وهم الإخوان (إخوان من طاع الله) على القبائل العراقية، وهي مشكلة كانت تواجه الساسة في ذلك الوقت، حيث إنهم لم يعترفوا بالاتفاقيات التي كان يعقدها الملك عبد العزيز مع الدول والحكومات، إلى أن حسمها الملك عبد العزيز، وذلك بكسره شوكة الإخوان في معركة (السَّبَلَة) عام ١٣٤٧هـ/ ١٩٢٩م.

Scanned with CamScanner

ذكريات علي الطنطاوي



الناشر: دار المنارة للنشر، ط٢، جدة، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

عدد الصفحات: ثمانية أجزاء. كانت تنشر على شكل حلقات في جريدة (الشرق الأوسط)، وجمعت هذه الذكريات في حياة الشيخ علي الطنطاوي، فراجعها، ونشرتها دار المنارة بجدة.

نبذة عن الكاتب[1]:

هو علي بن مصطفى الطنطاوي، ولد في دمشق سنة ١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م، لأسرة ذات علم ودين، أصلها من مدينة طنطا في مصر.

درس علي الطنطاوي الحقوق في جامعة دمشق، حتى نال الشهادة الجامعية العالية عام ١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م.

عُيِّن معلماً في المرحلة الابتدائية في مدارس الحكومة عام١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م، وبقي فيها إلى عام ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م.

وفي عام ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م انتقل الطنطاوي للتدريس في العراق،

(١) من سلسلة رجال أحبهم، عبدالله الزهراني. بتصرف واختصار.

وبقي يدرس حتى عام ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م، لم ينقطع عنه غير سنة واحدة أمضاها في بيروت مدرساً في الكلية الشرعية عام ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م.

ثم رجع الطنطاوي إلى دمشق، ودخل سلك القضاء، فعُيِّن قاضياً في النَّبْك مدة ١١ شهراً ثم قاضياً في دوما[1]، ثم قاضياً ممتازاً في دمشق مدة ١٠ سنوات فمستشاراً لمحكمة النقض في الشام، ثم مستشاراً لمحكمة النقض في القاهرة أيام الوحدة مع مصر.

انتقل الطنطاوي عام ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م بعد انقلاب الثامن من آذار، وإعلان حالة الطوارئ في سورية، إلى المملكة العربية السعودية ليعمل مدرساً في كلية الشريعة وكلية اللغة العربية في الرياض، ومنها انتقل إلى مكة، للتدريس فيها، ليمضي فيها وفي جدة خمساً وثلاثين سنة.

يعتبر الطنطاوي من أقدم المحاضرين الإذاعيين في العالم العربي، إذ بدأ يحاضر من إذاعة الشرق الأدنى من يافا من أوائل الثلاثينات، ومن إذاعة بغداد عام ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م، ومن إذاعة دمشق عام ١٣٦١هـ/ ١٩٤٢م لأكثر من عقدين متصلين، وأخيراً من إذاعة المملكة وتلفازها نحواً من ربع قرن متصل من الزمان.

وفي يوم الجمعة ٤/ ٣/ ١٤٢٠هـ الموافق ١٨/ ٦/ ١٩٩٩م توفي الشيخ علي الطنطاوي بجُدَّة، ودفن في مكة في اليوم التالي بعدما صلي عليه في المسجد الحرام.

ترك الطنطاوي عدة مؤلفات منها:

هتاف المجد، صور من الشرق، مع الناس، حكايات من التاريخ، قصص من الحياة، فكر ومباحث، ذكريات علي الطنطاوي، في سبيل

---

(١) من قرى دمشق.

الإصلاح، أبو بكر الصديق، عمر بن الخطاب، بغداد، دمشق، مقالات في كلمات، صور وخواطر، الجامع الأموي.

قبيلة عنزة
في ذكريات الطنطاوي



قال الشيخ علي الطنطاوي - رحمه الله - في الجزء الثاني من ذكرياته ص٢٢٤ : كانت أكبر القبائل عندنا [في الشام]: الرُّوَلَة، وهم فرع من عنزة، وعنزة بن أسد من ربيعة ومنهم آل سعود الكرام، وكان شيخ مشايخ الرُّوَلَة نُوْرِي الشَّعْلان، ولما كانت الجزيرة مقسمة في كل ناحية ملك وسلطان، وكان ابن سعود في نَجْد بعد توحيد نَجْد، وابن الرَّشيد في حائل، كان النُّوْرِي في القُرَيَّات، وكانت له فيها شبه دولة. ولا يعرف مبلغ ما وفق الله إليه عبد العزيز، من توحيد الجزيرة، وإقامة هذه المملكة، التي أكرمها الله فجعل لها بين الدول وزناً راجحاً ورفعها مكانة عالية، ومَنَّ الله عليها بالمال وبنوابغ الرجال، حتى طرق أبوابها زعماء الشرق والغرب، لا يعرف هذا إلا من عرف كيف كانت الجزيرة، يوم كانت في (الرياض) دولة، وكان في منفوحة دولة أخرى، وكان بينهما خلاف في المعتقد، ونزاع بالسلاح.. اهـ.

قبيلة الرُّوَلَة هم أبناء زايد الجِلاسي الوائلي أحد فروع قبيلة عنزة الرئيسة، والرُّوَلَة لقب غلب عليهم.

وقبيلة عنزة بن أسد من ربيعة. هذا هو عمود نسب قبيلة عنزة الوائلية في هذا العصر.

Scanned with CamScanner

أما قول الطنطاوي: **ومنهم آل سعود الكرام**. فهو يقرر الحقيقة المعروفة لدى الجميع فآل سعود من عنزة دون شك. وقد مر معنا كلام بعض الرحَّالة والمؤلفين وتقريرهم لهذا النسب، ولو عرفوا غيره لذكروه، خاصة أن بعضهم ليس سائحاً اعتيادياً، بل هو مندوب عن حكومته، مثل (بيلي) الذي كانت رحلته عبارة عن تقرير كتبه عن تفصيلات زيارته للرياض في عهد الإمام فيصل بن تركي آل سعود عام ١٢٨١هـ/ ١٨٦٥م.

وهذا النسب أكَّده الملك عبد العزيز آل سعود بنفسه، ورواه عنه أمين الريحاني، عندما ذكر العِمَارَات (الاعْمَارَات) وأنهم من عنزة، وعنزة أبناء عمه ومن رعاياه[(١)].

ويؤكده أيضا الأمير سعود بن هذلول آل سعود في كتابه: تاريخ ملوك آل سعود[(٢)].

وعندما تحدث العلامة العراقي محمود شكري الألوسي عن نسب الإمام عبدالله بن فيصل بن تركي آل سعود ذكر أنه من عنزة[(٣)].

وقال الأمير ضاري بن فهيد الرَّشِيْد في نبذته التي أملاها بمدينة بومباي بالهند عام ١٣٣١هـ/ ١٩١٣م: «منذ قرن تقريباً كانت نَجْد كلها بيد آل سعود. وهم من عنزة»[(٤)].

هذا ما تيسر، وهو قليل من كثير، ويكفي من القلادة ما أحاط بالعنق.

وقال: **وكان شيخ مشايخ الرُّوَلَة نُوِري الشِّعْلان**.

---

(١) انظر: تاريخ نجد الحديث، أمين الريحاني، ص٣١١.

(٢) انظر: تاريخ ملوك آل سعود، سعود بن هذلول آل سعود، ص٩.

(٣) انظر: تاريخ نجد، محمود شكري الألوسي، ص١٢٥.

(٤) نبذة تاريخية عن نجد، ضاري بن فهيد الرشيد، ص٦١.

Scanned with CamScanner

وهو الأمير النُّوْرِي بن هَزَّاع بن نايف بن عبدالله بن مُنَيْف بن غُرَيْر بن محمد الشِّعْلان من المُرْعِض من الرُّوَلَة من الجِلاس من ضَنَا مُسْلِم من قبيلة عنزة الوائلية. ولد في عام ١٢٦٣هـ/ ١٨٤٧م، وقيل عام ١٢٦٧هـ/ ١٨٥١م، تولى الإمارة بعد مقتل أخيه الأمير فهد بن هَزَّاع الشِّعْلان في عام ١٣١٩هـ/ ١٩٠١م.

أخذ الجوف من ابن رشيد عام ١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م وعين ابنه نَوَّاف أميراً عليه. استمر أميراً على الرُّوَلَة لأكثر من أربعين عاماً، وكانت علاقته بالحكومات بشكل عام تتصف بالود والمسالمة. صاهر الملك عبد العزيز حيث زوجه حفيدته الأميرة نَوْف بنت نَوَّاف الشِّعْلان. ومن أبنائها الأمراء: ممدوح، ومشهور، وثامر.

وفي آخر حياته تنسَّك الأمير النُّوْرِي، وأوكل الأمر إلى حفيده الأمير فَوَّاز بن نَوَّاف بن النُّوْرِي الشِّعْلان؛ حتى إنه عندما تأتيه الرُّوَلَة في بعض الموضوعات يقول: شيخكم فَوَّاز.

وكانت وفاة الأمير النُّوْرِي في السنة التي تسمى عند الرُّوَلَة سنة الغبار عام ١٣٦١هـ/ ١٩٤٢م بدمشق، ودفن في عَذْرَا رحمه الله.

وقال الطنطاوي: **ولما كانت الجزيرة مقسمة في كل ناحية ملك وسلطان، وكان ابن سعود في نَجْد بعد توحيد نَجْد، وابن الرشيد في حائل، كان النُّوْرِي في القُرَيَّات، وكانت له فيها شبه دولة.**

بل كانت حدود إمارة ابن شِعْلان أكبر من هذا وخاصة في عهد الأمير النُّوْرِي بن هَزَّاع الشِّعْلان، فقد كانت كما وصفها الكاتب والصحفي عبدالله بن ماجد الكريدية حيث قال: **كان إذ همس نُوْرِي في عَذْرَا تحركت له مضارب الجوف جنوباً مروراً بوادي السِّرْحَان وقُرَيَّات الملح وحوران حتى القريتين وحيسة شمالاً**. اهـ.

حدود إمارة ابن شعلان تبدأ من جنوب آبار الشَّقِيْق في وسط النفود الكبير المسمى رمل عالج وأطراف تَيْمَاء إلى حمص شمالاً، ومن الفُرَات إلى ينابيع الزَّرْقَاء بالقرب من مدينة عَمَّان عاصمة الأردن الآن. وهذا طبعاً لا يمنع من تجول الآخرين فيها، إلا أن هذه الحدود التقريبية للإمارة تتجول فيها الرُّوَلَة وحلفائهم وتوابعهم بكامل حريتهم.

وقال: **ولا يعرف مبلغ ما وفق الله إليه عبد العزيز، من توحيد الجزيرة.** اهـ.

تجفّ الأقلام دون أن تحصي مناقب هذا الرجل، وتقصر كلمات الشكر والثناء دون حقه، فكل سعودي؛ بل كل عربي للملك عبد العزيز فضل في عنقه حيث ما إن ضم الحجاز ابتداء من عام ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م حتى نشر الأمن والأمان في كل البلاد السعودية ولله الحمد، وأكمل المسيرة من بعده أبناؤه. ومن أراد أن يعرف فضل الملك عبد العزيز عليه أن يقرأ التاريخ، خاصة كتب الرحَّالة، سواء الأجانب أو العرب، وسوف يلحظ الفرق بين العهود القديمة وبين عهد آل سعود وفقهم الله لكل خير. وما كلامي هذا إلا إشارة لهذا العهد الزاهر الذي نتفيأ ظلاله بفضل الله ومنّه ثم بفضل الملك عبد العزيز رحمه الله.

وقال الشيخ علي الطنطاوي عن الأمير النُّوْرِي: **كان نُوْرِي الشِّعْلان يومئذ في القُرَيَّات، ثم استقر في عَذْرَاء وراء الغُوْطَة، وبنى في طرف دمشق في بساتينها داراً واسعة له ومسجداً ومنازل، وسمى ذلك حي الشِّعْلان، ولما توسعت دمشق صار في وسطها بعد أن كان في طرفها، ولطالما خطبت في مسجده (أي في جامع الشِّعْلان)، ورأيته وسلمت عليه، وكان داهية مهيباً، ويقولون إنه كان في شبابه جباراً، بطاشاً مخيفاً، عاش (١٠٠) سنة إلا سنتين.** اهـ.

Scanned with CamScanner

إلى أن قال: **وكان يليه من كبار مشايخ العشائر، مِقْحِم بن مُهَيْد، وكانت منازله في شرقي البادية مما يلي العراق.** اهـ.

هو الشيخ مِقْحِم بن مُهَيْد (مُصَوِّت بالعَشَا) أحد مشايخ قبيلة الفِدْعَان من قبيلة عنزة الوائلية.

وهو الشيخ مِقْحِم بن تُركي بن جَدْعَان بن نايف بن جغثم بن تُركي بن مِقْحِم من المُهَيْد من ضَنَا محمد من قبيلة الفِدْعَان من ضَنَا عبيد من ضَنَا بِشْر من قبيلة عنزة الوائلية.

والشيخ تُركي بن جغثم يلقب بالمُحيي، وهو أول من نادى بالعشاء (مُصَوِّت بالعشا)، ولقب (مُصَوِّت بالعشا) خاص بأسرة المِقْحِم من المُهَيْد، حيث كان الشيخ تُركي بن جغثم يأمر مولاه إذا جَنَّ الليل أن يوقد ناره وينادي بأعلى صوته: هلمّوا إلى العشاء. ومنها عُرف بـ (مُصَوِّت بالعشا)؛ حتى أن الملك عبد العزيز سمع أحد مواليه ينادي بالعشاء فقال له: اسكت!! فقد سبقنا عليها ابن مُهَيْد.

ولعلنا نعطي القارئ الكريم صورة عن قبيلة الفِدْعَان.

يطلق على قبيلة الفِدْعَان عدد من الألقاب: (بَوَّاجَة الديار)، و (حُمْرَان النُّوَاظِر)؛ وذلك لشجاعتهم وشدة بأسهم، ولقب (شَرَّابَة المَغَر)، ولهذا الأخير قصة. وهي أن أحد الفِدْعَان نزل عليه ضيف، وبعد أن أدَّى له واجبه المعتاد رحل الضيف، فحصل له بعد ذلك حادث اعتداء، فطالب الفِدْعَاني بحقوقه المعروفة، وهي أن الضيف بحمايته، وأن طعامه الذي قدَّمه لضيفه لم يُهضم بعد. وأراد أن يثبت لهم ذلك، فشرب مادة يُقال لها: (المَغَر)، فلم تخرج من بطنه نهائياً إلا بعد ثلاثة أيام ونصف، فأصبحت قانوناً (للمِلْحَة)، وهي حقوق الضيافة (العيش

والملح)، تقضي بها العَوَارِف (مفردها عارفة)، وهم قضاة البادية. ومنها عُرف الفِدْعَان بشاربي المَغَر (شَرَّابة المَغَر).

ومن هذه القبيلة الوائلية العريقة خرج المثل: (عَطِيَّةُ غُبَيْنِي). وابن غُبَيْن كان شيخ ضَنَا بِشْر من عنزة في زمنه، والشيخ نايف بن غُبَيْن هو الذي قاد ضَنَا عبيد من ضَنَا بِشْر من عنزة في هجرتهم في بدايات القرن (١٣) الهجري أواخر القرن (١٨) الميلادي. ولم يرجع إلا وُلْد سليمان. وضَنَا عبيد كما هو معروف ثلاث قبائل: الفِدْعَان والسَّبَعَة ووُلْد سليمان.

و(عَطِيَّةُ غُبَيْنِي) كناية عن الهدية ذات القيمة والتي لا تقبل الرد في نفس الوقت. والقصة باختصار: إنه كان عند الشيخ حمدان بن عيد بن غُبَيْن فرس أصيلة، فسمع بها ابن عُرَيْعِر حاكم الأحساء وشرق الجزيرة العربية في زمنه، فأرسل أحدهم لأخذها بالحيلة، أو بأي طريقة كانت، فلم يستطع المندوب أخذها؛ لأن الشيخ حمدان بن غُبَيْن كان حريصاً عليها جداً، وعندما طالت المدة اعترف المندوب بسبب مجيئه!! فقام الشيخ حمدان وأرسلها هدية لابن عُرَيْعِر.

وفي رواية أخرى: أن المندوب استطاع الحصول عليها عندما كان مع ابن غُبَيْن في زيارة خاصة، فأخذها وهرب، فقال له الشيخ حمدان بن غُبَيْن: (قل لابن عُرَيْعِر لا يقطع العاني). وعندما وصل المندوب بالفرس أخبر ابن عُرَيْعِر بالقصة، فندم على ما كان قد بَدَرَ منه، حيث أخذها وهي عزيزة عند صاحبها، فقام بإرسالها إلى الشيخ حمدان بن غُبَيْن، فلم يقبلها منه، فحاول ابن عُرَيْعِر إقناعه بها، فقال له الشيخ حمدان بن غُبَيْن: هذه عَطِيَّةُ غُبَيْنِي. فصارت مثلاً معروفاً إلى اليوم.

والطنطاوي في ذكرياته يخبرنا كشاهد عيان بأكبر القبائل في بلاد الشام ويخبرنا عن مكانة مشايخها وكلها بفضل الله من قبيلة عنزة. لكن

Scanned with CamScanner

ينبغي أن نفطن ولا نأخذ كلامه - رحمه الله - على إطلاقه، فهناك زعامات وائلية مرموقة، ويتبعهم أعداد كبيرة من عنزة مثل: ابن هُدَيْب وابن مِرْشِد وابن مِلْحِم وابن سْمَيْر والطيَّار وغيرهم. ولكن نحن نعذر الطنطاوي فلعله قد ذكر المشهورين عنده في وقتها. والله أعلم.

Scanned with CamScanner

رحلات في بلاد العرب
«في شمال الحجاز والأردن»
١٣٩٤هـ/١٩٧٤م



الناشر: دار مكة للنشر والتوزيع، مكة، ط٢، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

عدد الصفحات: ٢٤٥ صفحة. ومن ص١٠٧ - ١١٨ منزوعة من النسخة المتوفرة لديّ. والذي يظهر لي أن ذلك من الرقابة في وزارة الإعلام السعودية.

نبذة عن الرحّالة:

الرحّالة هو الأستاذ الأديب عَاتِق بن غَيْث البِلادِي الحَرْبِي، ولد في بادية شمال مكة المكرمة، في مكان يقال له: (مسر)، بسفح جبل يُدعى (أبيض) عام ١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م.

درس في مدارس مكة المكرمة النظامية، ودرس في المسجد الحرام على عدد من المشايخ. وحصل على دبلوم في فن الصحافة من معهد دار عَمَّان العالي في الأردن.

عمل ضابطاً بالجيش السعودي، وتقاعد منه في السنين الماضية.

أسس دار مكة للنشر والتوزيع، التي لا زالت تنشر مؤلفاته العلمية وغيرها.

Scanned with CamScanner

تُرجم كتابه (المعالم الجغرافية في السيرة النبوية) إلى اللغة الأردية.

حصل على جائزة أمين مدني للبحث في تاريخ الجزيرة العربية عام ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

أطلقت أمانة محافظة جُدَّة اسمه على أحد شوارع مدينة جُدَّة عام ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م. تقديراً لجهوده وإسهاماته في خدمة الأدب والعلم.

له من المصنفات المطبوعة حوالي ٤٠ كتاباً ومنها:

١ - معجم معالم الحجاز (١٠ أجزاء).

٢ - الأدب الشعبي في الحجاز.

٣ - نسب حَرْب.

٤ - معجم قبائل الحجاز.

٥ - على طريق الهجرة.

٦ - معالم مكة التاريخية والأثرية.

٧ - رحلات في بلاد العرب.

٨ - الرحلة النجدية.

٩ - بين مكة وحضرموت.

١٠ - المعالم الجغرافية في السيرة النبوية.

١١ - بين مكة واليمن.

١٢ - أخلاق البدو.

١٣ - على رُبى نَجْد.

١٤ - فضائل القرآن.

Scanned with CamScanner

١٥ - أخبار الأمم المبادة في القرآن الكريم.

١٦ - في قلب جزيرة العرب.

١٧ - نشر الرياحين في تاريخ البلد الأمين (مجلدان).

١٨ - هديل الحمام في تاريخ البلد الحرام (٤ مجلدات).

١٩ - ألحان وأشجان (ديوان).

٢٠ - حصاد الأيام.

٢١ - مذكرات في ثلاثة أجزاء.

٢٢ - بين مكة وبرك الغماد.

٢٣ - الرحلة اليمانية (تحقيق وتعليق).

٢٤ - معجم القبائل العربية.

٢٥ - خيبر ذات الحصون والعيون والنخيل.

توفي الأستاذ عاتق بن غيث البلادي في أثناء إعداد هذا الكتاب في يوم الثلاثاء ٢/ ٣/ ١٤٣١هـ الموافق ١٦/ ٢/ ٢٠١٠م رحمه الله.

ملخص الرحلة:

بدأت رحلة عاتق البلادي من المدينة المنورة في ١/ ٧/ ١٣٩٤هـ الموافق ٢٠/ ٧/ ١٩٧٤م. وصل إلى خَيْبَر مروراً باللِحْن والصُّلْصَلَة وغيرها من القُرى.

لم يمكث في خَيْبَر كثيراً، ومنها إلى العِشَاش التي كانت تُسمّى قديماً (سَلَاح). فنزل على البيت الوائلي الشهير: (الَايْدَا)، فأكرمهم فهد بن علي الَايْدَا، وتجوّل معهم في الأماكن الأثرية الموجودة في العِشَاش، وزودهم بما تيسر من تاريخ المنطقة.

Scanned with CamScanner

ومن العِشَاش إلى الجهراء (الاجْهَرَاء)، التي كانت تُسمّى قديمًا: «الجِنَاب»، وعند أحد أبناء وائل نزلوا، فأكرم نزلهم هذا الوائلي.

ومن الجهراء (الاجْهَرَاء) أكمل الأستاذ البلادي المسير إلى تَيْمَاء، وتحدّث عنها وعن بعض تاريخها القديم والحديث. ومن تَيْمَاء إلى تبوك حيث حَطَّ رحاله في مكان عمله في الجيش السعودي.

تجوّل في شمال وغرب تبوك. وفي فترة لاحقة دخل الأردن وتجوّل فيها.

في هذه الرحلة سجّل جميع مرئياته، وتحدّث عن القبائل التي مر بها، وأسهب في وصف الأطلال، فكان بحق من أفضل من كتب في هذا الباب، حيث إنه قد وقف على جميع ما كتب، فكان وصفه قد أعطانا صورة واضحة حتى كأننا معه في هذه الرحلة. وأنا كمتابع قد استمتعت كثيراً وأنا أقرأ هذه الرحلة؛ حتى وإن اختلفت معه في بعض ما جاء فيها!! وشهادة حق، وللأمانة، فإن الأستاذ عاتق البلادي كاتب من الطراز الأول قَلَّ أن يوجد مثله في هذا الزمن.

Scanned with CamScanner

قبيلة عنزة
في رحلة البلادي



يقول عاتق البلادي في ص١٥ عندما وصل خيبراً: **ولم نلبث كثيراً فهبطنا وادي السَّلَمَة، وهو واد يمر بسفح جبل عطوة من الشمال وبطرف قرية (الشُّرَيْف) من الجنوب، وقد وصل إليه اليوم عمران خَيْبَر وفيه قرية على جال الطريق على الضفة اليسرى لوادي السَّلَمَة، كانت من صنادق[1] ثم عمرت، رأيتها قبل إعادة طبع هذا الكتاب.**

ومنه دخلنا قرية الشُّرَيْف أم خَيْبَر وقصبته، فيها مقر الإمارة وكل دوائر الحكومة، تقع بين واديين: وادي السَّلَمَة في الجنوب، ووادي الصُّوَيْر في الشمال، وهي على ظهر الحَرَّة، وكانت تُسمى قرية بِشْر بطن من عنزة يظهر أنهم هم الذين أسسوها فنُسبت إليهم، ومنها ظهرت لنا سلسلة جبال حَجَر في الشمال، وكذلك رأس جبل غمرة وجرس وعتاب.

وخَيْبَر اليوم بلاد واسعة تضم أودية عديدة وقرى كثيرة آهلة بالسكان، ومُلَّاك مزارعها - في الأصل - قبيلة عنزة، ثم عامَرُوا أهل خَيْبَر - وهم جنس

---

(١) صنادق: مفردها صندقة، وهي البيوت التي تبنى بالخشب والصفيح.

من الزنوج - على تلك المزارع الواسعة بالنصف، يقوم الخيبري بغرس النخل وحرث الأرض وسقي المزارع، أما العنزي فلا عليه شيء من ذلك وله نصف الغَلَّة يستلمها معبأة من المربد. اهـ.

قبل عشرة قرون تقريباً، وفي حدود القرن الرابع الهجري، قَسَّم الشيخ الطيَّار خيبراً على قبيلة عنزة؛ لذلك سمي الطيَّار: أبو عنزة. وبما أن عنزة بدو رُحَّل فقد جعلوا عبيدهم في مزارعهم وبساتينهم يحرثونها ويزرعونها ويجدّون النخل. وعندما تركت بعض قبائل عنزة الحجاز إلى نجد وشمال الجزيرة العربية، وتفرَّقت في بلاد الله الواسعة، فإنهم يبيعون أملاكهم على من بقي من أبناء عمهم من أبناء وُلْد علي والفقْرَا (الأفْقَرَا) وغيرهم.

وبعد دعوة الدولة السعودية الشعب السعودي إلى تحرير العبيد، في عهد الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود، في حدود عام ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م، حررت قبيلة عنزة عبيدها ومواليها، فتملَّك بعضهم في خيبر، بحكم أنهم من سكانها ومن أعرف الناس بها.

وفي ص٢٣ وتحت عنوان: سكان خَيْبَر قال البلادي: **كأي بلدة عريقة لها ضواحي كثيرة يكون سكانها مزيجاً من الحضر والبدو، فالسكان الذين لهم الاسم والشهرة عما قبيلتا عنزة وبنو رَشِيْد، فالأولى تمتلك جُلّ نخيل خَيْبَر وتمتد ديارها من جنوب خَيْبَر إلى الجِنَاب(١) فتَيْمَاء ثم مشرقة إلى قرب حائل، والثانية تمتد ديارها من شمال المدينة شاملة جُلّ الحِرَار(٢) حيث لها الصُّلْصَلَة والبحرة مارة شرق نخيل خَيْبَر إلى جبل جرس ثم شمالاً شرقياً إلى حَرَّة ضَرْغَط، مائلة شرقاً على فروع وادي الرَّمَة، ولها هناك**

---

(١) الجِنَاب: هي الجهراء أرض المنابهة من عنزة.

(٢) مفردها حَرَّة.

Scanned with CamScanner

الحَائِط[١] والحُوَيِّط[٢] والحُلِيْفَة. أما السكان الحضر في قرى خَيْبَر فجُلُّهم من السود المُوَلَّدِيْن، وأصل هؤلاء العبيد من الذين يشتريهم مُلَّاك النخيل فيوكلون إليهم العناية بتلك النخيل كالتأبير والسقي والجداد، ثم تحرروا فتكاثروا فصاروا بيوتاً لها أسماء وأنساب واصبحوا يشاركون المُلَّاك في المزارع على نظام المعامر المعروف في الحجاز. اهـ.

الحَائِط (فَدَك) والحُوَيِّط (يَدِيْع) للدَّهَامِشَة من عنزة، وبعد أن ضغطت عليهم الدولة السعودية الثانية في الربع الأخير من القرن ١٣ الهجري هاجروا إلى شمال الجزيرة العربية وإلى وديان عنزة. ولا يزال موالي الدَّهَامِشَة في هاتين البلدتين. وبعد أن تركوهما بادية الدَّهَامِشَة؛ وبعد توحيد المملكة العربية السعودية على يد المغفور له - بإذن الله - الملك عبد العزيز آل سعود عام ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م، سكنتهما قبيلة بني رَشِيْد.

أما الحُلَيْفَة فهي للرَّسَالِيْن من السَّبَعَة من عنزة ولا زالت. وبعد توحيد المملكة العربية السعودية أصبح الوطن واحداً، وأصبحت الحُلَيْفَة مدينة للجميع.

والحَائِط (فَدَك) والحُوَيِّط (يَدِيْع) والحُلَيْفَة كلها تتبع إمارة منطقة حائل في العهد السعودي.

وفي ص٢٥ قال البلادي: **قضينا وقتاً ليس قليلاً في التنقل بين الشُّرَيْف ومْكِيْدَة وزَبَرَان وقبيل الظهر واصلنا رحلتنا باتجاه الشمال..**

إلى أن قال: **ومقصدنا الآن بلدة العِشَاش التي تقع على ٤٣ كيلاً شمال الشُّرَيْف. وصلنا إلى بلدة العِشَاش القائمة على أنقاض سَلَاح القديمة، وقبل**

---

(١) الحائط هي: فَدَك قديماً.

(٢) الحُوَيِّط هي: يَدِيْع قديماً.

وصولنا ونزولنا على الَايْدَا اتفقت مع الابن سعد بأن أقول لمضيفنا: إننا قد تغدينا، ولن نلبث أن نخرج من عندهم فنتغدى في الطريق. سألت عن بيت علي بن فرحان الَايْدَا فدللنا عليه، وقادنا صبي إلى مجلس مُتطرِّف عن بيوت السكن، ولم يطل بنا الانتظار حتى حضر فهد بن علي الَايْدَا، وهو شاب حسن البشر دمث الأخلاق، ورث عن أسرته الكرم واحترام الرجال، ورحَّب فهد، فقلنا له ما اتفقنا عليه، فلم نرَ منه ما يدعو إلى التأكيد، وعنده حضر نفر من عنزة، واليِدْيَان هم شيوخ وُلْد علي من عنزة.

وجعلنا نسجل ما يمليه فهد ورفاقه، فإذا الساعة قد جاوزت الثالثة والنصف، فاستأذنا فاقترح عليَّ أن نُشرف من مرقب يُشرف على البلدة لنرى بالعين (يُمْنَاً وجُبَارَاً) الموقعين التاريخيين فصعدنا المشراف فإذا المكانان شمالاً شرقياً من العِشَاش يريان بالعين، وأشار فهد إلى طرف العِشَاش من الجنوب ليرينا موقع بلدة سَلَاح التاريخية.

ولما هبطنا من المرقب أردت توديع فهد الكريم، فأخذ بيدي وأشار إلى مكان ليس بالبعيد فإذا ذبيحة تسلخ وقدر مركب على النار! وقال: هذا عشاكم على النار.

لقد جعلنا فهد أمام الأمر الواقع فلم نبد معارضة لأن المعارضة في مثل هذه الأمور غير مقبولة في قانون الضيافة، فدخلنا مسجد أبي فهد فصلينا العصر، ولما خرجنا من الصلاة كان قد نزل عليه ضيوف من عنزة الشمال، فطلبت منه أن نرى آثار سَلَاح فأرسل معنا سيارة (ونيت) فوقفنا على الآثار فإذا هي على ربوة ترتفع عن مجرى السيل، يمكن أن نميز منها المسجد وأساسات أخرى على شكل مربعات، وإلى جانبها فُقُر عين سَلَاح القديمة مجصصة ظاهرة.

وكانت سَلَاح بلدة في عهد رسول الله ﷺ، ولما عاد من فتح خَيْبَر أُخبر

أن عُيينة بن حِصْن جمع جمعاً من غَطَفَان فعقد ﷺ لبشير بن سعد الأنصاري إلى يُمْن وجُبَار في شوال سنة سبع من الهجرة [٦٢٩م] وبعث معه ٣٠٠ رجل فساروا حتى نزلوا بسَلَاح ثم ساروا إلى يُمْن وجُبَار فأصابوا غنائم وأسروا رجلين. وجُبَار واد تراه من مشراف العِشَاش (سَلَاح) شمالاً شرقياً والاسم لماء هناك، ويُمْن ماء - أيضاً - في نفس الوادي يصب في وادي العِشَاش من أعلاه. وظلّت سَلَاح محطة للحجاج حتى تحول الطريق الشامي إلى تبوك فالعُلا فاندثرت، ثم بنى بعض العنزيين عِشَاشَاً بجوار البلد القديم فسُمِّيَت العِشَاش.

ولما عُبِّد طريق شمال الحجاز أخذت العِشَاش في الانتعاش، وحفر أهلها - ومنهم مضيفنا - آباراً على فُقُر عين سَلَاح القديمة ولكن الماء ليس غزيراً وعليها اليوم زراعة تتكون من عشرين بئراً، ويُقدَّر عدد بيوتها بمائة بيت أو أكثر، وبها مقاه ومحطة محروقات.

وروي عن رسول الله ﷺ قوله: «يوشك المسلمون أن يُحاصَرُوا إلى المدينة، حتى يكون أبعد مسالحهم بسَلَاح»[1].

وبين المغرب والعشاء كنا قد قضينا مأربنا فتحركنا من بلدة العِشَاش مودعين اليِدْيَان الكرام باتجاه الشمال.

خرجنا من العِشَاش في التاسعة ليلاً ميممين الشمال في ليلة حالكة السواد، وليس من عادتي في الرحلات أن أسير ليلاً غير أن هذه ليست المرة الأولى التي أسير فيها على هذا الطريق، بل سرت فيه سابقاً مرات عديدة فوجدت أنه لا لزوم لانتظار الصباح.

وفي الساعة العاشرة إلا ثلثاً وصلنا إلى حَفِيْرَة الاَيْدَا على ٨٧ كيلاً من

---

(١) رواه أبو داود، ح٤٢٥٠، وصححه الألباني.

خَيْبَر. وكانت هذه بئراً حفرها فرحان الَايْدَا أمير وُلْد علي من عنزة، في واد صغير هو أحد روافد وادي الزهيراء من أعلاه فاتخذها قاعدة له وحصنها بأن وضع مدفعا رشاشاً على رأس أَكَمَة شمال الحَفِيْرَة تسمى ضلع العبد لسوادها، فكانت تصد غارات القبائل التي تغير على وُلْد علي وأهمها كانت غارات مَنْقَرَة شيخ بِلي السَّرَاة، فقد كان هذا يشن غارات على عنزة وشَمَّر وبني عَطِيَّة والحُوَيْطَات، وفي إحدى هذه الغارات قُتل فرحان الَايْدَا على ماء عُرَيَدة شمال غربي الحَفِيْرَة، ثم تولى بعده ابنه محمد بن فرحان الَايْدَا وكان له دور في إخضاع بِلي فصارت له حظوة عند الدولة السعودية حتى صار عطاؤه السنوي - فيما سمعت - مبلغ (٧٥) ألف [ريال]. وفي سنة ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م تحول البِدْيَان من الحَفِيْرَة إلى العِشَاش (سَلَاح) المتقدم ذكرها. وقد اندثرت اليوم الحَفِيْرَة[١] فلم يبق من آثارها سوى البئر وخرائب قليلة، وهي مورد للبادية هناك، ومن الحَفِيْرَة يبدأ الجِنَاب[٢] شمالاً واسعاً ممتداً.

تجاوزنا الحَفِيْرَة فلم نلبث إلا دقائق حتى اعترضنا وادي سرَّاء: واد يأتي من الأشياخ غرب الحَفِيْرَة فيعترض الطريق من اليسار إلى اليمين فيكوّن رأس وادي (قوّ) الوادي الذي يخترق الحَفِيْرَة (الجِنَاب) مسايراً الطريق حتى يصب في نِقْرَة الحِيْرَان جنوب تَيْمَاء. والجِنَاب أرض فضاء صحراوية واسعة تمتد من حَفِيْرَة الَايْدَا المتقدمة حتى تقرب من مدينة تَيْمَاء. وتتصل شرقاً بصحاري نَجْد الواسعة، أما غرباً فيحف بها هضب أشعل ممتد من الجنوب إلى الشمال، يسمى جنوبه هضب واقصة: بئر هناك، وشماله هضب عردات: ماءتان تسمى إحداهما عُرَدَة، والثانية عُرَيْدَة. ونمنا في هذا الخبت الواسع الذي ذكرتنا نسائم قيظه ببرد الشتاء.

---

(١) أقامت الدولة السعودية ممثلة بإمارة المدينة المنورة مركزًا في الحَفِيْرَة عام ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، وللمركز رئيس وموظفين، وليس حوله غير محطة الوقود.

(٢) الجِنَاب: هي الجهراء (الاجْهَرَا) أرض المَنَابِهَة من عنزة.

وفي الصباح واصلنا سيرنا مشملين، وكنا نرى جبل ردام إلى يسارنا بارزاً كجزء في هضب واقصة الأنعام، وإلى اليمين ظهر حزْم معترض يطلق عليه جبل رؤاف، وهو أقل من أن يكون جبلاً، وله شهرة في كتب الجغرافيا، وبعده على مرأى يظهر جبل شامخ حائز في هذه الفلاة الواسعة، هذا جبل بِرْد المشهور أيضاً، وهو جبل أمغر يساير الطريق مسافات بعيدة، وقد توهَّم (فلبي) أن القُرى منتشرة على جوانبه! والواقع أنه خال من السكان والعمران ولا توجد قربه إلا ثمائل تحدث من السيول ثم تجف في القيظ فلا يكاد يروده أحد. ويطلق على الجزء الأعظم من الجِنَاب اسم الجْهَرَاء (الاجْهَرَا).

واصلنا سيرنا تلفحنا نسائم الصباح العليلة فمررنا بمحطة للمحروقات ومقهى في وسط الجهراء (الاجْهَرَا)، وفي الطرف الجنوبي لِنقْرَة الحِيْرَان رأينا يمين الطريق فريق من بيوت الشعر لحي من قبيلة الخَمَاعِلَة من عنزة فهزعنا إليها فرحب بنا رجل منهم وشبَّ النار وقدَّم لنا تمراً ولبناً لم يناسب ذوق سعد[1] فظل بلا إفطار، وجاءت عجوز تتقهوى معنا وتمازحنا وكانت تقول: لا تكتبوا أسماء ديارنا فتخبروا بها الحكومة! وإلى الجنوب منا كانت قَارَة الحِيْرَان: قَارَة على يمين الطريق تشرف على نِقْرَة الحِيْرَان[2].

ونِقْرَة الحِيْرَان: أرض في نهاية الجهراء (الاجْهَرَا) من الشمال، كثيرة النقر التي تتخللها الصخور الضخمة أرضها رخوة يكسوها نبات الرِّمْث، وكانت السيارات تنغرز عجلاتها فيها فتبقى أياماً وليالي حتى عُبِّد الطريق، وهي من مرابع قبيلة عنزة.

ومن نِقْرَة الحِيْرَان ترى جبل غُنَيْمَات أو غُنَيْم المعروف قديماً بجبل حَدَد كان من أرض كَلْب.

---

(١) سعد بن عاتق البلادي.

(٢) الحيران: جمع حوار، وهو ولد الناقة في السنة الأولى.

قال النابغة:

ساق الرُفَيدات من جَوْش ومن حَدَد   وماش من رهْط ربعيّ وحجّار

وهو جبل أسمر تراه شمالاً يشرف على تَيْمَاء من الشرق في شكل سلسلة تمتد شمالاً حتى تكنع في وادي تَيْمَاء مطلع شمس عن المدينة، بقرب. ويقال: إن الصنم (سلم) على قمة هذا الجبل لا زال ظاهراً.

ويتصل بالنِّقْرَة من الشمال القرشع: أرض خشنة تخرج فيها من النَّقْرَة فتسير فيها إلى سفح جبل حَدَد، ثم تهبط على تَيْمَاء، وهنا ينقطع عن نظرك ذلك الهضب الذي ظل على يسارك من الحَفِيْرَة حتى هذا المكان، ثم تظهر جبال خشنة غرباً على رأس وادي تَيْمَاء، منها جبلة - جبلتان - والفرول وغيرها. اهـ.

وفي ص٩٨ تحدث البلادي عن قبيلة عنزة فكان مما قال:

عنزة: من أكبر القبائل العربية اليوم، تمتد ديارها في شمال الحجاز من خَيْبَر ممعنة شمالاً على الصحراء العربية بين الأردن والعراق إلى شمال شرقي سورية عند الرَّقَّة وتلك الجهات، وفي الشرق تقترب من حائل وشط الفُرات الغربي. وهم بنو عنزة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد. اهـ.

وفي نفس السياق قال البلادي: **والغريب أن عُزوة عنزة (عيال وائل، وابن وائل). وإذا ناقشت نسابيهم وأهل المعرفة منهم قالوا: نحن بنو عنزة بن وائل، منا كُليب! وليس هناك عنزة بن وائل، بل عنز بن وائل وهو أخو بكر وتغلب ابني وائل، وتيامنت عنز حتى نزلت حول جُرَش، فمنهم اليوم قبائل عسير.. وإجماع العارفين بالأنساب أن القبيلة الموجودة اليوم هم بنو عنزة بن أسد بن ربيعة بن نزار.** اهـ.

قال الباحث الأستاذ نايف بن غانم الفقير[1]: من الملاحظ أن كل

---

(١) قبيلة الرُّوَلَة في التاريخ، فائز الرويلي.

العرب - سواء القدماء أو المعاصرين - كانوا يهتمون بالاسم الحي والمتداول للقبيلة، فكثيرًا ما تظهر أسرة داخل قبيلة وتصبح مع مرور الوقت قبيلة بحد ذاتها، وقد يموت الأصل الذي أتت منه. فعلى سبيل المثال: تفرع الرُّوَلَة من الجِلَاس؛ ولكن الرُّوَلَة اسم حي متداول، في حين أن اسم الجِلَاس في طريقه للزوال، فلا يوجد اليوم من يعرف أنه الجِلَاسِي مباشرة دون المرور بالرُّوَلَة أو الأَشَاجِعَة، خاصة حين يتم السؤال عن تسلسل نسب الرُّوَلَة.

يُعطينا هذا مُبرراً واقعياً لاختفاء الكثير من مُسَمَّيَات القبائل وانقراضها، وهي التي كانت معروفة في قرون سابقة مثل: بَكْر، حَنِيْفَة، رَبِيْعَة؛ لأن العرب ينظرون الى عشيرتهم المباشرة والتي يتولد منها الاحساس بوحدتهم مع أبناء قبيلتهم وشعورهم إنهم قبيلة واحدة تحت مُسَمَّى مُعَيَّن، ويبقى الاسم الذي تفرعوا منه حيّاً في ذاكرتهم فترة من الزمن حتى يتم نسيانه بشكل نهائي، وبذلك تنقرض القبيلة كإسم وليس بالطبع بانقراض أبنائها، ولا يعرف إلا اذا كان قد تمَّ تدوينه من قبل مؤلف أو باحث في الفترة التي كان خلالها حيّاً. وهناك ملحوظة هامة وهي: أن الفرع قد يستقل ويشتهر كقبيلة في ظل وجود الأصل وبقائه، فعلى سبيل المثال وُجدت قبيلة (بِلي) في الوقت الذي لا زال أصلها (قُضَاعَة) موجوداً، ومع الوقت اختفى اسم قُضَاعَة من الوجود بينما لا تزال قبيلة بلي موجودة حتى يومنا هذا.

يجدر أن نقول: إنَّ الجهل - إنْ وُجد - في نسب أي قبيلة أو أسرة معاصرة لا شأن له بمكانة القبيلة، ومكانة القبيلة تتحدد بكونها عمود نسب قائم بحد ذاته يعرفه الناس المعاصرون له.

إخضاع نسب قبيلة عنزة لقواعد النسب:

أول قاعدة ننطلق منها هي: (**الناس مؤتمنون على أنسابهم**)، ولن نعتبرها فقهية شرعية؛ لأن الحديث الوارد بذلك ضعيف، ولا يصحُّ نسبته إلى الرسول ﷺ، بل هو مأثور عن الإمام مالك، لذلك نعتبر هذه القاعدة قاعدة علمية بحتة بعد أنْ نُضيف اليها عبارة: مالم يدّعوا الشَّرَفَا؛ لأنها تُضاف في أدبيات القضاء الإسلامي، فتُصبح: (**الناس مؤتمنون على أنسابهم مالم يدّعوا الشرف**). ويستخدم القضاة هذه القاعدة لتحديد المواريث خاصة، وليس لمجرد أن يقول فلان: إنه من القبيلة الفلانية، ونستخدمها عندما يتم الحديث عن الأنساب والقبائل والأسر الحاضرة والحية، ولا يجوز استخدامها في ترجيح نسب قبيلة حية إلى قبيلة منقرضة، لا سيّما إنْ كان الاسم القديم له من الشرف ما يتعدّى القبيلة الحية، فمثلاً لو سألنا أيّ شخص عن اسمه الثلاثي وأجاب، علينا تصديقه طبقاً لهذه القاعدة إذا لم توجد شبهة أو مبرر لدى الشخص لعدم ذكر اسمه الحقيقي، وعند سؤال أيّ شخص من عامة قبيلة عنزة عن نسبه سيقول من (عنزة وائل)، أو (من عَنَّاز بن وائل)، أو يقول: (العنزي الوائلي)، دون ذكر تفصيلات أخرى، ودون ذكر لأسماء بَكْر أو تَغْلِب أو غيرها، بل دون أن يجيب عن وائل نفسه، من يكون؟! ومن أبوه؟!

ويُجمع أبناء عنزة قاطبة على أنهم من قبيلة عنزة الوائلية بلا استثناء؛ حتى وإنْ جهلوا أصل مُسمّيات عنزة ووائل، ولو كان هذا النسب (نسب عنزة الحالية الى وائل) هو وليد هذا الزمن الحديث ولم يظهر إلا توّاً، لقلنا إنَّ هذا النسب غير ثابت وغير مؤكد، إلا أنَّ الاسم (عنزة الوائلية) عرفه كثير من أبناء عنزة في الخمسة قرون السابقة، فهذا النَّجَيْدِي المصلوخي العنزي يحث قبيلته على مناصرته، ويقول قبل أكثر من ثلاثة قرون:

Scanned with CamScanner

قُـم يـا نِـدِيْـبِـي بـالـعَـجَـل لا تُـوَنَّـا ازْبِن على اللي زَبَّنوا كل خايف
رَبْعِي بني وايل اسْنَادِي وعُزْوِتي مِرْوِيْن حَدّ مُصَقَّلات الرَّهَايف
سَلِّم على صبيان وايل جميعهم كبارهم وصغارهم باللفايف

فهذه القصيدة من أحد شعراء قبيلة عنزة يؤكد إن القبيلة: (عنزة) تعرف (بعيال وايل)، وهو لم يقرأ أي كتاب في الأنساب أو غيره؛ إنما هي عزوة هذه القبيلة وقد توارثوها، ومعظم الشعر النبطي القديم الذي ذكر أو أشار الى قبيلة عنزة استخدم كلمة (وائل). وقد عرف أبناء القبائل العربية الأخرى بسليقتهم اسم وائل وأنه يشير إلى قبيلة عنزة تحديداً وتخصيصاً وليس لغيرها، فهذا الأمير عبيد بن علي بن رَشِيْد يتحدث عن انتصاره على قبيلة عنزة في القَصِيْم سنة ١٢٥٧هـ/ ١٨٤١م حيث قال:

الحمد لله والي عدل الموازين صارت على القُصْمَان واولاد وايل

وهذه قصيدة الشاعر محمد أبا الرُّوْس من الذُّوُبَة من قبيلة حَرْب بالشيخ عَلُّوْش بن ظُوَيْهِر من وُلْد سليمان من عنزة، عندما نَقَدَ القهوة في ديوان ابن رشيد بحائل:

تستاهل الكيف الحَمَر يابن وايل وانت الذي تستاهل الكيف كلّه
لولاك يا عَلّوش ماحد(ن) فطن له ياللي نقدته وسط ديوان حايل

ولم تُعرف قبيلة أو أسرة أخرى في العشرة قرون الماضية بأنهم (أبناء وائل)، أو (وائليين)، إلا قبيلة عنزة الحالية، ومن يتفرع منها عُرْفاً وشُهْرة.

نخلص إلى أنَّ عُرْف قبيلة عنزة المتوارث وليس الطارئ يؤكد إنهم (قبيلة عنزة الوائلية)، فهم مأمونون على أنسابهم بموجب قاعدة: **(الناس**

مؤتمنون على أنسابهم)، والتي ذكرناها آنفاً، أمَّا مَنْ يدَّعون أنهم من وائل فقط وليس من عنزة فهم طارئون بهذا الأمر، ولم يذكره إلا بعض مثقفيهم المعاصرين، وهؤلاء ينشرون كلامهم لبعض أبناء قبيلتهم، ثم يريدون تضليل الناس بذكر هذه القاعدة، ولو كان نسبهم في وائل كما يدَّعون لعرف الناس عنهم ذلك بلا بحث أو تنقيب. ويبقى أن نعرف من هو وائل هذا الذي تنسب إليه قبيلة عنزة الحالية؟

أقول: هنا تنتهي هذه القاعدة، وتصبح عديمة المفعول، ولا بد من الرجوع إلى كتب الأنساب والتاريخ؛ لعل فيها ما يجيب على هذا السؤال، وإذا لم نجد دليلاً قوياً ومرجحاً، فيجب علينا الاكتفاء باسم القبيلة الحالي دون أي ذكر أو تخرصات من شأنها تشتيت الناس بأقوال المؤلف فلان أو علّان.

بالرجوع إلى كتب الأنساب والتاريخ، نجد عنزة تنسب مباشرة الى أسد بن ربيعة، بينما ينسب وائل الى قاسط وهو حفيد لأسد بن ربيعة، فعنزة واسمه عامر يكون شقيق الجد السادس لوائل، ومع هذا فإن العديد من النصوص أكدت أن عنزة بن أسد قد دخلت في بكر بن وائل، وصارت حيَّاً فيها، لا تُقال مشيخة ربيعة في فرع بكر، وإن قبيلة أخرى تشكلت داخل قبيلة ربيعة، وهي قبيلة اللهازم التي قال عنها القلقشندي: «اللهازم بطن من بكر بن وائل العدنانية».

وقد فصل آخرون بطن اللهازم المذكور منهم مرتضى الزبيدي في كتاب: تاج العروس حيث قال: «وعَنَزَةُ بنُ أَسَدِ بن ربيعةَ بن نزار بن مَعَدٍّ، واسمه عَمْرو: بطْن من أَسَد وهو من اللهازم».

وهناك نص للنويري في كتاب: نهاية الأرب في فنون الأدب، يثبت إن اللهازم قبيلة من أسد ومنها عنزة، حيث يقول: «وأمَّا أسد بن ربيعة فمن

ثلاث بطون: أفصى بن دعميّ بن جديلة بن أسد، وعنزة بن اللهازم بن أسد، واسمه عمر، وعميرة بن أسد؛ وإلى عنزة ينسب كل عنزيّ محرك النون».

وهناك الكثير من النصوص التي تؤكد دخول عنزة بن أسد في بكر بن وائل، فعنزة وبكر فرعان من جد واحد هو أسد بن ربيعة، فعرف اسم هذا الجمع فيما بعد بـ (عنزة) وصيحتهم: (وائل)، فعنزة نسبة إلى الفرع عنزة بن أسد، ووائل العزوة والنسب الأعلى نسبة إلى بكر بن وائل، وبسبب اقتران الفرعين عنزة ووائل قيل مع تقادم الزمن على القبيلة: عَنَّاز بن وائل، وهو الاسم المتداول اليوم بين أبناء القبيلة، ولا يزال العنزيون ينسبون أنفسهم نسبة لاقتران الفرعين مع بعضهما البعض.

والمتتبع لأحداث هذين الفرعين من ربيعة، يجد أنهما يشكلان عشيرة عنزة الوائلية الحالية، فعنزة إذن كانت تعد فرعاً من بكر بن وائل، ويجمعهما في بكر فرع اللهازم، حيث تنقسم بكر بن وائل إلى فرعين هما: اللهازم والذهلين. وقد أشار إلى ذلك ابن الأثير والقلقشندي والنويري وغيرهم، وأكد هذا التفريع لقبيلة بكر بما فيها عنزة الشاعر جرير بن عطية التميمي إذ قال:

وأرضى بحكم الحيّ بكر بن وائل إذا كان في الذّهَلَيْن أو اللهَازِمِ

وقال الأصفهاني في مصنفه الشهير: الأغاني، في ترجمته للشاعر أبي جلدة اليشكري: «بطون بكر بن وائل على جذمين، جذم يقال له: الذُّهْلَان، وجذم يقال له: اللهَازِم. فالذُّهْلَان: بنو شَيْبَان بن ثَعْلَبَة بن يَشْكُر بن وائل، وبنو ضَبِيْعَة بن ربيعة. واللهَازِم: قيس بن ثعلبة، وتيم اللات بن ثعلبة، وعِجْل بن لجيم، وعنزة بن أسد بن ربيعة».

ومما يؤكد إن عنزة ظَلَّت متصلة ببكر بن وائل طوال التاريخ، وتعتبر في عدادها، حيث إن عنزة هو شقيق الجد السادس لوائل بن قاسط، ماورد في حوادث التاريخ عن بكر بن وائل، ويقترن فيه اسم عنزة في الجاهلية، حيث حدثت معركة الشيطين بين بكر وتميم، وكان شاعر بكر من عنزة واسمه رشيد بن رميض العنزي، وهو القائل بهذا اليوم:

وما كان بين الشيطين ولعلع ... لنسوتنا إلا مناقل أربعُ

فجئنا بجمع لم ير الناس مثله ... يكاد له ظهر الوريعة يظلعُ

فأرعن دهم تنسل البلق وسطه ... له عارض فيه المنية تلمعُ

إذا حان منه منزل القوم أوقدت ... لأخراه أولاه سنا وتيفعوا

ورد عليه شاعر تميم بقوله:

وجئتم بها مذمومة عنزية ... يكاد من اللؤم المبين تظلع

وما منكم أفناء بكر بن وائل ... لغارتنا إلا ذلول موقع

ومن حوادث العصر الإسلامي: اشتراك عنزة وبكر في حرب الرِّدة يوم جواثا سنة ١٢هـ/ ٦٣٣م، التي أوردها المؤرخ الطبري في تاريخه، وفتحهم لعين التمر سنة ١٦هـ/ ٦٣٧م، حيث كان على جيش بكر كل من: المثنَّى بن حارثة الشيباني والأفكل العنزي، وقتالهم مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه في معركة الجمل سنة ٣٦هـ/ ٦٥٦م، وصفين سنة ٣٧هـ/ ٦٥٧م، ولن نجد حادثة تخوضها بكر إلا وعنزة فيها؛ مما يدل عل الاقتران الذي لا ريب فيه، وسجله التاريخ، وطفحت به كتب التراث العربي القديم. ومن ثم توارث أبناء هذه القبيلة مُسَمَّى (وائل) جيلاً بعد جيل مع شيوع اسم عنزة الأقرب في عمود النسب لربيعة الجد الأعلى، ودخلت تَغْلِب بن وائل فيما دخلت به عنزة وأصبحت في

اللهازم، ثم عمم اسم عنزة عليهم؛ لأن اسم العم أولى بالغلبة والشيوع من اسم ابن الأخ، فعنزة هو عم بَكْر وتَغْلِب بسابع جد، وهو جديلة الذي هو شقيق عنزة بن أسد بن ربيعة.

القاعدة الثانية: الأنساب تُعرف بالشيوع والتواتر والرفع بالبطون وليس بتسلسل الآباء.

قال ابن حَزْم في كتاب جمهرة أنساب العرب: «فعدنان من ولد إسماعيل بلا شك في ذلك، إلا أن تسمية الآباء بينه وبين إسماعيل قد جهلت جملة، وتكلم في ذلك قوم بما لا يصح؛ فلم نتعرض لذكر ما لا يقين فيه؛ وأما كل من تناسل من ولد إسماعيل - عليه السلام - فقد غبروا ودثروا، ولا نعرف أحداً منهم على أديم الأرض أصلاً، حاشا ما ذكرنا من أن بني عدنان من ولده فقط».

فهذا النص من ابن حزم - رحمه الله - يؤكد عدم ضرورة من يتحدث عن تسمية الآباء في النسب، والاكتفاء بالقطع بالعموم، ولإسقاط هذه القاعدة على نسب عنزة الحالية نستطيع أن نقول: إن كل عنزة الحالية هم من بكر بن وائل، أو كما يعرفون ببادية العرب ووفق السليقة (بني وائل) بالعموم دون تفصيل؛ لأن ذلك شاع وتواتر في كتب المتقدمين، ويتوافق مع العُرْف المتوارث عن قبيلة عنزة الحالية في شبه جزيرة العرب وصلتها بوائل، والتي اختفى الكثير من مسمياتها في عصرنا الحالي، ويمكن أن نعتبرها قد انقرضت بالمسمى ولا يعرف من له صلة بها من عرب الزمان إلا من يحتفظ بدليل قوي مثل عنزة ولقبها الوائلي؛ لذلك فهو - أي ابن حَزْم - يُقِرُّ قاعدة أخرى مهمة ذات صلة بقاعدة الشيوع والاستفاضة عن صحة الانتساب للقبائل المُنقرضة أو المُنقطعة بالاسم بدون دليل قوي، فيقول ما نصه: «وأما الذين يسمونهم العرب

والنسَّابون العرب العاربة، كجرهم، وقطورا، وطسم، وجديس، وعاد، وثمود، وأميم، وإرم، وغيرهم، فقد بادوا؛ فليس على أديم الأرض أحد يصحح أنه منهم، إلا أن يدَّعي قوم ما لا يثبت».

فقبائل مثل: جرهم وقطورا وطسم وجديس، لم يكن لها وجود في عهد ابن حَزْم، لذلك لا يوجد على الارض من يصح أنه منهم إلا بدليل وقرائن قوية لا تقبل الشك، وقس على ذلك مُسميات: ربيعة وبكر وتغلب وحنيفة وقيس عيلان، فهي مسميات قد انقرضت منذ عدة قرون، ولا يصح الانتساب اليها إلا بدليل، وهذا لم يصح إلا لقبيلة عنزة بعمومها، إذ ثبت دخولها في بكر بن وائل، وتم اتصالها بالتالي بقبيلة ربيعة رغم انقراض الاسم الأخير، أو مثل بِلي وجُهَيْنَة الثابت نسبهم في قُضَاعَة رغم انقراض اسم قُضَاعَة من الوجود.

وعلينا في حالة عدم القدرة على إثبات نسب قبيلة ما إلى القبائل القديمة المنقرضة، أن نكتفي باسم القبيلة الحي وما يتفرع منه دون تخرصات أخرى، وعلى هذا فليس من المنطق أن نعزل بطناً أو فخذاً منسوباً بالعموم والشهرة إلى قبيلة وذو اسم معاصر ونزعم له النسب المباشر للأسماء القديمة، مثل القول: بأن أسرة آل سعود من بني حَنِيْفَة وليست من عنزة أو بني وائل بمفهومها المعاصر، أو مثل القول: إنَّ الهزَازِنَة الحاليين ليسوا من الجِلاس بل هم من عنزة القديمة بمعناها القديم فقط، وأن هذا يناقض نسبهم الحالي، وغير ذلك من التخرصات التي أطلت علينا مؤخراً من قبل بعض المؤلفين المعاصرين، الذين لم يعرفوا الجمع بين الموروث المشهور، وماهو مدون بسجلات التاريخ القديمة. فنحن عندما نبحث في نسب وجذور قبيلة عنزة الوائلية، ونردها إلى أصولها القديمة الحالية إنما نأخذ البحث بإسمي عنزة ووائل

فقط؛ لأنهما الأقدم، وما تحت هذين الاسمين من فروع معاصرة مستجدة عبر الزمن إنما يفسر بما يفسر به نسب عنزة وعزوة وائل، فإن صح إن عنزة التي لها النسب هي عنزة بن ربيعة ووائل هو وائل ربيعة فكل من ينضم لعنزة المعاصرة بالشهرة والعموم جارٍ عليه هذا، فهم عنزيين وائليين في العموم. اهـ.

وفي ص١٠٠ قال البلادي: **ويذكر نسَّابو حَرْب وعنزة: أن عنزة كانت تمتلك كل ضواحي المدينة، ثم تمتد ديارها على طريق القيم إلى وادي الرَّمَة حيث كانت عُقْلَة الصقور، ديار الصقور من عنزة، وأن المكان - من المدينة - المعروف اليوم باسم العَطَن كان أعطان إبل ابن هذَّال أمير قبيلة العمارات (الاعْمَارَات) من عنزة.**

وظلت هذه ديارهم إلى أن أثار أحد شبانهم فتنة دارت على أثرها حَرْب طاحنة بين قبيلتي حَرْب وعنزة، سُمِّيَت وقائع المجلّلة، جلت على أثرها قبيلة عنزة من هذه الديار فنزلت قبيلة العمارات شط الفُرات الغربي.

وبما وصل إلينا من وثائق واستنتاجات فإن تلك الحرب دارت في أول القرن الحادي عشر الهجري. ثم ملكت قبيلة حَرْب ديار عنزة حول المدينة وفي نَجْد فهي فيها إلى يومنا هذا. اهـ.

رحم الله الأستاذ عاتق البلادي، وغفر له، فهو وإن كان كاتباً محققاً، وكان يقف على بعض المعالم الجغرافية بنفسه، إلا أنه لم يحقق مسألة ترك ابن هذَّال للحجاز. وكان يجب عليه أن يسمع جميع الروايات وجميع الأطراف، وأن يستبعد العاطفة منها، وأن ينظر في المصادر والمراجع هل ذكرت مثل هذا؟! خاصة التي عاصرت تلك الفترة التي يذكر فيها وقوع هذه الحرب بين قبيلة عنزة وقبيلة حَرْب. والمقصود بقبيلة عنزة هم العْمَارَات (الاعْمَارَات) فقط لا غير؛ لذلك ينبغي للقارئ الكريم أن ينتبه لذلك.

Scanned with CamScanner

دائماً ما يردد أبناء قبيلة حَرْب هذه القصة على مسامعنا نحن أبناء قبيلة عنزة، وهم قد سمعوها من آبائهم وأجدادهم كأي رواية يتناقلها خلف عن سلف، ودائماً الناس تذكر الذي لها ولا تذكر الذي عليها مما يخلق تصوراً عند الجيل أنهم هم الأفضل، وأنهم هم الذين لا يهزمون، فإذا أتيت إلى القبائل الأخرى تجد نفس الحكاية، وهذا يجعل الإنسان إذا سمع الحق الذي بخلاف ما تربى عليه أو سمعه، يجعله يرفضه، ولا يتصوره، ولا يعرضه على عقله، وهذا ما يعانيه أمثالي من الكُتَّاب والباحثين من أمثال هؤلاء للأسف.

أحداث المجلَّلة هذه ذكرها عاتق البلادي في أكثر من موضع في بحوثه ومؤلفاته رحمه الله. وقد تقصيت عنها فلم أجد لها أصلاً يستند إليه إلا عند قبيلة حَرْب وحدهم فقط، هم رواتها وهم سندها!! وبعد البحث والتقصي وجدت الآتي:

- قصة (المجللة) وقعت بنفس التفصيلات في عهد الرسول ﷺ، ذكر ذلك أهل السير والمغازي. حيث قام أحد اليهود في سوق بني قَيْنُقَاع بالمدينة بربط ثوب امرأة مسلمة، وهي جالسة، فلما قامت ظهرت عورتها، فصاحت، فقام أحد المسلمين بقتل اليهودي الذي آذاها، فاجتمع اليهود على هذا المسلم وقتلوه، فحاصرهم الرسول ﷺ؛ لغدرهم، فشفع فيهم رأس المنافقين عبدالله بن أُبيّ بن سلول، فأجلاهم الرسول ﷺ عن المدينة. هذه القصة تقمصتها قبيلة حَرْب ونسبوها لهم ومن كثرة تكرارها وتناقلها اعتقدوا أنها حقيقة مُسلَّمة للأسف.

- هذه القصة لا توجد عند قبيلة العْمَارَات (الاعْمَارَات) من عنزة ولا يذكرونها ولا يعرفون عنها شيئاً. بل إنها لا تُعرف عند القبائل المجاورة لعنزة وحَرْب على حد سواء، أمثال: جُهَيْنَة وبِلي ومُطَيْر

وبني رَشِيْد وسُلَيْم وعُتَيْبَة وشَمَّر وقَحْطَان؛ إذ كل هذه القبائل يتقاطع تاريخها مع بعضها البعض، ولو كان لهذه القصة أصل صحيح لجاءت على لسان هذه القبائل.

- لم ترد هذه القصة في المصادر والمراجع!! وحدث بهذا الحجم لا يمكن لأي مؤرخ أو كاتب أن يغفله. ومن خلال تتبعي للمصادر والمراجع لم أجد حتى إشارة لهذه الوقعة. ومؤرخو الحجاز ونجد قد كتبوا أشياء اعتيادية جداً. بل حتى مؤرخي العراق والشام لم يذكروا أن سبب هجرة العْمَارَات (الاعْمَارَات) من عنزة هو طرد القبائل لها من نجد أو الحجاز، والرحَّالة العرب والأجانب كذلك لم يذكروا ذلك، وهذه هي المصادر بين أيدينا.

- وفي الجانب الآخر هجرات العْمَارَات (الاعْمَارَات) من عنزة مرت بمراحل كثيرة، سواء من الحجاز أو نَجْد أو شمال الجزيرة العربية. ومع ذلك فإن العْمَارَات (الاعْمَارَات) عندما هاجرت لم تهاجر كلها، مثلها مثل وُلْد علي أو المنابهة من عنزة الذين بقي منهم في الحجاز الكثير من القبائل والعشائر. اللهم إلا إذا كانت الهجرة جماعية مثل العْمَارَات (الاعْمَارَات) التي تركت الحجاز كلياً بينما في نَجْد بقي منهم بعض القبائل. لذلك من الطبيعي أن المكان إذا فرغ من أهله فإنه سوف يحل فيه قوم آخرون. مثل الجوف الذي كان لقبيلة كلب القُضَاعِيَّة، ومنذ خمسة قرون قد مضت الجوف لقبيلة الرُّوَلَة، ومع ذلك لم نقل أننا نحن الذين أجلينا قبيلة كلب أو أبدناها. وقس على الجوف منطقة المدينة المنورة التي هجرتها العْمَارَات (الاعْمَارَات) من عنزة.

- قبيلة عنزة عندما تركت بعض ديارها فيما مضى فإنها تركتها قوية والدليل أنها خاضت حروباً دامية مع سكان شمال الجزيرة العربية

Scanned with CamScanner

والعراق والشام، ولم تكن الأرض ممهدة لهم يوم أن وصلوا تلك الديار لذلك بالقوة ثبتوا أطناب بيوتهم في تلك الديار، وهذا دليل على القوة، ومن بقي مثل بعض عشائر وُلْد علي والفُقَرَا (الافْقَرَا) والعْمَارَات (الاعْمَارَات) فقد كانوا من القوة بمكان جعلهم يحافظون على الموروث الذي تركه لهم المهاجرون، فهذه وُلْد علي جماعة الَايْدَا كانت ولا زالت لهم خَيْبَر منذ عشرة قرون قد مضت، منذ أن قَسَّم الطيَّار خَيْبَرًا بين مختلف قبائل وعشائر عنزة. ومعروف خَيْبَر كسلة غذاء في السنين الماضية.

- وقبيلة عنزة عندما خرجت من بعض ديارها كان خروجها تدريجياً، والمغلوب لايكون خروجه بهذه الطريقة؛ فضلاً عن هذا أن عنزة لا زالت في ديارها القديمة كخَيْبَر والعُلا ونَجْد كما ذكرنا آنفاً. فدعوى أن عنزة قد غلبت على أمرها فهاجرت دعوى باطلة جملة وتفصيلا. نعم غلبهم الجوع والقحط الذي جعلهم يتركون بعض ديارهم، وقد فعل مثل فعلهم الكثير، مثل شَمَّر والظَّفِيْر وبني خالد وبعض حاضرة نَجْد، إذ إن بعضهم لم يرجع إلا في العهد السعودي الأخير، مثل أهل الزُّبَيْر الذين هم في الأصل من نَجْد كما لا يخفى على القارئ المتابع. أضف إلى ذلك ضغط الدولة السعودية الأولى والثانية، وكما رأينا كيف كان ابن رشيد يحيك المؤامرات للدَّهَامِشَة، وكان يغري بهم الإمام فيصل بن تركي آل سعود، فصار يغزوهم ابنه الأمير عبدالله بن فيصل حتى تركوا ديارهم في نجد وأطراف الحجاز وهاجروا إلى الشمال.

كما رأينا هذه هي قصة (المجللة) التي ترويها قبيلة حَرْب، والتي ليس عليها دليل ولا شهود لا من الناس!! ولا من المصادر التاريخية!!

هذا وليس فقط عنزة هي التي تركت الحجاز ونَجْداً. هناك الظَّفِيْر

Scanned with CamScanner

وشَمَّر، فقد كانت الظَّفِير تجاور عنزة في المدينة المنورة وتركوها إلى نَجْد ومن ثم إلى شمال شرق الجزيرة العربية وجنوب العراق. وشَمَّر كانت - أيضاً - في الحجاز وتركوه إلى نَجْد، إلى الجبلين أَجَا وسَلْمَى، وبقوا فيها عدة قرون، ومن ثم انساحت بعض قبائل وعشائر شَمَّر إلى العراق، حتى وصل الجَرْبَا إلى الموصل في شمال العراق. ومن بقي من شَمَّر في نَجْد حافظ على دياره وآباره إلى يومنا هذا.

وسبب هجرة عنزة وشَمَّر والظَّفِيْر كما ذكر ذلك مؤرخو نَجْد الذين بعضهم عاصر تلك الفترة هو القحط والجوع الذي عم البلاد والعباد نسأل الله السلامة والعافية. وفعل مثل فعلهم بعض الحاضرة، وما مدينة الزُّبَيْر العراقية عنا ببعيدة، والتي أحياها وسكنها أهل نجد. زد على ذلك الضغط السياسي من قبل الدولة السعودية الأولى والثانية التي أرادت أن تفرض سيطرتها، ومن لم يعجبه الحال فقد كان يبتعد عنها، خاصة أن هذه القبائل الثلاث بادية رُحَّل مما يتيح لهم تغيير المكان متى ما أرادوا.

ذكر المؤرخ ابن بشر أن الإمام سُعُود بن عبد العزيز آل سُعُود عام ١٢١٢هـ/ ١٧٩٧م أغار على بوادي شَمَّر والظَّفِيْر وآل بعيج والزقاريط وهم في السَّمَاوَة عند ماء يقال له: الأبيض. فانتصر عليهم، ومن مشاهير القتلى الشيخ الفارس مطلق بن محمد الجَرْبَا عثرت جواده بنعجة فأدركه خُزَيِّم بن لحيان شيخ السهول وفارسهم، فقتله، فانهزمت تلك القبائل[١].

وقال المؤرخ ابن بِشْر عن حوادث سنة ١١٣٦هـ/ ١٧٢٤م: وفي سنة ست وثلاثين ومائة وألف عَمَّ المحل والقحط والغلاء من الشام إلى اليمن في البادي والحاضر، وماتت الأغنام، وكل بعير يُشال عليه الرَّحْل، وهثل أكثر البوادي في البلدان، وغارت الآبار، وجلوا أهل سدير، ولم يبق في

---

(١) عنوان المجد في تاريخ نجد، عثمان بن بِشْر، ١/ ٢٤٠.

العطار إلا أربعة رجال، وغارت آباره حتى لم يبق في بلد العودة والعطار إلا بئرين في كل واحدة منهما، وجلا أكثر أهل نَجْد إلى الأحساء والبصرة والعراق. وفي هذه السنة والتي تليها: تَلِفَت بوادي حَرْب، وبادية العمارات من عنزة، وتَلِفَت جملة مواشي بني خالد وغيرهم(١).

وكما يرى القارئ الكريم أن قبيلة شَمَّر والظَّفِيْر وغيرهم هاجر بعضهم إلى العراق وإلى بلاد الشام ولم نجد من يقول إنه قد أجلاهم أو ضغط عليهم!! وأنا أعتقد أن من يقول إنه قد أخرج عنزة من ديارها أو ضغط عليها حتى خرجت؛ إنما كان ذلك من عظمة قبيلة عنزة، فهو يريد أن يصنع له مجداً مُتَوَهَّمًا من خلال هذه الدعوى الباطلة ليس إلا!!

---

(١) سوابق عنوان المجد في تاريخ نجد، عثمان بن بِشْر، تقديم وتحقيق وتعليق: عبدالله بن محمد المنيف، ص١٥١.

الكشاف العام

أ

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

ب

Scanned with CamScanner

ت

Scanned with CamScanner

ح

خ

د

Scanned with CamScanner

ز

ش

ص

ض

ط

ظ

ع

Scanned with CamScanner

غ

Scanned with CamScanner

ف

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

ن

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

ي

Scanned with CamScanner

المصادر والمراجع

١ • **القرآن الكريم.**

٢ • **أخلاق الرُّوَلَة وعاداتهم**، ألويس موسيل، ترجمة وتعليق: د. محمد بن سليمان السديس، مكتبة التوبة، الرياض، ط٢، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

٣ • **أصدق الدلائل في أنساب بني وائل (قبائل عنزة)**، عبدالله بن عَبَّار العنزي، ط٧، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

٤ • **إمارة الزبير بين هجرتين**، عبدالرزاق عبدالمحسن الصانع وعبدالعزيز عمر العلي، الكويت، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م.

٥ • **أنس السَّاري والسَّارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب**، أبو عبدالله محمد بن أحمد القيسي الشهير بالسِّرَاج الملقب بابن مليح، حققه وقدَّم له وعلَّق عليه: محمد الفاسي، وزارة الشؤون الثقافية والتعليم الأصلي بالمغرب، فاس، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

٦ • **البدو**، ماكس فرايهير فون أوبنهايم وآخرون، تحقيق وتقديم: ماجد شُبَّر، دار الوَرَّاق للنشر، لندن، ٢٠٠٤م.

٧ • **تاريخ شرقي الأردن وقبائلها**، فردريك بك، ترجمة: بهاء الدين طوقان، الأهلية للنشر والتوزيع، عَمَّان، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

٨ • **تاريخ ملوك آل سعود**، سعود بن هذلول آل سعود، ط٢، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

Scanned with CamScanner

٩ • **تاريخ نجد الحديث**، أمين الريحاني، دار الجيل، بيروت.

١٠ • **تاريخ نجد**، محمود شكري الألوسي، تحقيق وتعليق: محمد بهجة الأثري، دار الورَّاق، لندن، ٢٠٠٧م.

١١ • **تحفة المشتاق في أخبار نجد والحجاز والعراق**، عبدالله بن محمد البسَّام، دراسة وتحقيق: إبراهيم الخالدي، شركة المختلف للنشر والتوزيع، الكويت، ٢٠٠٠م.

١٢ • **التعريف بما أنست الهجرة من معالم دار الهجرة**، جمال الدين محمد بن أحمد المطري، دراسة وتحقيق: أ. د. سليمان الرحيلي، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

١٣ • **الرحَّالة الأوربيون في شمال الجزيرة العربية**، ترجمة: د. عوض البادي، الدار العربية للموسوعات، ط٢، بيروت، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

١٤ • **رحَّالة غربيون في بلادنا**، حمد الجاسر، دار اليمامة، الرياض، ١٤١٧هـ.

١٥ • **رحلات إلى شبه الجزيرة العربية**، جون لويس بوركهارت، ترجمة: هتاف عبدالله، الانتشار العربي، بيروت، ٢٠٠٥م.

١٦ • **سنن أبي داود**، سليمان بن الأشعث السجستاني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت.

١٧ • **سوابق عنوان المجد في تاريخ نجد**، عثمان بن عبدالله بن بِشْر، تقديم وتحقيق وتعليق: عبدالله بن محمد المنيف، دار البشائر، بيروت، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

١٨ • **صحيح البخاري**، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: مصطفى البغا، دار ابن كثير، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

١٩ • **صحيح مسلم**، مسلم بن الحجاج، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢٠ • **عشائر الشام**، أحمد وصفي زكريا، دار الفكر، ط٣، دمشق، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

Scanned with CamScanner

٢١ ● **عنوان المجد في تاريخ نجد**، عثمان بن عبدالله بن بِشْر، حققه وعلق عليه: عبد الرحمن بن عبد اللطيف بن عبدالله آل الشيخ، دارة الملك عبد العزيز، ط٤، الرياض، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

٢٢ ● **في شمال غرب الجزيرة العربية**، حَمَد الجاسر، دار اليمامة، ط٢، الرياض، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

٢٣ ● **قبائل بدو الفرات**، السيدة آن بلنت، ترجمة: أسعد الفارس ونضال خضر معيوف، دار الملاح للطباعة والنشر، دمشق، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

٢٤ ● **قبيلة الرُّوَلَة في التاريخ**، فائز الرويلي، ط٢، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م.

٢٥ ● **كيف كان ظهور شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب**، المؤلف مجهول، دراسة وتحقيق وتعليق: د. عبدالله الصالح العثيمين، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٢٦ ● **مدرسة العشائر في اسطنبول**، يوجين روغان، ترجمة وإعداد: د. نهار محمد نوري، الورَّاق للنشر، لندن، ٢٠١٤م.

٢٧ ● **مذكرات مدحت باشا**، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.

٢٨ ● **مسائل من تاريخ الجزيرة العربية**، أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري، مؤسسة دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام، ط٣، الرياض، شعبان ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

٢٩ ● **منهاج المسلم**، أبو بكر جابر الجزائري، ط٦، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

٣٠ ● **مواد لتاريخ الوهابيين**، جون لويس بوركهارت، ترجمة: د. عبدالله الصالح العثيمين، ط٢، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

٣١ ● **نبذة تاريخية عن نجد**، أملاها: الأمير ضاري بن فهيد الرشيد، كتبها: وديع البستاني، قدَّم لها وحققها: د. عبدالله بن صالح العثيمين، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

Scanned with CamScanner

فهرس المحتويات



Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

فائز الرويلي

قبيلة عنزة الوائلية في كتابات الرحالة والمستشرقين

الدار العربية للموسوعات

Scanned with CamScanner



فائز بن دميثان بن كساب الرويلي

• ولد في جنوب السعودية - جيزان في ٢٥/٧/١٣٩١هـ الموافق ١٩٧١م.

• (بكالوريوس) في الدعوة والإعلام من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.

مؤلفاته:

• مكارم الأخلاق، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.
• ديوان مركب الأحزان، للشاعر عبدالله النايف الفقير، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.
• قبيلة الرُوَلة في التاريخ، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.
• رحلة مشعل المحمل (رسالة في سير الحاج المصري بَرًا) ١٢٩٧هـ/١٨٨٠م، تأليف: اللواء محمد صادق باشا، دراسة وتحقيق.
• رحلة في الأرض المقدسة (بين مصر والحجاز) ١٣٥٦هـ/١٩٣٨م، تأليف: إبراهيم محمد حبيب، عناية وتعليق.
• الرحلة التنوخية (من حلب إلى الجوف) ١٣٣٢هـ/١٩١٤م، تأليف: عز الدين التنوخي، دراسة وتحقيق.
• رحلة إلى الحجاز ١٣٤٨هـ/١٩٣٠م، تأليف: إبراهيم عبد القادر المازني، عناية وتعليق.
• مقالات في القمة، ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م.
• قبيلة عنزة الوائلية في كتابات الرحّالة والمستشرقين، ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م.
• صفحات من أخبار قبيلة الرُوَلة.
• قصص من حياة الناس.
• نبذة مختصرة من سيرة الإمام الشافعي.

ولديه الكثير من البحوث التاريخية والمقالات المنشورة على شبكة المعلومات (الانترنت).

alwaaeli@hotmail.com


ISBN 978-614-424-202-5